

من التاريخ الأدبيّ (٢)

الأدبُ في صدرِ الإسلامِ

قضاياهُ واتجاهاتُهُ وخصائصهُ

للدكتور

حسام محمد علم

الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر الشريف

الطبعة الثالثة

مزيدةٌ ومنقحةٌ

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
٢٠٠٥٩/٢٠٠٣م

مـــركـز آيـــات للطباعة والكمبيوتر
مساكن لكوط - الزراعة - الزقازيق
☎ ٠١٢/٣٧٩٧٦٤٧

الإهداء

إلى الغائبةِ أمِّ حسامٍ طيَّبَ اللهُ ثراها، وتغمدَّها بواسع رحمتِهِ، ..

والحاضرةِ مع كلِّ نبضةٍ تسري في عروقي.

إنْ كفَّكِ لم يزلْ يمسحُ على يُتمِ أيامِ حياتي - برحيلِكِ ... رحمَكِ اللهُ

يا خيرَ مَنْ رحلتْ

مقدمة

﴿الطبعة الثانية﴾

الحمدُ لله، الرحيمُ الرحمانُ، خلق الإنسانَ، علمــه البيــانَ، وميَّــزَهُ عــن ســائر المخلوقاتِ بالعقلِ واللسانِ، وأضاءَ أبصاره وبصائرَه بنورِ القرآن ......

أحمدُهُ سبحانه، جلّتْ حكمتُهُ، وعظُمَتْ قدرتُهُ، لهُ في كلِّ مجالٍ آيةُ، وفي كلِّ خلقٍ حكمةٌ، تشهدُ بعظمته الباهرةِ ، وقدرتِه القاهرةِ...

والصلاةُ والسلامُ على من لا نبيَّ بعدَهُ... إمامُ المتقينُ ، وأبلغُ المتكلمين، وأفصحُ الناطقين، الذي شرَّفَهُ ربُّنا بالقرآنِ الكريم ...

مهما يكنْ من أمرِ بعدُ فإن **أدب صدر الإسلام** قضيةٌ لــم يــزل الشــكُ ســداها، والقصور لحمتَها على الرُغم من توافي قادةِ الفكر الإنسانيّ عليها عبرَ العصــورِ، لمــا حطُّوا برحالهم في ردهاتِ القضاءِ الأدبي بينَ أخاديدِ الحيثياتِ، ولهيبِ النقضِ، ليرفعوا نيرَ الشكوك عن كاهلِ الأدبِ؛ لأنهم الموكلون بالقيمِ العليا...

ولأننا لسنا بحاجةٍ لتمحل العيوبِ – أو تصيدِ السقطات خشيةَ أن تُطمَسَ وجوهُها، لنردَّها على أدبارها– فإننا أردنا أن نقربَ ما تباعدَ، وأن نوفقَ بينَ ما أُختُلفَ فيه...

من جملةِ هذهِ الدوافعِ نهضت الدراسةُ مختزلةً أبعادَها حيثُ جاءَ محتواها موزَّعاً على ثلاثةِ أبوابٍ:

الباب الأول: عنوانه (**مفاهيمُ ومؤثراتٌ**) حيث جاءَ الحديثُ عنه في فصلين:

الأول: "**تحديد المفاهيم**" وفيه رصدت الدراسةُ ثلاثةً هي "صدر الإسلام، الخضــرمة، المخضرم"، حيث سلَّطت عليها ثلةُ مناظيرَ دالةً وكاشفةً ومحللةً حتى أحاطت بها نقباً .. ففصلت ما تشابكَ، وحددَت ما تداخلَ من ألوانِ الاصــطلاحاتِ المبرقشــةِ

بأصباغ الصيغ الرّمادية، فأحدثت المواءمةَ بـينَ الواقـع المعرفـيِّ، والمعنـي المعجميّ.

الثاني: وهو "**المؤثرات**" وفيه عرضَتْ للمباشر منها وهو" الإسلامُ، وغيرِ المباشرِ وهما "الكتابُ والسنةُ" بحيثُ قدمنا- لكلٍّ منهما- سياحةً استكشافيةً، بل رسمنا خارطـةً معرفيةً، استطعنا – من خلالها – أن نحددَ المبلـغَ الإجمـاليّ للقيمـةِ الفعليـةِ، وبخاصةِ آثارُهما على اللغةِ والأدبِ حيثُ مثّلا مخزونين، وقـد فتحـا للشـعراءِ والأدباءِ الموصودَ من خزائنهما .. فضلاً عن هذا كلّه فإنهما لونان أدبيان عظيمان جديران بالبحثِ والدرسِ هنا إذ يشهدُ بذلك العقلُ والحسُّ والتاريخُ والعيانُ و....

أما البـاب الثـاني: فكـان بعنـوان (**اتجاهـاتُ أدبِ صـدرِ الإسـلامِ وموضـوعاتهُ وخصائصُه**) حيثُ جاء مدوّناً في ثلاثة فصول:

الأول: عن "**موقف الإسلام من الشعر والشعراء**" وفيه جاء الحديثُ موزّعاً على عدة نقاط هي "موقف القرآن من الشعر بوجهٍ عامٍ، والرسولِ بوجهٍ خاص، ثم عرضنا لموقفِ الخلفاءِ، ثم تطرقنا لموقـفِ القـدماءِ .. والواضـحُ أن الآراءَ المتنـاثرةَ استطاعت أن تتضامَ، وتتجانسَ؛ لتتلاحمَ مشكّلةً النصوصَ الكاشـفةَ تلـك التـي استنطقت الحقائقَ مستحضرةً رموزَها، ودلالاتها، مكونةً الرؤيـةَ الكليـةَ لهـذه القضيةِ الأدبيةِ.

الثاني: عن "**اتجاهاتِ شعرِ صدرِ الإسلامِ وموضوعاته وخصائصه**" حيـثُ راعينـا التفاوتَ الحاصلَ بينَ بيئاتِ الشعراءِ، وطبقاتهم، ومـذاهبهم الدينيـةِ، وأنمـاطهم العقليةِ والاجتماعيةِ والنفسيةِ، ثم انتقلنا للحديثِ عن موضوعات الشعراءِ القديمـةِ والحديثةِ تلك التي استمدوها من الإسلامِ، ومن كلِّ ما رسمته تحولاتُ العصرِ.

الثالث: "**النثرُ في صدرِ الإسلامِ .. خصائصُه وفنونُه**" وفيه عرضنا حديثاً مفصّلاً للنثرِ في الجاهليةِ، وكيف تميزت الأمثالُ على أغلبِ الفنونِ النثريةِ، ثم كيـفَ انتقلـت

العصمةُ الفعليةُ ليد الخطابةِ الإسلامية. هذا ولقد عرجنا إلى موضوعاتها، وعواملِ ازدهارها، ثم انتقلنا إلى الكتابةِ الفنيةِ حيثُ ذكرنا حديثاً مفصلاً للأوليةِ الكتابيةِ مع عرضٍ لأهمِّ فنونها وسماتِها ..

هذا ولم تعتمدْ الدراسةُ على التفككية[1] التي ترى حتميةَ فكِّ العلاقةِ بينَ اللغةِ ومرجعها الخارجي، وكذلك الأسلوبية[2]؛ لأنها تعتمدُ على الركائزِ اللغويةِ التي انشغلت بها البلاغةُ القديمةُ، وقد تمَّ النظرُ إليها بوصفها البلاغةَ الجديدةَ من حيثُ إنه منهجٌ للتعبير، إذ تتعددُ أمامهَ طرائقُ القول، وفنونُ التعبير، ثم تتنوع الأدواتُ ووظائفُها المرتبطةُ بالتفاعلِ الذهني حيناً، والعاطفي حيناً آخر.

على الجانب الآخر فإن أغلبَ التحديداتِ المعرفية والإدراكية للأسلوبية لم تكنْ وافيةَ الغرضِ وذلك؛ لأن مفهومَ الأسلوبيةِ يختلفُ على حسبِ البيئةِ الثقافية، واختلافِ مفهومِ العملِ ...

كلُّ ما سبقَ كانَ الدافعَ الرئيسيَّ لاتباع المنهج التحليليّ القائمِ على الاستقراءِ والاستنباطِ التامِ مع الاعتمادِ على التذوقِ الشخصيِّ.

هذا ولا تزعمُ الدراسةُ لنفسها أنها بلغت حدَّ الكمال، أو أحصت المحتوى عرضاً؛ لكنها رؤيةٌ نأملُ أن تترجمَ وجهاتِ نظرنا، وتوضحَ مقاصدنا.

واللهَ نسألُ أن ينفعَ - بهذه الدراسةِ - طلابَ العلمِ وقاصديه . .

سبحانه وتعالى من وراءِ القصدِ . . واللهُ الموفقُ

الدكتور حسام محمد علم

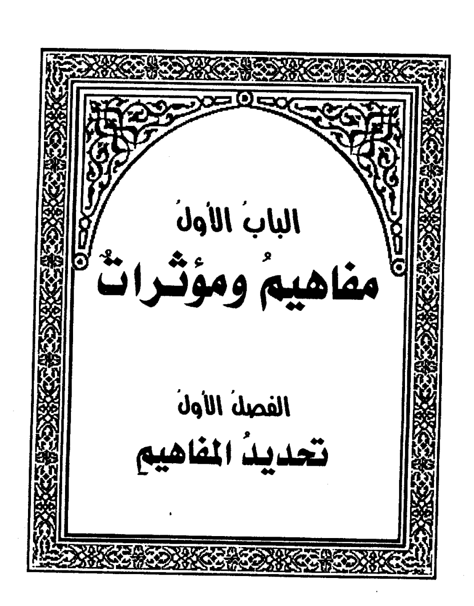
غزالة الزقازيق

مساء الجمعة اليتيمة من رمضان لسنة ١٤٢٥هـ

---

(1) لأنها تعزلُ اللغة على مرجعها الخارجي لذلك فإنها تكسُر الحصار البنيويَّ ، وتفتحَ الأبواب أمام الاجتهادات العلمية والخيالية.

(2) مزيداً من التوضيح يمكنك الرجوع إلى: ١- البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب صـ١٣٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م. ٢- المنهج الأسلوبي في المنهج الأدبي في مصر لمديحه جابر السايح، الهيئة العامة لقصور الثقافة.



الباب الأول
مفاهيم ومؤثرات
الفصل الأول
تحديد المفاهيم

مع تأبط ذراعي الزمان، وتغُّير أحوال الأنام قد تتحول المصطلحاتُ، وتتباين الدلالاتُ، فتتفاوت الأقوال، وتتشابه الألوان، فتختلط المفاهيم مشكّلة ضبابيةً – بالقصدية أو العفوية – وقتئذٍ تصبح الحاجة داعيةً؛ لإعادة رسم الخارطة الاصطلاحية بكل خطوطها أو مستوياتها؛ وهنا يتحتّم على الباحث ملاحقة المصطلحات بكل ما يملك من بوصلات تساعده على كشف غموضها، وسبر أغوارها، وقيد حروفها التي غاب ميلادها في عصر دارت رحاه – حتى صارت مهددةً بالاقتلاع أو السحق – بين مطرقة العلم، وسندان التكنولوجيا؛ لكنها لن توهن من الأدب شيئاً؛ لذا فإن جدَّة البحث – في إماطة اللثام، وتقنية الكلام، وإضفاء روح المنهجية العلمية على المفاهيم – ينبغي أن تكون سبيلاً نحو التجذر، والرسوخ في أعماق تربة المعارف، والعلوم الإنسانية والطبيعية.

مهما يكن من أمرٍ فإن الحديث عن صدر الإسلام يستوجب منا إضاءةَ دلالاته؛ لتختزلَ أبعاده، وذلك من خلال عدة رؤى تترجم بشكل نسبيّ، أو ثلة مناظيرَ ولأجه تستكشفُ ببعد يقيني، أو حدّي بحيث تتلاقى جميعُها على صفحة الدراسة؛ لتعين على فهم المصطلح حتى يمكن الاستفادة منه بالصورة الفضلى، والطريقة المثلى .. وإنا لواجدون أن هذه هي الطريقة المستقيمة التي لا تسير معها المفاهيم في خطٍّ منكسر؛ لأن الخطوط المتعرجة المتشابكة لا تتوازى إلا لتتقاطع، ولا تلتقي إلا لتتفرق؛ لأنها لم تنطلق بدءاً من نقطة واحدة..!!

إنه إن كان هذا كذلك فالناظر – إلى صدر الإسلام – في دراستنا من المنظورين اللغوي والاصطلاحي يراه –في الأول– مركباً إضافياً مكوناً من لفظتين:

الأولى: "صدر" **الأخرى: "الإسلام".**

فأما عن "صدر" في اللغة فيقول صاحب اللسان(١) بعد فتح أولها، وتسكين ثانيها(٢) هي أعلى مقدم كلّ شئ وأوله، وهي مذكر(٣)..

---

(١) راجع: لسان العرب مادة "صدر" طبعة دار المعارف.

(٢) هكذا جاءت مضبوطة؛ لأنه لو حرك ثانيها "بفتح" لدلت على اليوم الرابع من أيام النحر؛ لأن الناس يصدرون فيه عن مكة إلى أماكنهم، وتركتُهُ على مثل ليلة الصدر: أي لا شئ له، والصدر اسمٌ لجمع صادرٍ– ينظر اللسان مادة "صدر"

(٣) هكذا قال ابن منظور "على" لسانه لكن الأعشى جاء به مؤنثاً فى قوله:

ويشرقُ بالقول الذي قد أذعَتَهُ   كما شرِقَت صدر الفتاةِ من الدَّمِ

ويُستدل على ذلك بقول العامة....... صدر النهار والليل، وصدر الشـتاء والصيف، وجمعه صُدُور.

فالواضح –من خلال هذا العرضِ المعجمي– أن (صدر) ذاك المشترك اللفظي[1] يجئ بمعنى أول الشئ أو بدايته، وعليه نقول: صدر الإسلام –"أي بداية الإسلام".

ولما نيمم شطر المضاف إليه " الإسلام" لغةً فإنها – بعد حـذف أل "التعريـف مصدر رباعي من الفعل "أسلم" وهو مزيد ثلاثي بالهمزة في أوله على وزن أفعل حيث إنه من (سلم) ومعناه الاشتقاقي مأخوذٌ من الخضوع والخشـوع والانقيـاد لله سـبحانه وتعالى.

هذا ولقد وردت اللفظة بهذا المعنى مثل قوله تعالى **(وأُمِـرْتُ أنْ أُسْـلِمَ لِـرَبِّ العَالَمِينَ)** سورة "غافر" آية: (٦٦)، ثم أُطلقَت بعد ذلك "علماً" على ديننا الحنيف، ديـنُ العامة والخاصة كافةً، حيثُ تمم الديانات السماوية السالفة فدلَّ على الشريعة الإلهية التي بسطت نفوذها على كلِّ ما سبق من شرائعَ سماويةٍ، وهو الرسـالةُ العالميـةُ التـي لا تخضع لشئٍ من مواريثِ الثقافةِ الإنسانيةِ، والربانيةُ العظمى حيثُ كان رسولُها ربانيـاً؛ لذا كان اليتم له لازماً؛ ليفرغ عمره كلّه لأستاذية ربّه جلَّ وعلا............

ما سبق كان حديثاً عن صدر الإسلام "في اللغة" أمّا في الاصطلاح فقد يبدو لنا: أن صدر الإسلام قيمة إنسانية جُلَّى، تعاور عليها الفكر الإنساني تعني أوليةً عقديةً ذات قيمةٍ تحويليةٍ في الفكر والشعور، تهدف إلى إخراج الناسِ من مطارق الجهل، وسـندان العبودية إلى نور اليقينِ والعلمِ والمعرفةِ والحريةِ والسعادةِ، حيثُ استطاع الرسـول – بفضل الله تعالى– أن يخرج للعالم أمةً عظيمةً قادت البشرية، وجيلاً له خصائصه التي بها يتميز عن جميع من حوله من بني الإسلام.

---

(١) المشترك اللفظي معناه اصطلاحاً:– تسمية الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد مثل عين الماء، وعين المال، وعين السحاب، انظر: الصاحبي في اللغة لابن فارس سنة ١٩٦٤م ص ٩٦ مؤسسة بـدران – لبنـان سنة ١٩٦٤م.

عوداً على بدء فإن هذه القيمة تمثلُ طوقَ النجاة، ومفتاحَ السعادة، وزهرةَ الدنيا التي ملأت الوجودَ عطراً، ونهرَ الخير والبركة الذي لا ينصبُ له معينٌ.

ثم ندعُ ما سبق لنبحثَ عن "صدر الإسلام" في المفهومين **التاريخي**- موضوع حديثنا، وبؤرة اهتمامنا- **والعقدي** بحثاً يُرَادُ منه تقعيدُ المفاهيمِ وترسيخُها بقصد تأصيلِ الدراسة وتحديدها.

نعودُ إلى المفهوم الأول فنجدُ من يقول: إنه الفترة الممتدة من بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى سقوط بني أمية سنة (١٣٢هـ)[١].

وهذا ثانٍ يرى- أن ما ذُكِرَ -آنفاً- هو العصر الإسلامي[٢].

وذاك ثالث يقول: إنه من مبعث النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) إلى آخر أيام الخلفاء الراشدين سنة (٤٠هـ)[٣].

وهناك رابع يقول: إنه العصر الذي يبدأ بالبعثة النبوية، وينتهي بتنازل الحسن ابن عليّ بن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيانَ عام ٤١هـ [٤].

فالناظر -في التعاريف السابقة- يمكنه القول: بأن الرأى الأول يصعبُ أن نسلم به؛ لأن دمج العصرين- الإسلامي مع الأموي، واعتبارهما واحداً- هو أمرٌ ينتجُ عنه ضياع الثبت، وتلاشي الكثيرِ من الحدودِ المميزةِ للكياناتِ السياسيةِ[٥] والاجتماعيةِ[٦] لهما

(١) انظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي ج١ ص ٨٧طبعة بيروت.

(٢) انظر: النثر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك ج١ ص ٥٧ طبعة دار الكتب العربية المصرية سنة ١٩٤٣م.

(٣) انظر: أدب الخلفاء الراشدين لجابر قميحة ص ٣١ طبعة دار الكتب الإسلامية.

(٤) انظر: الأدب في عصر النبوة والخلفاء الراشدين (المقدمة) مكتبة الخانجي، حيث حدد الدكتور صلاح الدين الهادي الفترة بنصف قرن تقريباً على اعتبار أن النّبيّ بُعثَ بمكة قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث عشرة سنة، وقد انتهى عصر النبوة والراشدين سنة ٤١هـ فتكون مدتُه أربعةً وخمسين عاماً.

(٥) لقد ثبت أن النظام بعد رسول الله (ص) كان بالخلافة، وفي عصر بني أمية كان بالوراثة، فضلاً عن ظهور الأحزاب السياسية كالخوارج والشيعة والزبيريين

(٦) لقد تنوعت الحياة الأموية، وتشكّلت على حسب بيئاتها في العراق والشام والحجاز ونجد ما بين ملكية إقطاعية، وعصبية قبلية... راجع: ما قلناه عن "مقدمة في المنهج" في "دراسات في الأدب الأموي".

بكل صبغياتها وهياكلها المعرفية والعقدية والفكرية، من هنا فإن الفصل يجئ ضــرورةً واجبةً لاسيما أن الاختلاف قائمٌ وحتمي بين العصرين قيادياً وحضارياً وعقلياً ونفســياً وأدبياً.

أما الثاني فإنه صورةٌ مصغرةٌ من سابقه، وعليه فإنه تعريــفٌ بــلا ضــفاف إذ يُذهب الكثير والكثيرَ من الأولية الإسلامية بكل قسماتها التاريخية والفكريــة والأدبيــة، وهنا تضيع المعالم، وينطمر الثبت، وينحسر التاريخ فيتحرك حركة خابطة فــي التيــه طالما أن الحدود الزمنية قد تلاشت...!!

وأما الثالث فإنه يعتمد على التسلسل الزمني المتتابع دون ظهور الخط الفاصــل الذي نستطيع -من خلاله- ترسيمَ الحدود المستقلة لكل من العصرين، هذا بالإضافة إلى اعتماده على البعد النَّسَبيّ العام، أي المنتهي نَسَباً بآخر أيام الخلفاء، وهذا إطلاقُ عموم.

ثم ننظر إلى الرابع فنرى أنه اعتمد على عصر الرسول، ومن خَلَفَه ممن كــانوا يعاصرونه، ثم بتنازل الحسن لمعاويةَ، وانفراد الأخير بالخلافة، وإنني -هنا- لمتفقٌ مع ما جاء به صاحبه الدكتور صلاح الدين الهادي؛ لأنه راعى - في تقسيمه هذا -الخــيط النَّسَبي والزمني معاً هذا **أولاً**.

ثانياً: أنها تتناسب وجوهر المصطلح طالما أننا متفقون على أن صــدر تعنــي "أول"، فالأولية- بوصفها فترةً زمنيةً تحركت فيها البشريةُ من الوثنية إلى الإسلام حركةً عقديةً - أعتقد أنها كافية ومتوازنة؛ لأن تغير الوجه العقدي والتاريخي وانتقالهمــا يستغرق مدةً زمنيةً محسوبةً بدءاً رغم ما تلاقيه من صعوبات وهــي أخــذه فــي سبيلها إلى التقعيد والترسيخ .. ثم انتهاء لما تغير وجهُ الدولة السياسي.

لكن يبقى لنا سؤال يقولُ:- إن هناك عاماً هو ما بين سنة أربعين التي توفي فيها عليٌّ- كرم الله وجه، وبه انتهى عصر الخلفاء، والحادية والأربعين التي تنازل الحســن فيها لمعاوية، وبايعه ... هذا العام لأيّ عصر يُنْسَب.........؟!

إن أغلبَ الظنّ يدفعني إلى القول: بأن هذا العامَ كان المرحلـةَ الانتقاليـةَ ثـم التأسيسيةَ للبيت الأمويّ بحيثُ تمَّ صياغة الدستورُ الأموي، وقد توطدت به دعائمُ الدولة.

ما سبق كان حديثاً عن "صدر الإسلام" في المنظور التاريخي، أما في **المفهـوم العقدي** فإنها قيمةٌ تحوُليةٌ في الكيانِ الإنساني، تحرك فيها الشعورُ والفكرُ البشريُ مـن عقيدة وثنيةٍ جاهليةٍ إلى عقيدةٍ إسلاميةٍ قام بها الرسولُ، وبلّغها حيثُ بدأ بنفسه، وكـان أولُ ما استولى على قلبه اليقينُ القادرُ على كلِّ شئ، واليقينُ بيوم الحساب؛ ولكن ذلـك اليقينَ الذي ملأ نفسه -كان من القوة بمكانٍ- بحيثُ فاضَ عنها فلم يجد بُدّاً من أن يرشدَ إخوانه إلى نورِ الهدى، ذاك الصراطِ المستقيمِ؛ ليخرجهم من ظلمات الحَيرة، وينقـذهم من متاهات الضلال، ولم يلبثْ حتى أنشأ في مكةَ جماعةً دينيةً صغيرة[1] علماً بأن الذي ألف بينَ قلوبِ هذه الجماعةِ هو الإيمانُ بإله واحدٍ لا تدركه الأبصارُ، وهـو يـدركها، خالقُ هذا العالمِ في أحسن صورةٍ، ومُحاسِبُ كلِّ نفسٍ بما كسبت حتى لا يترك النـاس سُدًى أو هملاً، كما كان يجمع بينهما مبدأٌ خلقيٌّ قوامه أن يعبد الإنسانُ اللهَ لا يشرك به شيئاً، وأن يسعى إلى إبعاد نفسه عن متاع الدنيا وغرورها وشرورها الفاني، وأن ينشد الحقَّ والخيرَ والحبَ والتسامحَ والعدلَ والفضلَ والرحمةَ.

وهذا الإيمان من شأنه أن يستولي على الروح استيلاء تاماً، وهو لا يكتفي ببعث الرضا بإرادة الله بل يدفعه- أيضاً- إلى العمل بما يريده الله جلَّ وعلا.

الخضرمة (مفهومها — معناها):

الناظر إلى معناها في اللغة يرى أنها مصدرٌ رباعيٌّ مـن الفعـل "خضـرم"، والخِضْرَم: هو الكثيرُ من كلِّ شئ، وكلُّ شئٍ كثيرٍ وواسعٍ "خِضْرَم"، والخِضْـرَم: هـو

(١) انظر: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية تـأليف المستشـرق الألمـانى يوليوس فلهورن ترجمة د محمد عبد الهادي، ود.حسين مؤنس ص٤٣ طبعة التأليف والترجمـة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٨م.

الجواد الكثير العطيَّة، مشبَّه بالبحر الخِضرِم، وهو كثيرُ الماء، وماء مُخضرَم وخضَارم: كثيرٌ، والجمع خضارم وخضارمة[1].

ما سبق – من قول– يؤكد لنا أن اللفظة جاءت بمعنى **الكثرة والسعة**، كذلك فإنها جاءت بمعنى **الهجين والمختلط**[2] **النسب**، أي الذي لا تُعرف حقيقةُ أصله؛ ربما لأنه جمع بين عرقَين مختلفين صَعُبَ أن ينتسبَ لأيٍّ منهما..!! لقد قالوا: رجلٌ مخضرمٌ: أبوه أبيض وهو أسود، ورجل مُخَضْرَم: ناقصُ الحسب – يعني ليس بكريم النسب ولا يعرف أبواه – أي أنه دَعِيّ، وقيلَ: هو الذي ولدته السَّراري[3].

على كلٍّ فإن ما مضى كان حديثاً عن معناها، أما عن مدلولها في المفهوم أو المدلول العربي فإنها سمة جاهليةٌ، كانت تَطلقَ على الناقة[4] التي قُطع طرفُ أذنها، أو تُقطَعُ أحدُ الأذنين، وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم، فلما جاءَ الإسلامُ أمَرَهم النبي (ص) أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرمُ منه أهلُ الجاهلية ... من هنا دلّ معناها على القطع سواءٌ أكانَ كليّاً أم جزئيًّا

ولأن أصل الخضرمة أن يُجْعَلَ الشيءُ بينَ بينَ فإذا قُطِعَ بعضُ الأذن فهي بين الوافرة[5] والناقصة، وقيل: هي المنتوجة[6] بين النجائب[7] والعكاظيات[8]؛ لذا قيلَ: لكلٍّ من أدركَ الجاهليةَ والإسلامَ معاً مخضرمٌ؛ لأنه أدرك الخضرمتين[9].

---

(١) راجع: لسان العرب مادة (خضرم) حيث أنكر الأصمعي ذكر "الخضرم" في وصف البحر، كما أفاد بأن الخضرم لا توصف به المرأة؛ وهذا يدلل على أن الكرم والنسب أمران يختصُّ بهما الرجالُ دون النساء.

(٢) هذا لقول ابن خالوية: خَضَرَم: خلَّط... راجع اللسان مادة "حضرم"

(٣) راجع: المعارف لابن قتيبة ط١ ص٢٤٩. مصر سنة ١٩٣٤م.

(٤) جاء فى الحديث "خطبنا رسول الله" (ص) يوم النحر على مخضرمة

(٥) الوافرة: كل ذي شحمة مستطيلة، وقيل ألية ا؛لكبش إذا عضمت..... اللسان مادة (عظم).

(٦) المنتوجة: هي الناقة الحامل إذا ولدت– اللسان مادة "نتج"

(٧) النجائب: مفردها النجيب، وتطلق على الناقة الخفيفة السريعة.

(٨) العكاظيات: تطلق على النياق المحبوسة.

(٩) لقد جاء في ذلك حديث أن قوماً من بني تميم بُيِّتُوا ليلاً، وسيق نعمهم، فادعوا أنهم خضرموا خضرمة الإسلام. وأنَّهم مسلمون، فردُّوا أموالهم عليهم، فقيل لهذا المعنى لك من أدرك الجاهلِّية والإسلام مخضرم؛ لأنه أدرك الخضرمتين خضرمة الجاهلية، وخضرمة الإسلام.

إننا لو سلمنا بما جاء فرضاً فإننا سنتعامل مع الخضرمة من خلال ثلاثة أبعاد:

الأول الحقيقي وهو المتمثل في القطع المادي: وهو ما أظهره إبراهيم الحربـي فـي خضرمَ أهلُ الإسلامِ نعَمَهُم أي قطعوها من آذانها، وذلك في غيرِ الموضعِ الذي تعوَّدَ أهلُ الجاهلية على خضرمةِ نعمهم حيثُ جاءت خضرمتهم دالةً أو كاشـفةً على إسلامهم الذي غيّرَ عاداتهم خشيَةَ أن يَغْيرَ عليها، أو يحاربهم أحدٌ أو هو ما وضّحه الأصمعي بالسعة والكثرة تشبيهاً بالبحر.

الثانى: المجازي وهو القطع المعنوي: ويُهْدَفُ منـه أن الإسـلامي – بدخولـه فـي الإسلام– قد انقطعَ عن الكفرِ، وتخلى عن عاداته كرهاً أو طوعاً بحيث تغيـرت أحوالُهُ تغيراً واضحاً، وذلك بالانقطاع عن الجاهلية، ثم الاعتناق القوى للإسـلام حيثُ العقيدةِ الراسخةِ، والدينِ الحنيفِ، والقرآن العظيم ذاك الدستور القـائم أبـد الدهر، والدعوة والسمحة التي قامَ بها رسولُنا الكريمُ (ص).

الثالث الحقيقى المجازي: وهو ما أشار إليه ابنُ خالويةَ عدما فسَّر المخضرمَ بـالمخَلَّط سواءً أكانت المخالطةُ ماديةً ممثلة في تلاقي المياه المختلفة في الأرحام ، وعليها يتخلَّقُ أو يتكونُ الخليطُ أو الهجين الذي يجمعُ بين نسيجين مختلفين، أم معنويـةً ممثلةً في عصرين متتاليين زمنياً، ومختلفين عقائدياً كأن يكونُ المرءُ قـد أدرك الجاهلية والإسلام معاً فعاش عصرين مختلفين كل الاختلاف في وحدة المعتقد.

إنه بالنظر في الأبعاد السابقة نجد أن أقربها للصواب هو البعد المجازى حيثُ إن الإسلامي الذي تخلَّى عن الكفر– متوجهاً إلى الإسلام اعتقاداً فيه، واعتناقاً له هو نفسُه الذي عاش في الجاهلية، وقد كانَ على دينِ الوثنية. وبدخوله في الإسلام صفت نفسُـهُ، وهُذِّبَ حسُّه، وسما فكرُه، ورقَّت مشاعره بعد أن حرَّم الإسلام موضوعاتٍ كان ينظمها من قبلُ في ألفةٍ وانسجام....... على الجانب الآخر فإن معنى الكثرة والسعة للمخضرم الذي ذهب إليـه صـاحب اللسـان يمكننـا تقبلـه علـى الوجـه المجـازي علـى

اعتبار أن ما حصل عليه من أفكارٍ وثقافاتٍ وعلوم وخبراتٍ من ذاك الزمن الممتد مـــع اختلافٍ أو تباينٍ فى معطياته ورؤاه أو أيديولوجياته ما هـــي إلا محصـــلاتٌ طبيعيـــة لتجاربَ فعلية منحتها إيّاه الحياة؛ فيصبح أشبه بالبحر الطامي في سعة علمه وغزارته، وشمولية نظراته.

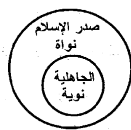
على كلٍّ فالناظر إلى هذا البعد يراه ديناميكياً خالصاً إذ يخلق علائقيـــةً دلاليـــةً كاشفةً، وكليةً فكريةً نابضةً بالمرونة، ومدعمةً بالشفافيةً ومشعة بالإيحاء.

العلاقة بين الخضرمة وصدر الإسلام:

طالما أننا قد عرفنا – يقيناً– أن الخضرمة تعنى خليطاً شبه متكافئ أو متعـــادل بين عقيدتين الأولى: وثنية، والأخرى: إسلامية وقد امتزجتا معاً بيد أن الأخيرة كانـــت فاعلةً مؤثرة، فأحلت قيمها وآدابها وتعاليمها محلَّ سابقتها فجبَّتْ ما قبلها؛ علـــى هـــذا التصور يمكننا القول بأن العلاقة هنا تكون تكامليةً ترابطيةً طالما أن الخضرمة نســـيجٌ متكاملٌ من الجاهلية وصدر الإسلامِ معاً، وقد صُبِغَا بطابعيهما، أو شُكِّلا علـــى حســـب ظروف ومعطيات حياتهما.

إننا لا نعدو الواقع – ولو قيد أنملة– إذا قلنا: إنها خليةٌ كونيـــةٌ زمانيـــةٌ تمثـــل الجاهليةُ وصدرُ الإسلام فيها طورين أو مرحلتين بداخلها لتصبح الجاهلية أشبه بالنُّويَّة، وصدر الإسلام النواة[1] داخل الخلية الحية.

والرسم التالي تخطيطيٌّ يوضحُ العلاقةَ بين الخضرمة، وصـــدر الإســـلام فـــي المنظومة الحيثية للخلية الخضرمية.



(١) النواة هي مركز السيطرة والتحكم الفعلى للكائن في الخلية إذ تحتوى على عدد من النويات.

فالناظرُ المدققُ – في الرسمِ السابقِ – يمكنه القولُ: إن العلاقةَ بـين الإسـلامِ والخضرمةِ علاقةٌ تكاملية ممتدةٌ على صفحةِ الزمانِ بحيثُ يجئُ صدُر الإسلام جـزءاً متمِّماً، بحيثُ يندمجُ مع الجاهليةِ في تمازجيةٍ مكوناً الخليةَ الزمنيةَ.

إنها هنا أشبه بالخليةِ الحيةِ، إذ يجئُ صدُر الإسلام فيها الجزءَ الفاعـلَ والقيمـةَ الحركيةَ الضوئيةَ، أو الديناميكيةَ في الخليةِ الخضرميةِ، بينما تشـكِّلُ الجاهليـةُ البنيـةَ التأسيسيةَ للبُنى التاريخيةِ – الحاليةِ والمستقبليةِ.

المخضرم:

من نافلة القول نشيرُ إلى أن المعاني تتقارب تقارباً كبيراً قد يصـلُ إلـى حـدِّ التمازج أو التضاربِ في دائرةِ هذا المصطلح؛ لكننا نرى أن المخضرمَ غالباً ما– يجئ صفة متنقلةً، والموصوف إماً رجلاً، وإماً شاعراً. فإذا **كانت الأولى** فإنها تنصرفُ إلـى المعنى العقدي فتعني كلَّ من يدينُ بالجاهليةِ، ثم أسلمَ بظهورِ الإسلامِ، أو بعده بقليلٍ.

صحيحٌ أن اللفظةَ قد تطورت تطوراً دلالياً في المفهوم المعاصر، وقد سبحتَ في الفضاء العملي فصارت تُطلقُ على المتمكِّن في إتقانِ علمٍ، أو حذق مهارةٍ أو صـنعةٍ، حيث إنّ التجاربَ – بطولها وعرضها– قد أكسبته درايةً وخبرةً كبيرتين؛ لكنها تعني أن هناك تغييراً ما يطرأُ على المرءِ، وغالباً ما يكسبه الكثيرَ والكثيرَ من الخبـراتِ .....
وإن **كانت الأخرى** فإنها تعطي الصفة الفنيةَ والغايةَ التقنيةَ لصاحبها ذاك الشاعر الـذي عاصرَ الجاهليةَ والإسلامَ معاً، أي إنه قال شعراً في العصرين بعدما أفادتـه تجـاربُ الحياتين، والواضحُ أنه استفادَ من الصنعةِ الجاهليةِ والمستجداتِ الإسلاميةِ معاً، وبالتالي جمع كل ما يمكِّنه من التأصيلِ والارتقاءِ بذلك الفنِّ الشعريِ الخالدِ ....

يؤكد ما ذهبنا إليه ضمناً قول[1] لبيد الذي أدرك الجاهلية والإسلام معاً فقال:

إلى ابْنِ حَصانٍ لمْ تُخَضْرَمْ جُدُودُه كثيرِ الثَّنا والخيمِ والفرعِ والأصلِ

(١) راجع: اللسان مادة ٨ خضرم والثنا يكون فى الصدقة بحيث تؤخذ في العام مرتين.

حيثُ إنه يمدح ابن حُصان الذي عرف بكثرة تصدقه على الفقراء؛ لأنــه كــان كريم الأصلِ والحسبِ والنسبِ إلا أنه يؤخذ عليه عدم خضرمة أجداده.

مما سبق يتراءى لنا أمران:

الأول: أن الخضرمة – في المفهوم الفني – تنصرفُ كُلِّيَّةً إلى الصنعةِ الفنيةِ لا سـيما الشعريةُ أكثر من القيمةِ العقديةِ؛ لأن الدين شئٌ، والفنَ شئٌ آخر.

الثانى: أن الخضرمة -بأبعادها التاريخيةِ والواقعيةِ والفنيةِ- ما هــي إلا كتلــةٌ زمنيــةٌ مجمعةٌ، إذ يصبح من الصعوبة -بمكان- أن يوزّع الشاعرُ شعره ما بين جاهليةٍ وإسلام؛ لاختلاف طبيعة وظروف كل عصرٍ، فضلاً عن هذا كلــه فــإن أهــل الجاهلية -ومن تلاهم – لم يدونوا تراثهم حينئذٍ؛ لعدم شيوعِ الكتابــةِ فــي ذلــك الحين، أو لقصرها على نفرٍ قليل.

وفى **المفهوم النقــدي** نقول: لعل ابنَ سلام أولُ من أشار إليه، وذلك لما لاحظنا إدراج بعض المخضرمين أسماءهم في مراتب الشعراء الجاهلين حيثُ إنه لم يجد أثــراً بارزاً يميزهم عن شعراء الجاهلية ربما؛ لغلبةِ المثاليــةِ الفنيــةِ الجاهليــة؛ لــذا عــدّ المخضرمين في الجاهليين مرةً، وفي الإسلاميين مرةً أخرى فقال: ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا فى الجاهلية، وأدركوا الإسلام فنزّلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعرٍ بما وجدنا له من حُجَّة، وما قال فيه العلماء[1].

لكن ابن قتيبة كان أكثر بعداً وفقهاً بالمسألة من سابقه، حيث اقترب حثيثاً مــن المفهوم لما حدد المخضرم فقال: وإنما يكون مخضرماً إذا أدرك الإسلام وهو كبير فلم يسلم إلا بعد رسول الله (ص)........[2].

---

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء السفر الأول بقراءة وشرح محمود محمد شاكر ســنة ١٩٧٢ صـــ ٢١. مطبعة المدنى

(٢) انظر: المعارف ص ٢٤٩ طبعة الصاوي سنة ١٣٣٥م.

والمتأملُ في المفهوم السابقِ – يرى أن الدقةَ الزمنيةَ مغيبةٌ إذ أن "بعد" رسول الله (ﷺ) تعني أي عصر أدبي بعده بقليلٍ، أو بكثيرٍ حيث جاءت دون تحديد لماهية هذا العصر، وملامحه التاريخية والاجتماعية، كما أن مسألة الفصلِ، أو العزل تحولُ دونَ بلورة المفهومِ بالشكل العلمي الذي يتناسب مع موازين العقلِ السليم.

ثم ننظر في منظور اللغويين القدماء فنرى السيوطي يخرج علينا بتعريف حدي للمخضرم وقد غلبَ عليه الطابعُ التاريخيُّ – فيقول: "هو الذي عاش نصف عمره في الجاهلية، ونصفه في الإسلام سواء أدرك الصحبة أم لا......(1).

فالمدقق – في هذا التعريف – يرى أن الحدَّ القيديَّ أو القيمةَ الشرطيَّةَ هي الباعثُ الحقيقى لوضعه، وقد يبدو لنا أن النماذجَ التي وصلت إلينا من الشعراء "كحسان ولبيد وغيرهم" هي الباعثُ المُلْهمُ الذي جعل السيوطي يذهب إلى ما ذهب إليه؛ لكنني أرى أن انشطار عمر الشاعر – في دائرتين متقابلتين – أمرٌ فيه تجاوزٌ وتعسفٌ، وصعوبةٌ في التحقيق وخصوصاً أن الأمر تحكمه الصدفةُ أو التقدير الظني أكثرُ من العلمى أو اليقينى؛ لأن مسألة الحياة والموت هي أمرٌ غيبيّ لا يعلمه إلا ربُّنا جلَّ وعلا.

هذا ولقد اتسع المفهوم فأصبح يطلق على كل من أدرك دولتين، وشهد عصرين وآية ذلك ما ترجمهُ الأصفهاني لطائفةٍ من شعراء شهدوا الدولتين بقوله عن دواد بن سلم مولى بني تميم وهو مخضرم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية.

وحديثاً نجدُ بعض الدراسين يشترطون ضرورةَ تأثر الشاعر المخضرم بالإسلام في شعره، وهذا حكم يُستَعصَى تطبيقهُ على كل الشعراء المخضرمين؛ لأن التسمية أُطلقَتْ على كلِّ من أدراك الجاهلية والإسلامِ معاً دون تحديدٍ لماهيته.

من جملة ما سبق يمكننا القول: إن المخضرمَ من عاش عصرين متتاليين وقد حملَ شعرُه سماتِ كلِّ عصرٍ حتى مثَّلها، أو ترجمها – في نظمه – ترجمةً صادقة

---

(1) انظر: خزانة الأدب ج1ص245.

ومعبرةً، ويؤكد ما ذهبنا إليه ما جاء عن حسان قوله: "الشعرُ نكدٌ بابُهُ الشرُّ، فإذا دخـلَ في الخير ضعفَ، فهذا حسان فحلٌ من فحول الجاهلية فلما جاءَ الإسلامُ سقط شعره"[1]. لقد جاء تصويرُه لمبادئ الإسلام وصفاتِ الرسولِ في أقلّ ما جادت به شاعريته وهـو من أصدق الناس لرسول الله، وأقربهم مكانة شعريةً.. ففي قصيدة الهمزية يقول:-

وقالَ اللهُ قد أرسلتُ عبداً   يقولُ الحقَّ إن نفعَ البلاءُ

من خلال عرضنا لما سبق يمكننا رصدُ ما يلي:

أولاً: إن المصطلحاتِ السابقةَ قد دارت في مساراتها الوضعية، ولم تحدْ عنهـا إلا فـي النزر القليل حيثُ إن الذين تعاوروا على استخدامها لم يعن لهـم أي شـيء مـن الغموض الذي يضيعُ معهُ الثبتُ، والنظرُ التامُ النافذُ..

ثانياً: إن المعاني اللغوية والوضعية لكثيرٍ من المصطلحات السابقة قد توازت طوعاً في بعضها؛ لكنها تتقاطع كرهاً في البعض الآخر ومع كلٍّ فإنهـا أشـبه باليواقيـت المشعة، وقد أكسبتها المفاهيم الأدبية بهاءً وغنًى ووفرةً في الدلالاتِ والإيحاءات.

ثالثاً: إن تاريخَ صدرِ الإسلام قدَّمَ صورة حقيقيةً وانعكاسة واقعيةً لعصره، ولعل هـذا راجعٌ لعدة أسباب أهمها: الحيدة الكاملة تلك التي تحلّى بها المؤرخون في ذلـك الحين -لا سيما أنهم كانوا يسطرون ميلاداً عايشوه فسجلوه- وهو لم يزل في لفافة الميلاد، وقد كان عليه آثارُ مخاض الولادة وقتذاك.

رابعاً: إن تاريخ الخضرمة الأدبية لم يزل يمثلُ حلقةَ الربط، أو همزة الوصل بين جاهلية عفى رسمها، وإسلامية قدُمت ورسخت فتأصلت ونمت، وأينعت، وأثمرت.

وهنا تتجلى روعة الإسلام، وعبقرية حضارته في الـربط والتكامليـة الفنيـة، فالحصول على هذه الحلقة الذهبية قمينٌ برصدِ الفروقِ العقديـة والاجتماعيـة، والأدبية للعصرين معاً. فلولاها لوصل إلينا تاريخ مبتسر، أو مشوه، أي ناقص الخلق

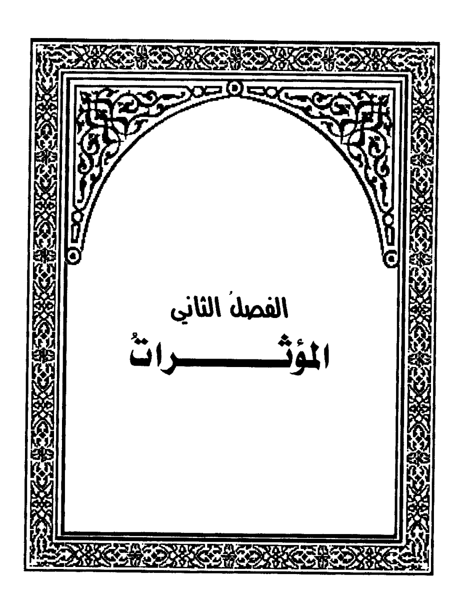
---

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء ص ٢٧.

الفني مشنوع وجهه البياني؛ وهنا يصدق قول القائل: لولا بياض العين وسوادها ما كان جمالها.

خامساً: إن من يتصدى لرسم المجال الاصطلاحي – في عصر صد الإسلام- لابد أن ترافقه المصادرُ العربيةُ القريبةُ من هذه الفترةِ تلك التي تحاكيها محاكـاةً أمينـةً تجعلها تتخطى الحواجزَ، وتهبها الصدقَ وتمنحها عبقريةَ الاستمرارية الفنيـةِ والموضوعيةِ معاً.

سادساً: أن الباحث الذي يدخل مرحلة الخضرمة ينبغي أن يتعاملَ معها بعقلٍ تصـنيفي أو أرشيفي بحيثُ يمكِّنهُ من تذوقِ مثلِ هذهِ النصوصِ المفتوحةِ، والحكمِ عليهـا برؤى واقعيةٍ.



الفصلُ الثاني
المؤثـــــراتُ

قد يعتقد القارئ أن مؤثراً واحداً قد مثل القوة الضاغطة التي لعبت الدورَ الفعليَّ على مسرح الحياة العربية؛ لكننا نرى من الحسن القول:إنها جملةُ "مؤثرات"منها ما هو مباشر وهو "الإسلام" إذ يمثل العمدة، ومنها غير المباشر وهو المتمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.. هذا ولكلٍ دورُهُ الذي جاء من أجله علماً بأن الإسلام رهينٌ إلا يحلق فى فضاء الفكر الإنساني الرَّحيب إلا بجناحيه –الكتاب والسنة – لقول الرسول الكريم (ص) : "تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لنْ تضلُّوا بعدي أبدا" كتابَ الله، وسنتي"(١).

هذا وسنعرض لكل مؤثرٍ حديثاً يكشفُ أبعادَه ومضامينه وأهدافه التي جاء من أجلها عرضاً منظماً يتسم بالإحاطة والشمول.

أولاً: المؤثر المباشرُ الإسلام:

في البدء نقول: إن قليلاً من المستعربين ومن شايعهم(٢) وكثيراً من المستشرقين(٣) ومن عاونهم يرون أن الأمة كانت غارقةً في بحور الجهل والبداوة والفوضى ثم انتهوا إلى أن العصر الجاهلي هو عصرُ ظلامٍ حالكٍ.. حقاً إن الذين ذهبوا إلى هذا الاعتقاد قد جانبهم بعضُ التوفيق، إمَّا عن سوء قصدٍ، أو سوء فهم لتراثنا؛ لأن الأمة العربية في جاهليتها – شأنها شأن جميع الشعوب والأمم بدأت ولم تنلْ –ولو فتات – من الثقافة، "ثم مرت بطورٍ من الحضارة البدوية لها بكل محاسنها ومساوئها حتى خلفت لنا حظاً من الحضارة والمعرفة التي تتناسب مع هذه الحياة(٤).

(١) انظر: الترمذي في سننه باب "مناقب أهل بيت النبي (ص) ج١٠ص ١١٦.
(٢) انظر: الجاهلية ليحيى جبوري ص ٩٢ وما بعدها.
وانظر: مرآة الإسلام لطة حسين ص١.
(٣) انظر: حضارة العرب لجوستاف لوبون ص ٩٧ طبعة الحلبي القاهرة سنة ١٩٦٢م.
(٤) انظر: تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام للسباعي بيومي ص ٦٢ وما بعدها.

فبالنظر في هذا القدر الكمّي والنّوعي – من الموروث الحضاري أو المعرفي – فإنه قادرٌ على الحوار في غيبة الفارس الأصيل مع أي وافد جديد سواءٌ أكان عقدياً أو ثقافياً، وبالفعل فلقد هيأها لتتقبل الرسالة الإسلامية حيثُ نهضت بها نهضةً عظيمةً ارتقت بها سلم الحضارة درجاتٍ، وغذتها بصنوف من المعارف، وطُيُوب من الآداب .. فبظهور الإسلام ذاك الحدث الجلل –تغير وجهُ الخليقة بعد أن نفذ إلى قلوب أهله، ونقّى قلوبهم من زيغ الشرك وحررهم من الرّق، وطهرهم من الخطايا.. وكان من الطبيعي أن يكون له بالغ الأثر، وأكبر النفع على حياة العرب؛ لأنه –في حقيقته – دينٌ نهضةٍ إصلاحيةٍ وقد استطاع أن يغّير معالم الحياة عندما أحال الظلام نوراً، والهمجية والبطش نُظماً وتعاليم وطمأنينة وأمناً، والفساد إصلاحا وفلاحاً، والإخفاق نجاحاً و..

لقد ارتقى بالنفسية العربية إلى إفاق رحيبة من سمو التفكير، وجمال المعاني وكرم النفس بعد أن رفع أسقف المعرفة إلى آماد طويلة، ورسم لهم طريقَ الفضل والخير، وجعل المؤمن بين أخوةٍ متحابين لا تفسد نفوسهم الضغينةُ، ولا تلتهم معالم حياتهم نيرانُ الحقد، ولا تطمس بصيرتهم عوامل الصراع والكراهية والأثرة والشح والجشع والطمع.

إننا لا نعدو الواقع – ولو قيد أنملة– إذا قلنا: إن الإسلام – بما أحدثه من قيم – "خلق العرب خلقاً يكاد يكون جديراً، وجعل منهم أمةً بأدق معاني هذه الكلمة وأشملها وأكملها حيثُ هيأها للنهوض بالمهمة الكبرى التي تتجاوز حدودَ جزيرتها؛ ولتحول وجهة التاريخ[1].

فمن حيث القيم العقلية:

مما لا شك فيه أن تعاليم الإسلام ومبادئه وأهدافه استطاعت أن تمثل ثورةً حقيقيةً في العقيدة والسلوك والمجتمع والفكر والسياسة، فمن حيث العقيدة والسلوك

---

(١) انظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين لصلاح الدين الهادي ط ٣ ص ٢١ مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٨٧م.

والمجتمع نراه دعا إلى نبذ العقائد الوثنية المادية الآسنة ومحو الخرافة، وقد استبدل بها نور العلم، وحكم العقل وذلك؛ لأنه قضى على التناحر والتنازع والشتات، وطهرّ النفس من الأثان وجميع المعتقدات الفاسدة، وأحل مكانها التوحيد الخالص لله الذى يدعو إلـــى معرفة الله حقَّ معرفة حيثُ إنه هو الواحد الأحد الذي لا شريكَ له، ربُّ كلِّ شئ، يدبّرُ الأمرَ في السموات والأرض، هو آلهٌ واحدٌ، وكان ذاك إيذاناً ببداية عصر العلم ونهايـــة عصر الجهل؛ لأن العقل يمنعُ من أن يكون الناسُ هملاً، أو سُدًى يعتمدون على آرائهم وينقادون لأهوائهم دون توجيه أو تبصير بما غاب عنهم.

وفي الفكر حثَّ على التأمل والنظر؛ ليخرجَ الإنسانُ من دائرة الحيوانيـــة إلـــى دائرة الإنسانية التي ميَّزَهُ اللهُ بها على سائر المخلوقات ...

"لكن هذه الميزة لها متطلباتها التي تخرج بالإسلام إلى المجال الرحب في عـــالم الفكر والعلم"[1].

هذا ولم يتوقف الإسلامُ عند فتح أبواب المجالات الدنيوية على مصراعيها أمـــام العقل، وإطلاق يده فيها، ومنحه الفرصةَ للتأمل والتمحص والتروى بل وجَّه الأنظـــار إلى أن ما وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى، إنها يوم الحساب يوم القيامة فيه يحاســـبُ المرءُ على ما قدمت يداه لقوله تعالى **(يَوْمَ يَنظُرُ المرْءُ ما قدَّمتْ يداه ويَقولُ الكافرُ يـــا ليتني كُنتُ تُراباً)** النبأ: آية ٤٠، فمن أحسنَ فلنفسه، ومن ساء فعليها **(ومنْ يعملْ مثقالَ ذرّةٍ شرّاً يرَه)** الزلزلة آية ٨.

على هذا النحو استطاع الإسلامُ ربطَ مصير الإنسان إلى حياة الآخرة[1].وهـــي الدار الباقية؛ لذا فإنَّ القرآن ألقى باللائمة على من لا يستخدمون عقولَهم التي وهبها اللهُ لهم، فيشبههم بالأنعام توبيخاً وتهكماً، وسخرية من سوء تصرفهم.

---

(١) انظر: العصر الإسلامي شوقي ضيف طه ص١٦ وما بعدها دار المعارف سنة ١٩٧١.

مما سبق يؤكد رغبة الإسلام الملحة، وحثّه الدائم على ضرورة التعلم حتى جعل الله العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، كما حثّ رسوله الكريم على وجوب التعلم في قوله (ص): "اطلبوا العلمَ ولو في الصين"[٢]، وقوله (ص) :"من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهلَ اللهُ له طريقاً إلى الجنة". صدق رسولُ الله (ص)[٣].

ومن القيم الاجتماعية:

فإننا نرى أن حياة العرب في الجاهلية كانت- في أغلبها- حياة حربيةً تقوم على سفك الدماء، فهُم – كما يرى الدكتور شوقي ضيف – قاتلون ومقتلون، فما يفرغون من حربٍ حتى يدخلوا في أخرى، لذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر، وما خلّفه من الغارات[٤]، وانتهاك الحرمات، والعكوف على الشهوات والملذات والتباهي، والتفاخر بالأحساب والأنساب، إنه شريعتهم المقدسةُ التي تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذ كانوا يحرّمون على أنفسهم الخمرَ والنساءَ والطيبَ حتى يثأروا من غرمائهم.

من هنا فلا غرابة ولا شذوذ عندما لا يحقُّ لأي فردٍ من أفراد القبيلة أن ينقضَ هذه الشريعةَ الهمجيةَ التي سنّتْها العصبيةُ، أو الوقوف ضدها أو الخروج عنها!

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلافة للنبوي شعلان ص٤٨ دار قباء للطباعة والنشر سنة ١٩٩٨م.

(٢) انظر: الكامل لابن عدي ج١ ص١٨٢.

(٣) انظر: سنن أبي داوود كتاب "العلم" باب الحث على طلب العلم ج٣ ص٣١٦.

(٤) الغارات سلوك قبلي معروف، انتشر بين العرب بخاصة البادية، وكان انتشاره في البادية يرجع إلى عدم الاستقرار ذاك من ناحية، وضعف القبيلة، وصلتهم بالمجتمعات وعدم تشبعهم بحياة الاستقرار من ناحية أخرى، وهو أيضاً سلوك يدل على الهمجية القبلية، وغياب القانون، أو الإذعان إلى سلطة عليا سواءً أكانت سلطة الدين التي تمنع الاعتداء على الغير أم سلطة الحاكم الذي لجأ إليه الفرد والجماعة في حالة ما يعن له من أمر من الأمور، ولعل من أشهر الاغارات في تاريخ مكة تلك التي كانت سبباً في فتحها إغارة بني بكر على خزاعة في الوتير، وإسراع خزاعة في طلب النجدة من الرسول الكريم (ص).

ولما نجتهد في البحث عن دوافع الحرب نجد أن العرب في الجاهلية بدواً لا يخضعون لنظام معروفٍ يسيرون عليه، ولا يربطهم قانونٌ يستظلون تحت رايته، ولا ينتظمهم مجتمعٌ، ولا يدينون لحكومة، ينضوون تحت لوائها، ويأتمرون بأمرها...!!

من هنا فإن الحروب كانت تشتعل بينهم؛ لتنازعهم على سدة الرئاسة،أو شرف المنصب وكلٌّ يزعم -في نفسه- القدرة الفعليةَ على القيام بالرئاسة والشرف، فضلاً عن هذا كله فلقد لعبت الظروفُ البيئيةُ الجاهليةُ، والعصبيةُ القبليةُ الدورَ الأكبر في الدوافع الحقيقية لهذه الحروب.

من هنا تفرق شمل الأمة، وضعف كيانها، وخارت قواها ولمَ لا وقد "اعتمدت على الفتك والإزلال؛ لتحقيق مآرب كبرائهم وبسط نفوذهم، وسلطانهم على الضعفاء والاستعلاء إشباعاً لغريزة التحكم والكبرياء[١]"؟!!

ويذكر أغلب المؤرخين أن حرب الفجار[٢] قد تركت آثاراً سيئة في المجتمع العربي القديم انقطعت بها العلاقات الاجتماعية، وانتقصت بها الشهامة والمروءة والنجدة وذلك في النفوس مما جعل العاص بن وائل يماطلُ في دفع حق رجلٍ من زبيد اليمن جعل الرجل يستجيرُ حتى أجاره الزبيرُ بن عبد المطلب بعد إن دعا إلى حلف الفضول الذي كان مقرُ انعقاده في دار عبد الله بن جدعان حيث كانت مهمته اجتماعيةً بحتةً، وهي رد الظلم، ونصرة المظلوم، ولقد رسخه ودعمه رسولنا (ص)؛ لأنه كان الصرحَ الأقوى في إقامة العدل الاجتماعى[٣].

---

(١) أنظر: المجتمع العربي قبل الإسلام لرؤوف شلبى ص٣٠٨ دار الكتب الحديثة ١٩٧٧م.

(٢) حرب الفجار هي يوم من أيام العرب تفاجروا فيها بعكاظ فاستحلوا الحرمات وقيل هي أربعة أفجرة كانت بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان فى الجاهلية وكانت الدبرة على قيس وسمت قريش هذه الحرب فجاراً؛ لأنها كانت في الأشهر الحرم فلما قاتلوا فيها قالوا قد فجرنا ينظر اللسان مادة (فجر).

(٣) انظر: المجتمع العربى قبل الإسلام لرؤوف شلبى ص ٣٠٨.

وحينما جاء الإسلامُ إلى الدنيا بتعاليمه أخذ -على عاتقه- رأب الصدع في الصرح العربي، فرأيناه لم يغفل ظاهرة الأخذ بالثأر، فأشار إليها وجعل أمر القاتل إلى وليّه، وشرع القصاص من القاتل ردعاً لغيره"[1] لذلك جاء قوله تعالى **(ومَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فقد جَعَلْنا لوليِّه سلطاناً فلا يُسْرِفْ في القتل إنَّه كانَ منصوراً)** سورة الإسراء آية ٣٣.

وبمقتضى ذلك أصبح واجباً على القبائل أن تتنازل عن حقِّ الأخذ بالثأر تنازلَ قناعةٍ وتسامحٍ أو تراضٍ فيما بينها؛ "لأن أول غاية للأمة هي منعُ الحروب في الداخل، فإذا قام نزاعٌ وجب أن يعرض على القضاء[2].

كما قضى الإسلام على العصبية القبلية التي تقيسُ الناس بأحسابهم وأنسابهم فجعل أكرم الناس أتقاهم، واعتبر الزنجي التقيَّ أكرم من الكافر الهاشمي. يقول عزَّ وجل **(يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلْنَاكُم شُعُوباً وقبائلَ لتعارفُوا إنَّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم إنَّ اللهَ عليمٌ خَبِيْرٌ)** سورة الحجرات آية(١٣)؛ ثم يؤكد الرسول (ص) -في حجة الوداع- "هذا المبدأ الكريم عندما يقول "أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، كلكم لآدمَ وآدمُ من ترابٍ، أكرمُكم عند الله أتقاكُم، وليس لعربي على أعجميّ فضلٌ إلا بالتقوى، بهذا المنهج القويم استطاع الإسلامُ أن يؤاخي بين المسلمين على اختلاف قبائلهم ومراتبهم، حيثُ أحلَّ الوحدةَ الدينيةَ محلَّ القوميةِ، فأصبحوا متساوين جميعاً، وغدوا كالبنيان المرصوص يقول تعالى: **(وألَّفَ بين قلوبِهم لو أنفقْتَ ما في الأرض جميعاً ما ألَّفْتَ بينَ قلوبِهم ولكنَّ اللهَ ألَّفَ بينهم إنَّهُ عزيزٌ حكيمٌ)** الأنفال الآيتان ٦٢، ٦٣، كما حرص على ترسيخ القواعد الاجتماعية لهذه الأمة فرأينا الأعداء المتناحرين يتحولون إلى جيش موحد مؤمن ترفرفُ - على ربوعه - أعلامُ الإسلام، فضلاً عن أن توحد الطاقات المتفرقة كان له بالغُ الأثر في الفتوحات الإسلامية التي

(١) انظر: الحياة الأدبية في مكة في القرن الأول الهجري من العصر الجاهلي حتى صدر الإسلام للدكتور زكي عابدين ط١ ح١ ص٢٢٢ دار المعارف سنة ١٩٨٣م.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية لفلهورن ص١٣.

كانت تسعى حثيثاً لنشر دعوةِ الإسلام، ومحو ضلالات الشرك؛ ليكون الـدينُ كلُّـه لله، وتكون الأمة مثاليةً ذات ريادة تعليمية جَليّ يتعاون أفرادُها على الخير، ويحـلُّ محلّـه التضامنُ الاجتماعيّ حرصاً من "الإسلام علـى تأسـيس مجتمـعٍ واضـحِ الأعـراف والمفاهيم... كلٌّ يعرفُ ما له من حقوقٍ، وما عليه مـن الواجبـات؛ ليكـون مجتمعـاً متماسكاً في روابطه الاجتماعية، وسائر الأحوال الشخصية[1].

إن من الأدلة الكبرى على ما أحدثه الإسلامُ من ثورة تصحيحيةٍ على المجتمـع هو ما أحدثه من نقلةٍ كبيرةٍ في موقفه بالنسبة للمرأة حيث أعلى مـن شـأنها بعـد أن أعطاها دورَها في بناءِ المجتمع؛ وأوجبَ على الرجل أن يرعاها، وأن يعطف عليهـا، كما فرض لها نصيباً معلوماً من الميراث، كذلك أعطاها الحقَّ في العلم، واختيار الزوج إلى غير ذلك مما جاء به الإسلام تعزيراً لمكانةِ المرأة، واحتفاءً بها، وتشريفاً لها.

ولم ينسَ الإسلامُ تحديد العلاقة بين الحاكمِ والحكومةِ بحيثُ أصبح الحاكم واليـاً شرعياً لكل أفراد المجتمع، يسهرُ على تنفيذ أوامر الله بحيثُ نرى القرآن والسنة وضعا الأسس الفعلية لهذه الأوامر[2] حتى يحفظَ الحياة في إطـارٍ مـن الاسـتقرار والأمـن، وبمنجاة من القلق والعثرات التي تتعرض لهـا المجتمعـات نتيجـة لاسـتبداد الفـرد والعصبية، والفهم الخاطئ للسلطوية فقال **(وأَمْرُهُم شُورَى بَيْنَهُم)** سورة الشورى آيـة "٣٨"، كما أمر نبيه عليه السلام أن يأخذ نفسه بذلك معهم فقال: **(وشاورْهُم في الأمـرِ)** على هذا التصور فلقد أصبح الدينُ- دونَ الجنسِ – المرجعَ الوحيدَ في تحديد العلاقات بين الحكومةِ والرعية ثم بينَ أفرادِ الشعب[3].

كذلك فلقد ساهمت طبيعة المهن التي امتهنها المسلمون أن تقيم علاقاتٍ جديـدةً مبنية على المصالحِ المشتركة بينهم، وبينَ أُناسٍ آخرين لا يمتون إليهم بصلة رحـم، أو

---

(١) انظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين لصلاح الدين الهادي ط٣ ص٢٧ مكتبة الخانجي.

(٢) انظر: الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلافة للنبوي شعلان ص٤٣.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام السياسي ص٨١.

تربطهم بهم علاقةُ دم، وكان مثل هذه العلاقات الحضرية كفيلاً بـدفع الكثيـرين مـن ساكني الحضر للتخلص من كثيرٍ من رواسب حياتهم القبلية[1].

ومجملاً فلقد أنفذ الإسلام طبقة المستضعفين فى الأرض فتكونت منهم قوةٌ أبلت بلاءً حسناً في بناءِ وترسيخ وتأصيلِ دولة الإسلام، كما اجتث الإسلام من العرب كـل العادات الخبيثة، وأقر مكارم الأخلاق، وفي كل هذا وذاك هدفَ الإسلام إلى سعادة الفرد والأسرة في نطاق المجتمع المحلي، وعلى مستوى الأمة الإسلامية؛ لتحقيـق قـول الله تعالى **(وكُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بالمعروف وتنهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمنونَ باللهِ)** سورة آل عمران آية (١١٠).

ومن القيم الإنسانية:

مما لا شك فيه أن الإسلام دينُ إنسانيةٍ ومحبةٍ وسلام حيث نزل للنـاس كافـةً وكان -دائماً- ما يهدف إلى أن ترفرف عليهم ألوية الاستقرار والأمن والسعادة وبالفعل كان، ولما نتساءل عن الأسباب فسنرى اهتمامه الخاص بحريـة الإنسـانية، وكرامتـه وحقوقه الإنسانية حيث جاء والعبودية راسخة دعائمُها، متغلغلةٌ جذورها، ممتـدةٌ فـي التربة الجاهلية المهيأة لنمو مثل هذه العادات فدعا بـل رغـب فـي تحريـر العبيـد، وتخليصهم من ذل الرق، فأسرع كثيرٌ من الصحابة يفكون رقابَ العبيد، وذلك بشرائهم ثم تحريرهم.....

وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت، وأعطى للعبد الحـقَّ الكامل في أن يكاتبَ مولاه، أو -بعبارة أخرى- أن يسترد حريته نظير قدرٍ من المـال يكسبهُ بعرق جبينه، ولقد حرم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاها حتى إذا مات رُدت إليها حريتها وكانوا في الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإمـاء فـأزال الإسـلام ذلـك، وجعلهم أحراراً كآبائهم[2].

---

(١) انظر: شعر البصرة في العصر الأموى لعون الشريف قاسم ص ٣٥ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(٢) انظر: العصر الإسلامى لشوقي ضيف طه ص٢٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢.

هذا ولم تتوقف تعاليمُ الإسلامِ السمحةُ عند هذا الحد، بل وسَّع من دائرة حرية الإنسان وحقوقه، واحترامها في الدين فضرب بذلك أروعَ الأمثلةِ في التسامح الديني يقول تعالى **(لا إِكْرَاه فِي الدِّين)** سورة البقرة آية (٢٥٦)، كذلك حرَّمَ الرِّبا، وجعله لا يربو عندَ الله فقال تعالى: **(يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصدقات)**(١) البقرة آية (٢٧٦).

هذا ولقد وضع الإسلامُ قوانين عادلةً في معاملة الأمم المغلوبة سلماً وحرباً حيث أوجب الرسول (ص) على المسلمين في حروبهم ألا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة، وكذلك فلقد جاء عهده لنصاري نجران يسجلُ أروعَ الأمثلةِ في حسن المعاملة لأهل الذمة، وآية ذلك أنه أمر ألاَّ تمسَ كنائسهم ومعابدهم، وأن تترك لهم الحرية في ممارسة عباداتهم. ومضىَ الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به في معاملة أهل الذمة معاملةً تقوم على البرِّ بهم، والعطف عليهم.

إن خيرَ ما يصور هذه الروحَ عهدُ عمر بن الخطاب لأهل البيت المقدس فقد جاء فيه أنه "أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم... لا تسكن كنائسهم ولا تُهدَمُ ولا ينقصُ منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يُكْرَهُون على دينهم ولا يُضَار أحدٌ منهم" وكان هذا العقد نموذجاً يُحتذى به لكل العهود التي عُقدت مع نصارى الشام وغيرها(٢).

انطلاقاً من تلك المبادئِ السليمةِ السمحةِ فإننا رأينا الدولةَ الإسلاميةَ – التي فُتِحَتْ من الخليج، وانتهت بالمحيط والهند – كانت وحدةً يعمُها العدل ويرفرف على ألويتها الرخاء والسلام.

ما سبق كان حديثاً سريعاً عن المؤثر المباشر أما الحديث عن **المؤثر غير المباشر فإنه موزعٌ على قسمين.**

---

(١) يمحق: المحق: النقصان وذهاب البركة، وشيء ماحق: ذاهب .. ومحق الربا: أبطله ومحاه. راجع: اللسان مادة "محق".

الربا: من ربا الشيء يربو رُبُوًا – زاد ونما، وأربيته: نمَّيْتُهُ. ويعنى به دفع الإنسان الشيء ليعوض ما هو أكثر منه .. راجع اللسان مادة "ربو"

(٢) انظر: العصر الإسلامى لشوقي ضيف ط٥ ص٢٤.

الأول: القرآن الكريم

تعريفه:

لغة: هو اسم خاصٌ بكتاب الله مشتقٌ من القرائن، حيثُ إن الآيات يصدق أو يشبه بعضها بعضاً، ولربما تكونُ من القرءِ بمعنى "الجمع"[1] أو من القراءة بمعنى التلفظ.

وفي هذا الصدد يصدر الإمام الشافعي رأياً منطقياً ليضع اللفظة في دائرة التعريف النسبي وذلك عندما يقول: إنها علمٌ غيرُ مشتقٍ خاصٌ بكتاب الله تعالى[2].

اصطلاحاً: يرى الشيخ مناع القطان أن تعريف القرآن بالتعاريف المنطقية المعهودة – تلك التي تصل إلى القيمةِ الحديةِ أمرٌ معتذر؛ لكننا لما نحاول الاقتراب من سياجه العطري وسياقه الدُري لتمييزه عن سواه – فسنجد أنه كلام الله تعالى المنزل – بلفظه ومعناه – على محمد (ص) فكانت معجزته التي تحدى بها بلاغةَ الإنس والجن، وكان المتعبد بتلاوته، الحجة على الناس كافةً، وعلى العرب خاصةً؛ لأنه نزل بلغتهم المنقول إلينا تواترا[3].

إننا لا نبالغ إذا قلنا: إنه هو إيات منزلةٌ من حول العرش، إنه سرُ السماء، ونور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول، وهو كل هذا، وفوق هذا[4].

والناظر للتعريف الاصطلاحي يرى أنه يحمل بين أطوائه أهم **خصائصه ونذكرمنها:**

الخاصية الأولى: أن لفظ القرآن ومعناه من عند الله

يقول تعالى: **(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)** سورة النحل آية (٦)

ويقول سبحانه: **(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)** سورة القيامة آية (١٧)

---

(١) يقول أبو إسحاق النحوي القرآن سمي قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها ...... راجع اللسان مادة "قرأ"

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن ج١ ص٥٠.

(٣) راجع: الإعلام في القرآن للدكتور/ أحمد غلوش ج١ ط١ ص٢١ مطبعة سعيد رأفت سنة ١٩٨٦م.

(٤) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص٢٥.

أجل: لقد حفظَ اللهُ كتابه – كما أنزله – حيثُ هيَّأ له العديدَ من الوسائل التـــي تحفظـــه وأهمها: الحافظة القوية التى تَميزَ بها العربيُّ عن سواه من أجناس البشر؛ "لـــذا فلقـــد أمـــر الرسول الصحابة بحفظ القرآن في الصدور[1]، كما نزل من عند الله حتى لا يختلطَ به غيره.

فالواضح-من خلال ما قدمناه – إن القرآن الكريم ذلك الكلام القدسي الذي يرفع الله به البشرَ من وهدةِ هذهِ الطينيةِ إلى نجادِ الملكوتيةِ – فكان النبع الصافي الذي شرب منه الإنسانُ شربةً لا يظمأ بعدها – قد أُحِيطَ بسياجٍ قويٍّ من المحافظـــة علـــى نصـــه محافظةً بالغةً تواكبُ ذلك النور الإلهي الذي أضاءَ به ظلامَ النفوس، وأنار بـــه ســـبلَ الحياة حتى انقشع دخنُ النفس، وحلَّ محلَّه الإيمان ونور البصـــيرة، وبـــذلك تحوّلـــت درجاتُ الناس إلى أقصى درجات الرفعة بعد أن كانوا غارقين في دياجير الظلام فقلب حياة العرب، وهذب أخلاقهم، ونقَّح تفكيرهم، ووسع آفاقهم، وكان التأثيرُ الكبيـــرُ مـــن نصيبِ لغتهم وآدابهم.

وفي عصر الخليفة أبي بكر الصديق "رضي الله عنه" بدأت مرحلةٌ أخرى فـــي حفظ القرآن الكريم جعلته مجموعاً[2] في مستودع عتيدٍ، أو مكانٍ أمين.

وفي عهد عثمانَ رضي الله عنه شاهد حذيفة بن اليمان اختلافَ بعض المسلمين في القراءة فقدم على عثمان، وقال: أدركْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصةَ أن ترسلَ إليه بالصحف؛ كي ينسخها فـــي المصاحف شريطةَ أن يردَّها إليها بعد النَّسْخِ، وبالفعل نفَّذت ما طُلِبَ منها، فأمر عثمان

---

(١) انظر: تقييد العلم للخطيب البغدادى ص٢٣ حيث قال أبو هريرة رضى الله عنه خرج علينا رســـول الله (ص) ونحن نكتب الأحاديث فقال: ما هذا؟ الذي تكتبون؟ قلنا: أحاديث سمعناها منك قال: أكتابـــاً غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى.

(٢) لعل المقصود من الجمع هنا وضع الكتابات القرآنية المتفرقة في مكان واحد فهـــو صـــحف لا جمـــع المصحف الواحد.

بالنظر إلى الجمع في عهد أبي بكر فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في صحف مرتبـــة الآيـــات مقتصراً فيه على ما لم تنسخ تلاوته، وأما الجمع في عهد عثمان فقد كان عبارة عن نقل ما في تلـــك الصحف في مصحف واحد إمام، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية للمحافظة علـــى كتاب الله تعالى من التغيير والتبديل .. راجع الإعلام في القرآن ص٢٦.

زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، ثم ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة[1].

وبعض علماء الخطاطة يرون أن مصحف عثمان رضي الله عنه هو المصحفُ الإمام المتواتر في الأمة الإسلامية إلى يومنا هذا، غيرَ أن كثيراً من الصحابة ظلوا متحفظين بمصاحفهم الخاصةِ ما عدا هذا المصحفَ. وجاء في الفهرست: أن ترتيب سور القرآن في مصحف عبد الله بن مسعود، وفي مصحف أُبَيّ بن كعب مخالفٌ للترتيب المألوف. وجاء أيضاً: أنه كان لعلي مصحفٌ وقد كتبه بيده، وصار عند آل جعفر.

على كلٍّ فلقد استقبلت الأمة الإسلامية -في جميع الأمصار- جمع عثمان رضي الله عنه للقرآن الكريم بالرضا والقبول، وأفرغ المسلمون جهودهم في المحافظة على المصحف الأمام، فهو كتابهم يراجعون به حفظهم، وهو أساسُ الحفظ لكل ناشئ جديد.

الخاصة الثانية: إعجازه في المجال التشريعي:

لاشك أن القرآن مصدرُ الشريعة، ودستورها القائمُ أبدَ الدهر، حيثُ أغنى المسلمين عن كل شيءٍ في الصدرِ الأولِ من الإسلام؛ لذا يجبُ أن نفهمَ أنه مصدرٌ التشريعِ الإسلامي؛ وهذا لن يتمَّ إلا بعدَ تدبرٍ لكتابِ اللهِ، والوقوفِ على أسرارِ إعجازِه.

الخاصة الثالثة: طبيعة نزوله وموضوعاته:

لقد نزل القرآن الكريم على محمد (ﷺ)، ثم استمر نزوله بعد هجرته إلى المدينة حيثُ نزل الجزء الأكبر منه على محمدٍ في مكة فبلغ ما نزل بمكة من آيات ٤٦٩١، وما نزل بالمدينة ١٥٤٥ آية تقريباً، وقد أُطلق على الآيات التي نزلت على الرسول في مكةَ (بالآيات المكية)، وما نزل على الرسول بالمدينة (بالآيات المدنية) نسبةً إلى مكة والمدينة[2].

---

(١) انظر: صحيح البخاري باب جمع القرآن ج٦ ص٢٢٦.

(٢) انظر: الحياة الأدبية في مكة في القرن الأول الهجري لزكي عابدين ج١ ص٣٤٧ دار المعارف سنة ١٩٨٣م.

والناظر المتأمل في آي القرآن الكريم يرى أن المكيَّ أكثرُ من المدني؛ ذلك لأن إقناع المكيين المشركين بالعقيدة يتطلبُ المزيد من الوعيدِ والإنذارِ، ودعم الإقناع بالحجة.

ومجملاً فلقد نزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنةً منجماً حسب الحوادث وقد تساءل المشركون عن سبب نزوله على دفعات فأجابهم الله تعالى بقوله: **(وقالَ الذينَ كفرُوا لولا نُزّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً كذلكَ لنثبّتَ به فؤادَكَ ورتّلناهُ ترتيلاً. ولا يأتُونَكَ بمَثَلٍ إلا جئناكَ بالحقِّ وأحسَنَ تَفْسيراً)** الفرقان الآيتان (٣٢-٣٣).

ومجموع سور القرآن الكريم مائةٌ وأربعَ عشرةَ سورةً منها ثلاثةٌ وتسعون مكيةً وإحدى وعشرون مدنيةً.

وأما عن **موضوعاته** فإن السور **المكيةَ** قد اشتملت على جوانبَ بعينها هي من خصائص أو صفات البيئة المكية وطبيعتها دون غيرها من بيئاتٍ أخرى كالجفاف والماء والمطر والطعام، وكل هذا يعبّرُ عما يدور في مكةَ من أمورٍ، ويبينُ العوامل المؤثرة في التطلعاتِ الاجتماعيةِ والقيمِ الأخلاقيةِ في حياةِ المكيين، فضلاً عن أنها كانت تبصرُهم بالحلالِ والحرام "لاسيما أن مكةَ قد عُرفت باللهوِ في السمرِ والغناء، كما اهتمت بالتجارة فوقَ الاهتمامِ بالأمورِ الدينية"(١) تلك التي دارت حول توحيدِ اللهِ تعالى، وإثباتِ وحدانيته بأدلةٍ دامغةٍ من آياته ومخلوقاته، وتعظيمِ أمرِ التوحيد، والترغيب فيه بالجنة، وتهويل أمر الشرك، وإنذار المشركين بعذابِ جهنمَ، ونبذ عبادةِ الأوثانِ والأصنام، والإيمانِ بالبعث والحساب، فمن عمل صالحاً فله الجنةُ، ومن عمل سيئاً فله النارُ والجحيمُ، وتتخلل ذلك الموعظةُ الحسنةُ، والقصصُ عن حالِ الأممِ الماضيةِ والقرون الخالية، والحث على التمسكِ بأهداب الفضيلة، ودعوة العقلِ إلى التدبر في خلق السموات والأرض فإن من تدّبر في هذا الخلق عرَفَ أنه لابدَّ له من صانعٍ أحكم نظامه، وأقامَ ميزانه(٢).

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في مكة في القرن الأول الهجري لزكي عابدين، ج١، ص٣٥٢، دار المعارف، سنة ١٩٨٣م.

(٢) انظر: العصر الإسلامى لشوقي ضيف، ص٢٨.

وأما عن السور **المدنية** فغالباً ما تتضمن تشــريعاتٍ سياســيةً وقضــائيةً واجتماعيــةً وعسكريةً تكفلُ سعادةَ الفردِ والمجتمعِ بحيثُ تفصلُ القولَ في العملِ الصالحِ الذي ينبغي على المسلمِ أن يقومَ به، وكذلك كل ما يتصل بنظمِ الأسرةِ كالميراث والزواج والطلاق وبر الوالدين، ونظمِ المجتمعِ كالبيعِ والشراءِ والرهنِ والميزانيــةِ والزكــاةِ، وتحريــرِ الرقيق،[1] هذا بالإضافة إلى أنها توضحُ فروضَ العباداتِ والمعاملاتِ.

وعلى كلٍ فإن القرآن ليس مجموعةً من الأوامر والنواهي فحسب، لكنه حــدثٌ عظيمٌ هزَ الجزيرةَ العربيةَ من أعماقها؛ لما فيه من مسائلَ فكريةٍ وإنسانيةٍ وحياتيةٍ لــم يتعود أهلها على سماعها من قبلُ.

الخاصية الرابعة: لغته وأسلوبه:

مما لاشك فيه أن القرآن الكريم قد نزل - باللغة العربية- لغة قــريش[2] التــي سادت على جميع اللغات واللهجات - على محمد (ﷺ) وهي لغةُ قومه، وهــي أفصــح اللغات وذلك بعد أن ألف بين لهجاتهم، وكوَّن - من مجموعها - لغةً واحدةً أصبحت - بعد قليلٍ من الزمان لسانَ الجميع، وهي لغة القرآن الذي تخير من كل لهجــةٍ أفصــحَ ألفاظها، وأصحَّ عباراتها حتى بلغ من إعجازه تحدى الرسول لهم بأنهم لو جمعوا الإنس والجن، واشتركوا في الإتيان بمثل ما أُنزل لعجزوا عن ذلك تأكيداً وتصديقاً لقوله تعالى **(قُلْ لَئِنْ اجتمعَتْ الإنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً)** سورة الإسراء آية (٨٨) مكية.

وهنا ينفي الدكتور زكي عابدين خصوصية، أو قصر التحــدى علــى الألفــاظ والتراكيب القرآنية تلك التي ألفوها، وفهموا ما جاء في القرآن لكنه يرى أن التحدى كان

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٢٨.

(٢) لعلى أقصد باللغة العربية لغة أهل قريش التي نزل بها القرآن لغة الشمال التــى تختلــف عــن اللغــة الجنوبية لغة حمير. مزيداً من التوضيح راجع: أشعار حمير في الجاهلية والإسلام للمؤلف.

في المضمون القرآني، ومحتواه الذي يعجزُ البشرَ عن الإتيان بمثله مما جعل العــرب عامةً، والمكيين خاصةً يعملون فكرهم في مضمونه لمعرفة حقيقة دينهم وحياتهم.

ومعروف أن اللغة العربية كانت قبل الإسلام لغة جاهلية وبــدواة، لا تفــي إلا بمتطلبات أهلها. فلما جاء الإسلام حالت الأحوال، وبرزت معانٍ جديدةٌ فاحتيج إلى ألفاظ تدل عليها فنُقلَت ألفاظُ من مواضعَ إلى مواضعَ أخــرى بزيــادات زيــدت، وشــرائط شُرِطَت، واشتقت ألفاظٌ من ألفاظ[1] علماً بأن الألفاظ التي قيل: إنها أعجميةٌ كــالأبريق والسندس والإستبرق والكافر والأكواب والقوارير كانت غالباً – في حكــم العربيــة – جزءاً لا يتجزأُ من لغة العرب قبل نزول القرآن بقرونٍ طويلة، والدليلُ على ذلك قولــه تعالى **(إنَّا أنزلْناهُ قُرآناً عربيّاً لعلكم تَعْقلُون)** سورة يوسف آية (٢).

وعندما نتحدثُ عن أسلوبِ القرآنِ الكريمِ نراه رصيناً فى ســبكه، واضــحاً أو سلساً في معانيه، جزلاً في عباراته، عذباً في ألفاظه، أخاذاً في خيالاته؛ لذا قال تعــالى **(كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآناً عربيّاً لقومٍ يَعْلَمُون)** سورة فصلت الآية (٣).

والناظر للسور المكية يرى أنها قصيرةٌ، يثير أسلوبُها العواطفَ، ويشدُّ العقولَ معاً، وهي حادةُ اللهجة الخطابية، فيها تهويلٌ وتكرارٌ وجدلٌ وإقناعٌ، أما المدنية فلقد جــاءت طويلةً هادئةَ اللهجة، عذبةَ الألفاظِ، فيها وضوحٌ يناسب التعليم، ودقةٌ تناسُــب الشــرع وجلالٌ يطابقُ الموقفَ .. وبشكلٍ عامٍ فإن بلاغةَ الأسلوبِ القرآني تكمنُ في قوةِ إقناعِه، وبلاغةِ تراكيبه يعبرُ عن ذلك ما يروى عن عُتْبة بن ربيعة إذ قال – حين سمعَ القرآنَ –: إنى لم أترك شيئاً إلا علمتُه وقرأتُه وقلتُه، والله لقد سمعتُ قولاً ما سمعتُ مثلَه قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، كما قال الوليد بن المغيرة، قد عرفنا الشعر كلَّه، رجزَه وهزجه، ومبسوطه ومقبوضه وما هو بالشعر، ولما سمع من النبي (ﷺ) – وهو

---

(١) قد يحدث هذا عندما يكون بين معانى الأولى والثانية من المناسبات ولم يكن أن يتحقق هــذا إلا وفــاء بمتطلبات الحياة، وبما جاء به الإسلام من تعاليم، وشرائع.

أحد خصومه – (**إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى، وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبَغْي يعظُكم لعلَّكم تذكرون**). قال والله إن له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوةً، وإن أسفله لمغدقٌ، وإن أعلاه لمثمرٌ، ما يقول هذا بشرٌ.

وسمع إعرابيٌّ رجلاً يقرأ (**فلَّما استيأسُوا منهُ خَلُصوا نَجِيَّــا**) فقــال أشــهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام، وقال أبو ذر – رضى الله عنه – "والله ما ســمعت بأشعرَ من أخي أنيس، لقد ناقض اثنى عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم، وإنه انطلق إلى مكة وجاءني بخبر النبيِّ (ﷺ) قلت: ما يقول الناس؟ قال يقولــون: "شــاعر كــاهن ساحر، لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم؟ .. ولقد وضعته على أقراء الشعر فلــم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحد بعدى، وأنه لصادق، وإنهم كاذبون"[1].

فالناظر إلى الوليد وغيره ممن فتنوا بأسلوب القرآن يرى أنهم يــذكرون أنــه لا يماثل كلام الإنس ولا كلام الجن الذي يذيع على ألسنة كهانهم؛ لكنه ينفرد بسحرٍ بيــانيٍّ معجز، يسيطر على الألباب، ويشنف الآذان، ويأخذ بمجامع القلوب معاً ..! ولِمَ لا وهو يمثل أرقى درجات الفصاحة، وأقوى مراتبِ البيانِ. هذا من جانبٍ ..

على جانب آخر فإنه قصة عتبة والوليد وغيرهما، وأقوالهم في القرآن كتــاب الــدعوة الجديدة لخير شاهدٍ على فطرة القرآن التي تتوازى ضمناً مع فطرة البشرية كماً وكيفــاً ..! وقد تجلى إعجازه معنى وأسلوباً وهداية وتشريعاً و..

ولندع ما سبق وندلل على الإعجاز الأسلوبي فنذكر على سبيل التمثيل بــ:

١) ظاهرة التكرار: وهي من محاسن أساليب الفصاحة العربية خاصةً إذ تعلق بعضــه ببعضٍ .. فما جاء من تكرار المواعظ والوعد والوعيد – لأن الإنسان مجبولٌ مــن الطبائع المختلفة، وكلها داعية إلى الشهوات، ولا يقمــع ذاك إلا تكــرار المــواعظ

---

(١) انظر: تاريخ الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام لمحمد حسن درويش ص١٩٤-١٩٥ دار المعارف.

والقوارع[1] – قوله تعالى: **(ولقَدْ يسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ)**. سـورة القمر آية (١٧) أي سهلناه للإذكارِ والاتعاظِ بأن نسـجناه بـالمواعظِ الشـافيةِ، وصرفنا فيه من الوعدِ والوعيدِ.

وبالنظر إلى **فوائد التكرار** التي تشهدُ بروعةِ البيانِ الإلهي في القرآن فإنها:

١- تأتي في مقامِ التعظيمِ والتهويلِ كقوله تعالى: "**القارِعَةُ. ما القارِعَةُ**" سورة القارعـة الآيتان (١، ٢).

٢- تأتي في مقامِ الوعودِ للوعيدِ والتهديدِ كقوله تعالى: **(كلاَّ سوفَ تَعلَمُونَ. ثـم كـلاَّ سوفَ تَعلَمُونَ)** سورة التكاثر الآيتان (٣، ٤). وقد جاءت "ثم" دالةً على أن الإنذارَ الثاني أبلغُ من الأول.

وننظرُ إلى التكرارِ الذي يجئ مرةً بعد أخرى فإنه- وإن تعاقبت عليه الأزمنةُ – لا يتطرق إليه أيُ تغييرٍ بل هو مستمرٌ.

عوداً فإن هناك التعجب مثل قوله تعالى : **(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَـدَّرَ)** سورة المدثر "الآيتان (١٩، ٢٠)" حيث نراه قد كرر تعجباً من تقديره، وإصابته الغرض على – شاكلة أو على – حدِّ "قاتله اللهُ ما أشجعَه"

٣- الأمن من النسيانِ أو السهوِ كقوله تعالى: **(ولمَّا جاءَهُم كِتَابٌ من عندِ اللهِ)** سـورة البقرة آية (٨٩) ثم قال **(فلمَّا جاءَهُم ما عَرَفُوا)** .. فهذا تكرار للأول.

وللتكرار في القرآن الكريم أنواعٌ أهمُّها:

١- تكرار الإضراب[2] كقوله تعالى **(قالوا أضغَاثُ أحلامٍ بل افتَرَاهُ بل هُـوَ شَـاعِرٌ)** سورة الأنبياء آية (٥).

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، ج١، ص٦١.

(٢) لقد ورد في القرآن منه ضربان الأول: أن يكون ما في الرد راجعاً إلى العباد مثلما ذكرنا فـي موضـع الإضراب، الآخر: أن يكون إبطالاً؛ ولكنه على أنه قد مضى وانقضى وقته وأن الذي بعده أولـى بالذكر كقوله تعالى: "بل إدَّارَكَ علمهمْ بالآخرة بل هُم في شكٍّ من ذكري بل لمَّا يذوقوا عذاب.

٢- تكرار الأمثال كقوله تعالى: **(وما يستوي الأعمى والبصيرُ. ولا الظُلُمَاتُ ولا النُّورُ ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ، وما يستوي الأَحْيَاءُ ولا الأَمْوَاتُ إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يشاءُ وَمَا أنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن في القبورِ)** سورة فاطر الآيتان (١٩، ٢٠).

وفي هذا الصدد يقول صاحب الكشاف معقباً - على قيمة هذا التكرارِ - والثاني أبلغ من الأول؛ لأنه أدلُّ على فرط الحيرة، وشدة الأمر، وفظاعته لذلك فإن العرب يتدرجون من الأهونِ إلى الأغلظ[١].

٣- تكرار القصص كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى، وغيره من الأنبياء حيث جاء كل ما سبق آيةً من آياتِ القرآنِ الكبرى.

والتكرار يجئُ لتثبيتِ المعنى في الأذهان، والتأثيرِ في النفوسِ عندما ينتقلُ إلى المركز البلاغي المنوطِ بالإشعاع، والتدفقِ الشعوريِّ العظيم.

٢) التجانس[٢] في القرآن العظيم وهو على وجهين:

الأول: جناسُ المزاوجة كالتي تقعُ في الجزاء وقد جاء هذا اللونُ في مثل قوله تعالى: **(وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها)** سورة الشورى آية (٤٠) بحيثُ تصبحُ الثانيةُ مجازاةً عن السيئة الأولى إذ سميت باسمها لقصد المزاوجة ..

الآخر: جناس المناسبة، وتدور المناسبةُ في فنون المعاني التي ترجعُ إلى أصلٍ واحدٍ نذكر على سبيل المثال **(ثم انصرَفُوا صَرَفَ اللهُ قلوبَهم)** التوبة آية (١٢٧) فجونِس بالانصرافِ عن الذكر - صرف القلوب عن الحق، والأصل فيه واحدٌ وهو الذهاب عن الشيء أمامهم فذهبوا عن الذكر، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير - وفائدة التجانس أنه يميلُ بالسامع إلى الإصغاء، كما أنه يجذبُ انتباهه وذلك لإدراك الفرقِ بينَ المعنيين.

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، ج١، ص٦٢.

(٢) الجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس كلها ألفاظ مشتقة من الجنس حدُّه في الاصطلاح - تشابه الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى.

(٣) **ائتلاف اللفظ مع المعنى:** وفيه يجئ للألفاظ المعنى المراد بحيثُ يلائــم بعضــها بعضاً، أي: ليس فيها لفظةٌ نافرةٌ عن أخواتها، غيرُ لائقة بمكانها بشكل أو بآخر.

هذا ولقد راعى القرآن هذا المنحى مراعاةً تامةً، وتوخّى أن تكون ألفاظه وعاءً لمعانيه فجاء الائتلافُ شاهداً على صدق عظمة الخالق .. من هذا الائتلاف نذكرُ: قول الحق **(قالوا تالله تفتأُ تذكرُ يُوسُفَ حتى تكونَ حَرَضاً)** سورة يوسف آية (٨٥)، حيــثُ أتى **بالتاء** – أقل أدوات القسم استعمالاً ودلالةً – على عكس الباء والواو فإنهما أكثــر شيوعاً، و**(تفتأ)** أغرب صيغ الأفعال دلالةً بحيث ترفع الأسماء، وتنصب الأخبار، علماً بأن (كان وصار) أكثر منها دوراناً، وكذلك لفظ **(حرضاً)** أغربُ دلالة ووقعاً من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك فاقتضى حسنُ الوضع – في النظم الذي استخرج منــه عبــد القادر الجرجاني نظريته النظمية – مجاورةَ كلِّ لفظة بلفظة من جنسها فــي الغرابــة والاستعمال توخياً لحسن الجوار، ورغبةً في ائتلاف المعاني بالألفاظ، لتتسق الألفاظ في الوضع، وتنسجم في النظم في ألفة وبراعة وانسجام.

عوداً ننظر إلى قوله تعالى: **(ولا تركَنُوا إلى الذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّار)** ســورة هود آية (١١٣) حيث تتضح روعةُ هذا السحر البياني الإلهي، فالراكنون إلــى الظــالم دون فعل الظالم وهنا وجب أن يأخذَ كلٌّ منهما على قدر ما صنع بحيثُ يكــونُ عقــابُ الأول غيرَ عقاب الآخر. فمسُّ النار دونَ الإحراق؛ ولما كان الإحراقُ للظالم جزاء مــا صنع فإن مسَّ النار يجئ للراكن إلى الظالم جزاء ما تبع، وهنا يأتلف اللفظ مع معنــاه مكوناً وحدة اندماجية، وجمالية تنساب في اتساق وإحكام رائعين.

وهناك التكميل[١] والتتميم[٢] والإيضاح بعد الإبهام والطباق والمقابلــة والقســم والتوهيم[٣] والالتفات والتوكيد. وكل هذا يشهد على روعة بيانه، وجمال وسمو معانيه.

---

(١) هو أن يأتي في الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته أو في صفاته

(٢) أن يمدح إنسان إنساناً بصفة واحدة من صفات المدح وبما أن هذه الصفة لا تفي بالمطلوب لــذا فإنــه يُرى تكميله بإضافة صفة أخرى إلى تلك الصفات.

(٣) هو أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها وهو في الحقيقة يريد غير ذلك إبرازاً للفصاحة، وإظهاراً للبلاغة ..

وبعدُ فإن هذه الأساليب – في القرآنِ الكريمِ بمميزاتها الخاصة التي لا يعلو عليها أسلوبٌ – قد برزت لنا بوضوح في طريقته الفذة في نظمِ الجملِ وتراكيبِ الألفاظِ[1]، وما تحمل من معنى بحيث تتلاءم، وتتسق حباته في عقد فريد، لتدلَّ على ما كانَ لهم من تقدمٍ مبينٍ ورسوخٍ عظيمٍ في ميادينَ البلاغة، وطرائقِ التعبير ...

على الجانب الآخر فإنها توقفنا على ما في هذهِ المعجزةِ الخالدةِ من سموٍ وإعجازٍ، وما تفردت به من تفوقٍ وامتيازٍ في ميادين القول من البيان، وروعة الكلام إذ لا نجد عبثاً ولا زخرفاً؛ لأنه حقٌّ. وفي هذا – عوداً – أبلغُ ردٍّ على اعتراض المعترضين الملحدين الجاهليين الذين أنكروا وجود هذا الدعمِ الكلاميِّ في كتاب الله الكريم.

من هنا يمكننا القول: بأن هذا القرآنَ كانَ – ولم يزلْ – بمثابةِ اللغزِ البلاغي الإسلامي في وجه مَنْ لم يؤمنوا بالرسالةِ، إذ تحداهم بصريحِ القولِ أن يأتوا بسورة مثله إن كانوا صادقين[2].

أثر القرآن في اللغة والأدب:

ما من شك أن القرآن الكريم – بكل فضاءاته البلاغية، وينابيعه اللغوية – قد لعبَ الدورَ الأكبرَ في إثراء اللغةَ والأدبَ معاً، وآية ذلك أنه في اللغة:

أولاً: استطاع أن يوَحِّدَ لغةَ العربِ في لهجة قريش التي سادت على جميع اللهجات العربية، وزوال تناكرها وكان ذلك توفيقاً من عندِ اللهِ حيثُ جمعت بعد شتاتٍ من اللهجات المتنافرة؛ والمتناثرة في شتى أنحاء الجزيرة.

أجل: لقد كرم الله لغة قريش اللغة الرسمية للبلاد لا في الشعر فحسب بل في الحديثِ اليوميِّ؛ لأن كلامٌ قريشٌ سهلٌ وواضحٌ، وكلامُ العرب وحشي وغريب[3].

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في مكة، ص٦٥.

(٢) انظر: الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية لمصطفى الشكعة، ج٢، ص٩٢.

(٣) انظر: أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية لأحمد حسن الباقورى، ط٣، ص٤٠، دار المعارف، سنة ١٩٨٧ نقلاً عن الواسطى صاحب الإتقان.

بسبب ما خلفت لهم حياة التحضر التي كانوا يحيون فيها، فضلاً عن مكانة قريش الدينية والاقتصادية حتى صارت لغتهم المثلَ الأعلى لسائر العرب. هذا ولم يقفْ الأمرُ عندَ هذا الحدِ بل عملَ القرآنُ الكريمُ على نشرِ اللغةِ العربيةِ وذيوعها فصارت لغة رسميةً ذات دينٍ سماويّ باهرٍ، ملأ البلادَ والممالكَ التي فتحها المسلمون بنوره، لذلك سميت باللغةِ الفاتحةِ[1]. كما استطاع أن يجعلَ الجنوبَ يكتبُ باللغةِ الشماليةِ – لغةِ القرآنِ – أي لغةِ الدينِ الجديدِ التي كانت بمثابة الجبل الذي اعتصمت اللهجات به بعدما كان اليمن يكتب باللغة الحميرية – لغة أهل حمير التي قال فيها أبو عمرو ابن العلاء "ما لسانُ حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا"[2].

عوداً على بدء فإننا رأينا دعاةَ الدينِ الجديدِ، وحفظةَ القرآنِ يرحلون إلى مصرَ والشامِ وليبيا والأندلسِ ينشرون الدينَ الجديدَ بلغته التعليمية حتى صارت لغةَ الدينِ والسياسةِ والأدبِ.

ثانياً: استحدث معجماً جديداً زاخراً – بكل دلالاته واشتقاقاته وتصريفاته، ومسائله النحوية تلك التي لم تألفها العربيةُ من قبلُ – لاسيما من جانب الدلالة والتعبير، كالدعوة إلى الوحدانية، وسوق الأدلة عليها، وحديث الآخرة وما فيها من بعث ونشور ..

من هنا فلقد جعل القرآنُ العربيةَ بحراً طامياً وقد استوعب مضامين كثيرةً فيها الخيرُ للناس، وبخاصةٍ كلُّ ما يتناول المعاني الشرعية الإسلامية التي لم تكن معروفةً من قبل مثل: الإسلام والشرك والصوم والصلاة والزكاة وكذلك لفظة (خليفة) بمعنى من يخلف غيره، ويقوم مقامه من دون تخصيص، ثم انحصر معناه فيمن خلف النبي عليه

---

(١) راجع: عربيتنا لغة فريدة من نوعها، مقال لمحمد السيد على بلاسي بمجلة القافلة، السعودية، عدد شوال ١٤١١هـ.

(٢) انظر: أشعار بنى حمير فى الجاهلية والإسلام للمؤلف "باب اللغة الحميرية بين المؤيدين والمعارضين".

السلام والوزير يعرف بالمناصر، وبذلك ارتفعت هامات المعاني؛ لأنهـا عاشـت في رحابِ القرآنِ، وارتوت من ينبوعه واستمدت دعامتها، وقوتها في ظـلِّ الفتـوحِ مـن خصوبته وينعه؛ فارتقت بالفكرِ وسمت بالغاياتِ سمواً يصلُ إلى حدِّ التَّتيمِ والانبهار.

ثالثاً: ما كان لنا عجباً أن يحدثَ القرآنُ ثورةً علميةً وفكريةً كبـرى اتسـعت دائرتهـا محاوِلَةً مواكبةَ إعجازِه المبهرِ، عاكفةً علـى فـكِّ رمـوزِه، وتحليـلِ جمالياتِـه وإبداعاتِه.....

من هنا ظهرت العلومُ التي اجتهدت في البحثِ فيه، والنظـرِ إليـه والاسـتنباطِ لاسيما النظرُ في محكم القرآنِ ومتشابهِه بحيثُ استنبطها مـن ينابيعـه، فكـان النحـوُ والصرفُ والبلاغةُ ومتنُ اللغةِ والفقهُ والتفسيرُ، وعلمُ الكلامِ والأصواتُ والقراءاتُ.

رابعاً: رشح اللغةَ بأن خلَّصها من أدرانِ الألفاظِ الوعرةِ الحاشيةِ، والعباراتِ الحوشـيةِ والتراكيبِ المستعربةِ إبقاءً على نصاعتها وفصاحتها وبراعتها وبلاغتهـا حـادةً مصوبةً نحو الهدفِ، متدفقةً في عفويةٍ وذلك لعدة أسباب أهمها:

١- تخليصها من تلك الجفوة، والمحافظة على جمالها من الضياع طالما أن لغته قضيةُ فكرٍ وإشعاعٍ وتنويرٍ وقيمٍ رقيقة، ومثلٍ عليا قبل أن تكون أداةً للتخاطب.

٢- أن تظل العربية متربعةً على عرش الألسنة واللغات جميعاً، إذ أن المحافظـةَ قـد جاءت عن طريقِ محاكاةِ العرب للقرآن الكريم بعـد إن تركـوا غريـبَ الكـلامِ، ووحوشي الألفاظ.

٣- فسحَ المجالَ للغةِ بالتوسعِ والتعمقِ في اسـتعمالِ دلالاتِ بعـضِ الألفـاظِ التـي استخدمها الشارعُ في غيرِ معناها الأصلي كالصلاة والصيام والزكاة...... وبذلك عدد أفضيتها، ووسَّعَ من مداراتها سواءً الاصطلاحية أو المشتركة أو المترادفـة أو الدخيلة حتى كادت أن تحجب الشمس عنا.

خامساً: انتزع اللغة من أحضان الصحراء، وقد أتاح لها ملكاً فسيح الأرجاء، تنهل من معينه لألفاظها ومعانيها وأغراضها وأسلوبها ما لم تجده في حياتها البدوية[١].

سادساً: وضع سياجاً منيعاً يحفظ اللغة العربية من العفاء والانقراض مثلما حدث للغات كثيرة وذلك، لأن الله تعهد بحفظه فقال: **(إنَّا نَحْنَ نزَّلْنا الذِّكرَ وإنَّا لَهُ لحـافظُون)** سورة الحجر آية (٩)، وفي ذلك تعهدٌ ضمني يحفظ الوعاء الذي يحمل هذا القرآن، وهو اللغة العربية وذلك بفضل خلود القرآن وبقائه.

وفي الأدب:

أولاً: استطاع الكتابُ والشعراءُ والخطباءُ أن يتأثروا بأساليب القرآن البياني السحرية، وبسياقاته أو بطرائقه التعبيرية الجمالية، ومناهجه الفنية في سوق الآراء وصياغة الحج، وعرض القصص والوصف والجدل والمناظرة؛ فصبوا فنونهم على نهج القرآن، وكانوا كما قال –الجاحظ- "يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع، آيٌ من القرآن الكريم فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع"[٢]؛ حتى صار الإسلام سمحاً يترجم أدبه عاطفةٌ دينية قوية، ويصور حياة عقلية وإنسانية، وروحية، واسعة، تدل عن تأدب بأدب الإسلام وتأثر ببلاغة القرآن.

ثانياً: تملكت الأدباء والشعراء طلاوته، وسلاسته، وأخذت بأهدابه مكامن الروعة والجمال والوضوح، وشدة التأثير، وقوة الإقناع وتأجج العاطفة والتهاب الشعور، ودقة الإحساس الأدبي؛ لأنه لما رقق إحساسهم ومشاعرهم لانت طباعهم، وهذبت ألسنتهم وصقلت قرائحهم، ولم تقبل إلا الرقيقَ من الأساليب ولعل شعر حسان بن

---

(١) انظر: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية ص٤٩.

(٢) انظر: البيان والتبين ج١ص١١٨.

ثابت، وكعب بن زهير خير شاهدين على رقةِ طباعِ الشعراءِ نتيجة التأثر بأساليب القرآن الكريم.

ثالثاً: الروعة والدقة في صوغ الأساليب، ودقة تمثلها، وإحكام نظمها؛ لسـريانِ روحِ القرآنِ في قلوبِ المتكلمين بها، وسيطرته على نفوسهم.

رابعاً: حثَّ المسلمين على تتبعِ تراثِ اللغةِ العربيةِ وآدابها وذلك بجمع شعرها وحكمهـا وأمثالها ووصاياها وخطبها ورسائلها من العرب الموثوق بهم، بحيث تعينهم على تفهم ألفاظ القرآن وأساليبه، وقد جمعوا مئات الكتب والرسـائل التـي صـارت مرجعاً لا غنى عنه في دراسةِ اللغةِ وآدابِها، بحيـثُ يعتمـد عليـه البـاحثون والدارسون.

خامساً: كان اشتمال القرآن الكريم على صور البيان وأساليبه الرائعة أساساً لنشأة علوم البلاغة والنقد الأدبي.

سادساً: التأثر الواضح بألفاظ القرآن في شعرهم.

سابعاً: أحيا القرآن فنوناً أدبيةً جديدةً في الجانب النثري كالقصص وأدب الزهـد، وأدب التاريخ وأبطل سجع الكهان والهجاء الكاذب، والفخر المبالغ فيـه والعصـبيات القبلية.

الآخر الحديث النبوى الشريف:

بالرجوع إليه لغةً: نجد أنه هو الكلام المتحدَّثُ به، وقيل: هو الحديث -اسم من التحديث- وهو الإخبارُ، ثم سُمّي به كلُّ قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ نُسبَ إلى النبي (ﷺ).

أما في الاصطلاح: فهو مرادف للسنة، ويقول فيه تقي الدين بن تيمية: الحـــديث النبوي-هو عند الإطلاق - ينصرف إلى كلِّ ما حُدِّثَ به عنه (ﷺ) بعد النبوة من قولـــه، وفعله وإقراره[1].

على هذا التصور فإنه -بذلك- ليس جميعه أقوالاً، بل منه ما يسمى بالآثار، لكن الذي يعنينا هنا هو ما ثبت صدوره عن الرسول (ﷺ) من القول، وقد ألحق به كثيرٌ من الرواة ما حكي عن الصحابة والخلفاء؛ لإقتدائهم به في القول والعمل.

في هذا الصدد يقول الجاحظ - مثبتاً اقتصارَ الســـنة علـــى الرســـول (ﷺ)- أن الصحابة كانوا يكرهون أن يقولوا: سنَّةَ أبي بكر وعمر، بل يقـــال: ســـنة الله، وســـنة رسوله[2].

فالمتأمل في كلام النبي (ﷺ) يراه أبلغ كلامٍ صدرَ عن بشرٍ؛ لكنَ بلاغة القـــرآنِ في مرتبة لا تناله بلاغةُ الإنسان، هذا ولقد تمتع بخصائصَ لم يحزْ عليها بشرٌ، تلك التي أهلته لحمل الرسالةِ السماويةِ للجزيرةِ خاصةً، والبشرية عامةً، ومعجزة الإسلام الثانيـــة بعد القرآن علماً بأن هذه الخصائصَ يمكن إرجاعُها إلى عدة **عواملَ أو مؤثرات جعلـــت الرسول (ﷺ) بليغاً منها نذكر:**

أولاً: فصاحةُ لسانه وجودةُ بيانه، وسلاسةُ أسلوبه، وعذوبةُ ألفاظـــه، وقـــوةُ عباراتـــه، وروعةُ حكمه، ونصاعةُ كلامه؛ لذا فقد قال: أنا أفصح العرب بيد أني من قريش،

---

(1) انظر: من هدى السنة لعلي حسب الله ومصطفى زيد، ط٢، ص١.

(2) الآثار هي ما رواه الرواة حكاية عن خلقه أو عمله أو في شأن من شؤونه، وضم إليه الرواة كثيراً مما حكى عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين حيث كانوا يقتدون به في أقوالهم وأفعـــالهم عمـــلا بقول الله تعالى.... ينظر الخبر في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ص٢٩٩.

ونشأت في بني سعد[1]، فلغةُ قريشٍ كانت أفصحَ اللغات، وأصرحها؛ لبعدها عن بلاد الأعاجم من جميع الجهات، إذ صانها -بعدها هذا- من الفساد والتأثر بأساليب الأعاجم، وبهذا تهيَّأ لها أن تتفوق بل تتربعَ على عرش الألسنة واللغات جميعاً......بهذا فلقد اجتمع له - **بالنجيزة القرشية** - ذروةُ سلامة اللسان، وسماحة البيان حيثُ نظمت -بلغتها- المعلقات، وعلى لسانها دارت أحاديثُ الشعراء في عكاظ، ثم **بالنشأة السعدية** المتمثلة في مرضعته حليمةَ السعديةِ التي تُنتسب إلى قيس بن عَيْلان التي تعدُّ من أشهر القبائل العربية فصاحةً، وأكثرها سلامةً للغة،ثم **بزواجه من خديجة** بنت خويلد التى تنسب إلى قبيلة بني أسد، تلك القبيلةُ التي تعدُّ المصدر الذي استقى منه العلماءُ والرواةُ مادتَهم اللغويةَ، فضلاً عن هذا فإن **أخواله من بني زهرة** بن كلاب المشهورين بالفصاحة... فكلُّ هذا التساوق أو التوافق يثير الانتباه، وينتزع الإعجابَ **بدءاً من ولادته، ومروراً بالرضاعة، وانتهاء بالزواج** هذا من جانب، لكننا على الجانب الآخر نرى أن رقة أهل الحضر، وجزالة ومتانة، وعملقة أهل الوبر لديه كان يرفدهما بغزارة - بل بفيضانٍ عارمٍ - وحيُ ربِّ العالمين، وفطنةٌ جديرةٌ بسيد المرسلين؛ لذا فإنه لم ينطق إلا عن ميراث حكمه؛ لأن القبائل السالفة الذكر قد خصها الله بعرق -في فصاحة الكلام- عريقٍ، وسببٍ من أسباب البلاغة عتيقٍ، رونقهُ وثيقٌ..! وفي هذا وذاك كان تقويماً لملكته، وتهذيباً لسليقته، وصقلاً لفطرته؛ حتى يفقه الناسُ قوله، ويعقلوا دعوته.

ثانياً: أن لغته البيانية، وبلاغته الواضحة، وحجته القاطعة هي التي جعلته يقول ما سبق من عند الله فكان -من نتاجِ ذلك- أن رأيناه يخاطبُ وفودَ العرب بما تجهله قريشٌ ويجهله بعضُ العرب عن بعضٍ حتى قيل: إنه لما جاءه وفدٌ من عرب اليمن خاطبهم بلغتهم فقال: "ليس امبر امصيام في امسفر"[2].

---

(١) انظر: الحيوان، ج١، ص٢٣٦، طبعة الحلبي.

(٢) هذه لهجة يطلق عليها الطمطمانية وهي قلب لام التعريف ميماً، حيث كانت تختص بها قبيلة حمير وقد تمثل بها أكثر من شاعر حميري. راجع: أشعار بني حمير للمؤلف.

كما كان يبعث بكتبه إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها بلهجاتهم، ويجاري تعابيرَهم فيما يريد أن يبعثَ به إليهم، وهي ألفاظٌ خاصةٌ بهم، ومن يداخلهم ويقاربهم حتى لقد ذكرَ بعضُ الرواةِ أنه كانَ يعرفُ ألفاظاً كثيرةً من الفارسية والرومانية، وإن لذلك شاهداً من كتبه للرومان .. (فقد جاء في ذلك الكتاب: اسلمْ تسلمْ وإلا فعليك إثم البريسيين)[1].

تدوينه:

حينما كثرت الأحاديث الموضوعةُ تلك التي كان بعض المغرضين يدسونها من المنافقين، ومن الشيعة، وبعض الفرق الأخرى، تبعاً لأهوائهم وتأييداً لآرائهم المتطرفة[2]. وذلك في العصور العباسية؛ ليحققوا بها هدافاً ومطامع سياسية،[3] أو عصبية أو شعوبية-[4] أو خلافاتٍ كلاميةً فقهيةً كالمتمثلة في فرق المعتزلة والخوارج والجبرية والمرجئة والشيعة ومتابعة هوى الأمراء، والرغبة في الوعظ والهداية- أو مذهبية[5] يُقصدُ منها التشويشُ للتزلف إلى أميرٍ، أو لفت الأنظار لغريبِ الروايات؛ لذلك قام بها بعضُ أهلِ الغيرةِ من العلماء بجمعِ الأحاديثِ، وخصوصاً بعد أن أمر عمرُ بن عبد العزيز بجمعها، وتدوينها لما مات كثيرٌ من حفَّاظه في معارك الإسلام وكان يشترطُ لصحةِ الحديثِ أن يكون الإسنادُ متصلاً برسول الله (ﷺ)، وأن يكون جميع رواته عدولاً لم يثبتْ - على أيٍّ منهم - كذبٌ.

وأشهرُ كتبِ الأحاديثِ وأصحُّها؛ لكونها أهمَّ المراجع نذكرُ:

١) صحيح البخاري حيثُ جمعه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري - رحمه الله - ودوَّن فيه ٧٣٩٧ حديثاً.

---

(١) البريسيون لفظ روماني استعمل في معناه الدقيق وهم العامة وغيرهم من الدهماء .. مزيداً من التوضيح يمكنك الرجوع إلى: خاتم النبيين لمحمد أبي زهرة، ص٢٣٨-٢٤٠.

(٢) انظر: التدوين والرسائل لأحمد أمين، ص٢٨.

(٣) حيث اشتعلت الخصومة بين العلويين والأمويين وكان كل حزب يدعو لنفسه.

(٤) حيث وضعت بعض الفرق أحاديثهم لتحقيق هذا الهدف.

(٥) انظر: العصر الإسلامى لشوقي ضيف، ص٣٥.

٢) صحيح مسلم وقد جمعه الامام مسلم بن الحجاج النيسابوري، وهو عربيٌ من قبائل قيس عيلان. وكتابه في الدرجة الثانية بعد صحيح البخاري، وبلغت الأحاديث التي اشتمل عليها صحيح مسلم ٧٢٧٥ حديثا.

٣) سنن أبي داود ٤) سنن النسائي ٥) سنن الترمذي

٦) سنن ابن ماجة ٧) مسند الإمام أحمد بن حنبل

أهميته:

تكمن أهمية الحديث في مجيئه موضحا، ومفصلا لكثير من أحوال الدين الإسلامي وأحكامه التي ذكرها القرآن مجملة دون تفصيل، ومطلقة دون تقييد، ومعممة ما فيه تخصيص، ومبينة ما فيه خفاء. فالقرآن - مثلا - لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة بوصفهما أنهما من أهم أركان الإسلام حيث اكتفى بقوله تعالى: **(وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة)** سورة: البقرة آية" (٤٣)؛ لكن الحديث فصّل أوقات الصلاة وكيفيتها، كما فصّل القواعد والأسس التي يجب مراعاتها في جمع الزكاة وتوزيعها، وهذان أمران من الأوامر التي تناولتها أقوال الرسول وأفعاله[1]. هذا **أولا**.

ثانيا: أنه يجيء متحدثا عن أشياء قد سكت عنها القرآن؛ لذلك كان لابدّ من القياس.

ثالثا: أنه المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي فهو - بجانب توضيحه للقرآن الكريم وتفسيره ما استغلق فهمه منه،- يصورُ القيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية التي جاء بها النبيُ (ﷺ)، على هذا النحو فإن الحديث يجيئ مفصلا ومكملاً للقرآن، وخاصةً فيما يتعلقُ بتفصيل الأحكام.

رابعاً: ترجعُ أهميةُ الحديث إلى مدى إسهاماته في مجالات شتى كان من شأنها أنها ساعدت على تطور اللغة العربية، وعلى إثراء الفكر المكي من ناحية، والعربي من ناحية أخرى[2]؛ لذا فإن المسلمين اجتهدوا في جمعه بعد أن تمَّ لهم جمعُ القرآن الكريم.

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في مكة لزكى عابدين، ص٣٧٧.

(٢) انظر: حيوات العرب للدكتور عبد المحسن سلام، ص٤٩١-٤٩٣.

خامساً: لقد أثمرت الجهودُ المبذولةُ في تصنيف الحديث والاهتمام بــه إلــى ظهــور المدارس الإسلامية في التشريع والتاريخ فكانا سبيلاً للاهتمام بما في الحديث من نصوص تشريعية وتاريخية[١].

سادساً: أنه حثَّ على قراءة القرآن ودراسته، وتيسير الوصول إلى ثواب قراءته، ونيل فائدته في مثل قوله (ﷺ) (ألم ترَ آيات أُنزلت الليلةَ لمْ يرَ مثلهُنَّ: "قلْ أعوذُ بربِّ الفلقِ، وقُلْ أعوذُ بربِّ الناس")[٢].

خصائص أسلوبه:

قد يصعب على الباحث أن يُحصيَ المسار البلاغي لرسول الله ذكراً وذلك لغنى الموروث اللغوي، وكثرته المطلقة؛ لذا فإن أغلب الأحكام تجئ جزئيةً ..

لكننا بشكل عام نستطيعُ رصدَ بعضٍ من **الخصائص الفنية لأسلوبه (ﷺ) فيمــا يلي**:

أولاً: من حيثُ المعاني:

أن معانيه مستقاة من معاني القرآن، فهي تفصل المجمل من القرآن، وتوضــح أحكام التشريع.

ثانياً: من حيث الألفاظ:

أ- أنه سهلُ اللفظ يخاطب -في سهولته- العامةَ والخاصةَ متناسقاً مع المعاني.

ب- إنه موجز إيجازاً بليغاً، فالألفاظ تشتملُ على معانٍ عظيمةٍ كقوله (ﷺ) "قل آمنــتُ باللهِ ثم استقمْ؛ ولهذا سمي "بجوامع الكلم". ومن أمثلة الإيجاز -عوداً- ما قاله حيثُ ذكر الأنصار: "أما والله ما علمتكم إلا لتقلُّون عند الطمع، وتكثرون عنــد الفــزع" وقال: "المرءُ كثيرٌ بأخيه" و "لا خيرَ في صحبةِ من لا يرى لك مثل ما تــرى لــه"

(١) انظر: الترغيب والترهيب من الحديث لمحمد مصطفى عمارة، ج١، ص٩٣.

(٢) انظر: الترغيب والترهيب من الحديث لمحمد مصطفى عمارة، ج١، ص٩٣.

وقال: "رأسُ العقلِ –بعد الإيمان بالله– مدارةُ الناس" وقال "رحمَ اللهُ عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم، وقال: "افصلوا بين حديثكم بالاستغفار" وقال: "أعوذُ بالله من دعاءٍ لا يُسمع، ومن قلب لا يَخشع، ومن علمٍ لا ينفع" وقال "تهادوا تحابوا"

جـ_ أنه خالٍ من التكلف والزخرف؛ لأنه ينساب من طبع صادق، ونبع غزير صافٍ، لذلك فلقد عفّى طريقة سجع الكهانِ، وأزال معالمها؛ لأنه –(ﷺ)– كان لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجوز به مقدارَ الإبلاغ في المعنى الذي يريده[1].

ثالثاً: من حيث الصور والأخيلة:

فإن قدرته الرائعة على التصوير والتشبيه تدلُّ على موهبة فذة، قد خلفت لنا لوحات فنية سرمديةً ساحرةً باقيةً على فم الزمان، امتاحت قوتها التعبيرية من تجربة الرسول الكريم (ﷺ) فصارت ميراثاً باقياً بقاء الدهر في البيان العربي.

وقد روى عن على بن أبي طالب – رضى الله عنه – أنه قال ما سمعت كلمة غريبة من العرب – يريد التركيب البياني – إلا وسمعتها من رسول الله (ﷺ) وسمعته يقول: مات حتف أنفه، وما سمعتها من عربيٍّ قبله[2].

وبشكل عام فلقد أوتى حظاً طيباً من القدرة البلاغية استطاع بها أن يتعامل مع مختلف القبائل، ويشرح لهم ما يدور حول رسالته مع من جاءه، أو مع من أرسلَ إليهم الرُسلَ؛ لنشر دعوته السمحاء.

أثر الحديث في اللغة والأدب:

أولاً: ساهم الحديث الشريف بالنصيب الأكبر في انتشار اللغة العربية في الأمصار التي رفرفت على ألويتها رايةُ الإسلام، وكان له الأثر الثاني الفاعل في الحفاظ على

---

(١) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٣١٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٣٤٧.

سلامة اللغة خالصةً من شوائب لغات أخرى، وكما ذكرنا آنفاً - في معرض الحديثِ عن خصائصِ الحديثِ - أن القرآنِ الكريمِ قد ذكرَ أحوالَ الدينِ الإسلامي مجملةً؛ لكن الحديثَ قام بتفصيلها، وهنا كان لزاماً عليه أن يبتكرَ ألفاظاً دينيةً وتشريعيةً وفقهيةً وعاءً لمعانيه النفيسةِ، بحيثُ لا تكونُ مطروقةً في الجاهليةِ، فاتسعت -بفضله- دائرةُ اللغة العربيةِ وآدابها لاسيما الألفاظُ الجديدة دلالةً واشتقاقاً وصرفاً.

ثانياً: استطاع الرسول أن يدخل ألفاظاً جديدة لم يكن للعرب سابقُ معرفةٍ بها من قبل مثلُ:

- تسميته بعض أسماء الشهور مثل: محرم، جُمادى الأولى، وجُمادى الآخرة و.....
- كلمة "**الصير**" بمعنى الشق لقوله: "من اطلع من صيرِ بابٍ فقد دمر"[1] قال أبو عبيدة لم اسمع شيئاً عن هذه اللفظة إلا في هذا الحديث .. "فصير الباب: "خرقه".

كما استطاع أن يدخل تراكيبَ بيانةً جديدةً لم يعرفْ العربُ شيئاً عنها من قبلُ.

نذكر منها **على سبيل المثال**:

١- قوله: "مات حتف أنفه" أي على فراشه، لقد خص الأنف؛ لأنه أراد أن خروجَ روحِه من أنفه تكونُ بتتابع نَفَسه؛ لأن العرب كانوا يتخيلون أن روحَ المريض تخرج من أنفه، فإن جُرِح خرجت من جراحه، ورُوى عن علي بن أبي طالب أنه قال: "ما سمعتُها عن عربيٍّ قبله"

٢- قوله -عند ذكر الفتن-: "هدنة على دخن، وجماعة على أقذاء"[2] وتفسيره في الحديث: لا يرجع قومٌ على ما كانوا عليه بحيثُ إن الصلحَ لم يذهب مكنونات

(١) انظر: اللسان مادة "صير" حيث جاء الحديث برواية: "من نظر فى صير باب ففقئت عينه فهى هدر".
(٢) راجع: اللسان مادة (هدن)

الضمائر، وأضغان القلوب، فيبقى منها كما يبقى من النار تحتَ الرَمـــاد لا يـــزالُ يتحفزُ للاشتعال.

٣- قوله: "الآنَ حمي الوطيس" للدلالة على شدة الحرب حيثُ استعار نيرانها، وتتطاير شررها، فإن الوطيس هو التنور، ومجتمع النيران بحيث استعير لشدة الحرب.

٤- قوله "كل الصيد في جوف الفرا" بحيثُ يضربُ مثلاً في نفاسة الشئ، أو الشخص.

كما انفرد بكثيرٍ من التراكيبِ الفنيةِ والاختراعاتِ اللفظيةِ، والجمالياتِ الأسلوبيةِ مما لا يعرفه العربُ من قبلُ؛ لذلك كان يسألونه عن بعضِ الألفاظِ، ويعجبون بمعرفتـــه هو بها؛ وهم عربٌ مثله، فثار انتباههم فصاحته التي اختص بها. هذا ولقد روي أنه قال لأبي تميمة: إياك والمخيلة" فقال يا رسول الله، نحنُ قومُ عرب فما المخيلة؟ قـــال (ص) "سبل الإزار" أي الكبر. فقول أبي تميمة: نحن قوم عرب دلالةٌ علـــى أن النبـــي (ص) اخترع هذا اللفظ اختراعاً، ولم يسبقه أحدٌ"

إن كل ما سبقَ جعلَ لغةَ الرسولِ مصباحاً سحرياً، وقد أضـــاءَ نتـــوءَ المعـــاجمِ والقواميسِ، كما جعلَ من أسلوبه طريقَ هدايةٍ سواءً من ابتداعِ المعاني، وجلبِ الألفـــاظِ المناسبةِ لها، أو من صورٍ جماليةٍ، وأخيلةٍ بيانيةٍ وقد اكتسبت حللاً أخذت زينتها عند كلِّ عبارةٍ، داعيةً الأدباء إلى احتذائها، واتباعِ طرائقها، واتخاذِها مثلاً يسيرون على نهجه.

ثالثاً: إن ما يدلل على صدق ما ذهبنا إليه ما ذكره الجاحظ[١] من نماذج كلام الرســـول (ص) مما لم يسبقه إليه عربيٌّ قد صار مستعملاً ومثلاً سائراً يضمّنُ به الكتـــابُ والأدباءُ والشعراء أدبهم فمن ذلك قوله: "يا خيل الله اركبي" وقوله: لا تنتطح فيه عنزان" وقوله: "لا يلدغُ المؤمنُ من جحرٍ مرتين".

كما يذكر الجاحظ[٢] فناً آخر من كلامه (ص) وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه وهو الإيجاز المنزَّهُ عن الصنعة والتكلف، بحيثُ استعمل المبسوط في

---

(١) انظر: البيان والتبين ج٢ ص١٥.
(٢) انظر: البيان والتبين للجاحظ ج٢ص١٥.

موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب والوحشي، ورغب عن الهجين السوقي. فلم ينطق الا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بالكلام الذي ألقى عليه المحبة، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الافهام، وقلة عدد الكلام. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى من كلامه(ص) فقد تحللت الحياة العربية من قواعدها، ولم تعد تحتكرها الأمثال إذ أخذ العرب يشغلون عنها بتلاوة القرآن، ورواية الحديث واتخذوا منها عبرتهم، وموعظتهم وحتى الشعر كف كثيرون من شعرائهم عن نظمه[1].

إن هذا الكلام الذي يجيء قاسما مشتركا بين الأمثال والحكم بحيث يعلو عليهما هو الذي قلل من شغف العرب، أو ولعهم بالأمثال حتى لم يعد لها - منذ ظهور الإسلام خطورتها في تاريخ النثر العربي كما يرى الدكتور شوقي ضيف.

رابعا: إن الحديث كان فاتحة غير مسبوقة، وواحة أريضة لبعض العلوم الدينية والعربية التي وضعت خدمة لدراسة الحديث- كعلوم الحديث وتفسيره غريبه، ومصطلحه.

من هنا فإننا لا نبالغ إذا قلنا: إن الحديث أضاف الكثير والكثير لكل من علوم التفسير والفقه وأصوله، وهذه العلوم كان من شأنها أنها أكسبت اللغة العربية وفرة وغنى في الألفاظ والمصطلحات.

خامسا: ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة، والمشاعر معا، وتثقيف الطباع وقد فتح نوافذ العقل، وأنار أبهاء الروح من حيث تركه الحوشية الكزة التي تثقل الألسنة، والغريب والتعقيد في البيان، والمعاظلة في التراكيب، وأحل محل ذلك البساطة والسهولة والرونق والوضوح، وسلامة الأسلوب، وروعة البيان

---

(١) انظر: الفن ومذاهبه فى النثر العربى ط٨ ص١٥ دار المعارف سنة ١٩٧٧ نقلا عن الأغانى ج١١ ص٩٤ طبعة الساسي.

فقد كان (ص) يعنى بالفصاحة في اللفظ، بحيث لا يكون فيه تعسفٌ ولا غرابةٌ فقد أثر عنه: "من بدا جفا" ولعل ما يدل على عنايته باللفظ ما روي من أنه قال: "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل: لقد قست نفسي،[١] كأنه كره أن يضيف المؤمن الخبث إلى نفسه، وفي هذا ما يدل بعض الدلالة على عنايته بحسن منطقه.

سادساً: عفى الحديث على سجع الكهان، وأزال معالمها، ورفع مكانةَ النثر، بعد أن هذَّب أغراض الأدب، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يعنى بالسجع في خطبه بسبب استخدام الكهان له قديماً؛ لذلك صدَّ عنه عليه السلام، كما صدَّ عنه خلفاؤه، حيثُ "روى الطبري أنَ عمرَ بنَ الخطابِ سأل صحاراً العبدي البليغ المشهور عن مكانِ الفارسيةِ أثناءَ غزوةِ المسلمين لها، فقال صحار: يا أميرَ المؤمنين: أرض سهلها جبلٌ، وماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثيرُ بها قليل، والقليلُ بها ضائع، وما وراءها شرٌ منها، فقال عمر: أسجّاع أنت أم مخبر؟ فقال صحار: بل مخبر،[٢] وكأن عمر كره منه السجع.

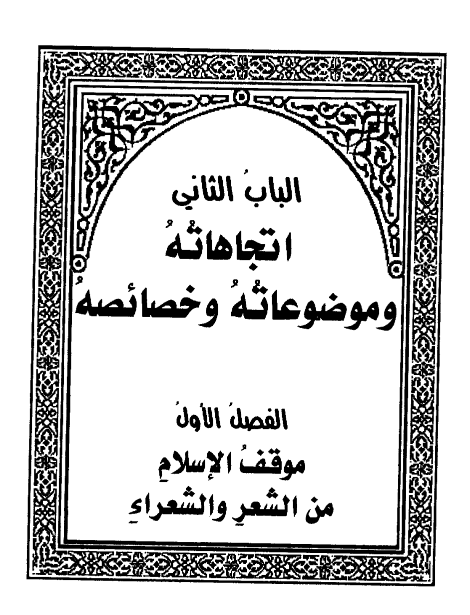
فالواضح أن المسلمين قد رغبوا عن السجع في حديثهم في هذا العصر حيثُ ثبت أن الخلفاء قد نفروا منه، وذلك؛ لنهي النبي عليه الصلاة والسلام عنه. وبالرغم من أن خطب النبى لم تكن مسجوعةً، لكنها – مع ذلك – كانت تحوي فنوناً من البلاغة والفصاحة. ويكفي –في بيان روعة التعبير عنده– ما يقول الجاحظ من أنه "لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلعاً، ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه (ص)[٣].

---

(١) انظر: دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامى لمحمد عبد القادر ط١ ص٢٨.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى ق١: ص٧– ٢٧.

(٣) انظر: دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ط١ ص٢٨ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٨٦.



البابُ الثاني

اتجاهاتُهُ وموضوعاتُهُ وخصائصهُ

الفصلُ الأولُ

موقفُ الإسلامِ من الشعرِ والشعراءِ

سابعاً: أقبل العلماء في مختلفِ الأمصارِ الإسلاميةِ على تعاقب العصور يدرسونه ويحفظونه ويشرحونه، ويستنبطون منه، ويستشهدون به، مما كان له أثره الكبير في التشريع؛ لأنه المصدرُ الأولُ لتفسير كتاب الله.

ثامناً: تأثر به الخطباء والكتاب والشعراء، واقتبسوا منه، وحاولوا السير على نهجه، لاسيما أولئك الذين تربّوا في مدرسةِ النبوةِ، وأثرُ هذه المدرسةِ واضحٌ في كلامِ الصحابةِ وخطبهم.

تاسعاً: يؤلف الحديثُ النبوي مع القرآنِ الكريمِ رافدين عملا على توحيد اللهجات العربية؛ لتلتقي كلها على مائدة الفصحى، كما ساعدَ على ذيوعها وخلودها مع ذيوع الدينِ والإسلامِ. قال تعالى: **(هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدَى، ودينِ الحقِّ ليظْهِرَهُ على الدِّينِ كلِّه وكفى بالله شهيداً)** الفتح آية (٢٨)

عاشراً: له الدورُ الأكبرُ في نشأةِ الكتابةِ التاريخيةِ لا في السيرةِ النبويةِ فحسب بل في تراجمِ المحدثين للحكمِ عليها أو عليهم فيما نُقِلَ عنهم؛ لذا لعب دوراً كبيراً في عناية المسلمين بتواريخِ رجالهم على نحوِ ما نعرفُ أشد في مثل طبقات بن سعد، وأسد الغابة، والإصابة، والاستيعاب على هذا النحو فلقد فتح الحديثُ باب الكتابة التاريخية، وهيأها لظهور كتب الطبقات في كلِّ فنٍّ.

مما سبق نستطيع القول: إن المؤثرات– على أدب صدر الإسلام – سواءً أكانت مباشرةً ممثلةً في الإسلام – ذلك الدينِ الجديدِ الوافدِ على العرب آنذاك .. أم غير المباشرة تلك التي تمثلت في القرآن والسنة النبوية المطهرة – قد استطاعت أن تعيدَ رسمَ الخارطةِ الشكليةِ والجوهريةِ للأدبِ واللغةِ، وأن تمنحَ اللغةَ هيبتَها وقدرتها على مواجهةِ التحدياتِ على مرِّ الأزمنة.

تعددت الآراءُ، وتعالت الأصواتُ مدوِّيةً، وتناثرت الأقوالُ على صفحات البحث والدرس؛ حتى شكَّلت ضبابيةً، وقد نُسجت خيوطُها من تضادية المفاهيمِ التقليدية، وكثرة النظراتِ السطحية، وابتسار الأحكام الظنيةِ وليِّ أعناقِ النصوصِ التراثيةِ حتى ضـــاع الثبتُ والتوقفُ والنظرُ التامُ النافذُ ضياعاً – كان من شأنه أن – أرهقَ العاملين بالحقــل النقدي، وعجباً على ما صرنا إليه ..!

ونحنُ – بإزاءِ هذا كلِّه – سنجدُ من يلقي باللائمةِ على الإسلام؛ لكونه قد عادى الشعرَ، فخبت جذوته، وكسدت سوقه، إبان البعثةِ النبوية، فكان – من نتاج ذلــك – أن توارى، وتجافى إنشاده الشعراء بالشكلِ الذي تعودوا أن ينشئوه، وينشدوه قبــلَ البعثــةِ المحمديةِ بقليلٍ حتى غابت سماء رونقه، وتلاشت – تلاشياً متعمداً – كونيةُ جماله ..

ونتساءل عن مبعثِ كلِّ هذا فنجد أنه انطوى على اعتقادِ سائد – ولربما راســخ منهم مفاده– "أن الدعوةَ الجديدةَ ناصبته العداءَ؛ لأن رسولَنا قد تنكَّر له؛ لذا فلقد قلَّ عددُ الشعراء، وتضاءلَ إنتاجُهم ضآلةً واضحةً، بعدما استأثر على اهتماماتهم حيناً من الدهر قد كان بالفعل مذكوراً.

وبالنظرِ فيما سبقَ فقد يكونُ من العبثِ أن نصدرَ أحكاماً دونَ قراءةٍ متأنيةٍ للنصوصِ النقليةِ أو الحكميةِ التي بينَ أيدينا، ونشهد أننا لن نتأثرَ – بآراءَ سابقة – تأثراً يصلُ إلى حــدِّ المرحلةِ الأثيرية، أو نتباعد تباعداً يصلُ إلى حدِّ الغرائبية أو العجائبية؛ لكننا سنعيدُ النظرَ مليّاً فيما يقع تحتَ أيدينا قبل الردِّ حتى يستقيمَ قولناً مع موازينِ النقدِ السليم.

ونحنُ – في كلِّ هذا – سنعتمدُ على المنهجِ التكاملي في تعاملنا مع القضيةِ إذ أن منهجاً واحداً لا يكفي لمحاصرةِ مثلِ هذهِ النصوص، والحكمِ عليها؛ لذا تصبحُ أغلبُ المنـــاهج النقديةِ منتدبةً بشكلٍ ضروريّ، بحيثُ تُسلَّطُ عليها من كلِّ جوانبها؛ لتنفذَ إلى لبِّ القضيةِ في طواعيةٍ واقتدارٍ وشفافيةٍ مترجمةً ومعربةً عن ماهيتها.

على كلٍّ فإننا سنعرض أولاً– موقف القرآن من الشعر بوجهٍ عام، ثم ننتقل للحديث عن موقف الرسول (ص) من الشعر، ثم ننتهي بالحديث عن موقف الخلفاء الراشدين من الشعر، ثم نشيرُ إلى موقف القدماء من كلِّ ما سبقَ، وذلك من خلال عرضنا لنصوصٍ دالةٍ وكاشفة تستنطقُ التاريخ، مستحضرةً رموزه ودلالاته؛ لتشكل الرؤية الكلية، والقيمةَ الفعليةَ، لتلك القضيةِ الأدبيةِ الماضيةِ والحاليةِ والمستقبلية.

موقف القرآن من الشعراء والشعر

أولاً: موقف القرآن من الشعراء:

لما نجتهدُ في البحث عن الآيات التي حملت –بين أطوائها– موقفاً من الشعر والشعراء لم نجد سوى قوله تعالى: **(والشُّعَراءُ يتَّبِعُهُم الغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يِهيْمُونَ، وأنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لاَ يفْعَلُون. إلاَّ الذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللهَ كثيراً وانتصروا من بعْدِ ما ظُلِمُوا وسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)**[١] – هي الآية الوحيدة التي تعرضت لأمرِ الشعراء دونَ أن تتحدث عن أمر الشعر بخيرٍ أو شرٍّ حيثُ نرى الله سبحانه يعلم– ما كان عليه الشعراءُ في الجاهلية– أنهم عُرِفوا بمسلك خلقي يتَّسمُ بكثيرٍ من الإسراف، والمبالغة في اللهو والإقبال الجامح، أو غير المقبول على الملذات المادية من خمرٍ وميسرٍ، وغير ذلك حتى بلغ الأمرُ أن وجدنا بعض القبائل كانت تتخلصُ من مثل هؤلاءِ الشعراءِ إما نفياً؛ فيلتحقون بقبيلةٍ أخرى، وإما نسباً فيكونون حلفاءَ لقبائلَ أخرى، وفي هذا وذاك دليلٌ دامغٌ على محافظة القبيلة على تقاليدها وعاداتها، ولعل قول طرفة[٢] بن العبد البكري.

ومازالَ تَشْرَابِي الخمورَ، ولذَّتي	**وبيعي وانفاقي طريفي ومُتْلَدِي**
إلى أنْ تَحَامتْنِي العشيرةُ كُلُّها	**وأُفْرِدْتُ إفْرادَ البَعَيْرِ المُعَبَّدِ**

---

(١) انظر: سورة الشعراء الآيتان (٢٢٤-٢٢٧)

(٢) انظر: ديوان طرفة بن العبد بتحقيق، وشرح كرم البستاني ص٤١، ٤٢ مكتبة صادر بيروت سنة ١٩٥٣م المعبد: المذلل بالقطران بحيث يفرد لئلا يقارب الإبل؛ فيعديها بجربه.

التشراب: الشرب. الطارف والطريف: ما استحدثه الرجل واكتسبه. التالد والتليد: ما ورثه عن آبائه

يؤكد ذلك حيثُ نراه يقول: لم أزل أشربُ الخمر، وأشتغلُ باللذات، وبيع الأعلاق النفسية وإتلافها حتى كأن هذه الأشياء بمنزلة المال المستحدث أو الموروث؛ لذلك تجنبتني العشيرةُ كما يُتَجَنَّبُ البعير المطليُّ بالقطران، وأفردتني بل تركتني ألقي حبلي على غاربي، ولم يقربْني أحدٌ، وذلك لمَّا رأت أنيِّ لا أكفُّ عن إتلاف المال، والاشتغال باللذات.

ولعلنا نذكرُ – في هذا الصدد عوداً – أن أبا امرئ القيس قد نفاه لإسرافه في ملذاته لا سيما الخمرُ، وملاحقته، ومطاردته الدؤوبة للنساء، كذلك فإن طائفةً من الشعراء خلعتهم قبائلهم؛ لسوء سلوكهم الذي جرَّ عليهم كثيراً من المتاعب والآلام ممثلةً في الخصومات، والتناحرات، والمنازعات، وخصوصاً الشعراء الصعاليك.

فالواضح أن القرآن لم يهاجمْ الشعراءَ بالمفهوم الشمولي، بل خصَّ المشركين الذين كانوا يهجون الرسول(ﷺ) ويثبطون عن دعوته حيث حدد صنفين وجَّه إليهما الحديث.. **الأول: الشعراء الغواة، الهائمون، الكذابون**– وفيه وصفهم القرآن –مجملاً– بالصفات الثلاث السابقة، فلما وصفهم بالغواية قال: "يتَّبِعُهُم الغَاوُونَ" أي في مثل غوايتهم، كأنه يعترفُ بالتأثير السلبى للشاعر على الناس المتمثل فى قوله بالغواية...

لقد ورد فى تفسير الكشاف أن هذه الآية "والشُّعَراءُ يتَّبِعُهُم الغَاوُونَ" قد نزلت في شعراء المشركين أمثال عبد الله الزبعرى –قبل دخوله في الإسلام– وهُبيرة بن أبي وهب ومسافع بن مناف، وأبي عزة الجمحي، وأُمية بن الصلت فقالوا: نحنُ نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعرابُ، ويستمعون إلى أشعارهم وأهاجيهم ولذلك فهم الغاوون الذين يتبعونهم(١)، ولما وصفهم بالهيام قال: أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يهِيْمُون" أي لا يعرفون كيف يبدؤن ومتى ينتهون، بحيث وصفهم القرآنُ بالرعونة والتشتت والتشويش الفكري حيثُ يذهبون في شعرهم على غير قصد؛ بل يجورون عن

---

(١) إن ما يفرز هذا الفهم الخاطئ للآية ما روي من أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسا بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنَّا شعراء النبي فتلا النبي " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. راجع تفسير الطبري ج١٩ ص ٧٩.

الحق وطريق الرشاد وقصد السبيل، ولما وصفهم بالكذب قال: وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ" والدليل على ذلك أنهم قد يمدحون شخصاً، وقد يذمونه نفسه لأسباب أغلبها مادية، ولعل قول أفلاطون ينسحب على هذا الصنف الذي يعتبر الشاعر نقطةَ ضعف في الدولة؛ لأنه يثيرُ عواطفَ الناسِ، ويجعلهم في استرخاء بشوهُ الحقيقةَ، ويذهبُ بجمالها.

الآخر الشعراء الصالحون شعراء رسول الله بخاصة: الذين نافحوا عنه، وعن دعوته وأصحابه حتى كُتبَ لهم النصرُ، إذ ذكروا الله، وانتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلماً (لشعرهم وهجائهم إياهم، وإجابتهم عما هجوهم به[1])؛ لذلك كان استثناء المؤمنين الصالحين، وكذلك فعل رسول الله حيثُ تعهد شعراءَ المؤمنين بالرعاية والتشجيع وتوجيه مواهبهم في سبيلِ خدمة الدعوة ونشرها.

على كلِّ حالٍ فالاستدلال تعميمٌ خاطئٌ، وتوجية للآية على غير اتجاهها الصحيح؛ لأن "في كلِّ وادٍ يهيمون" يُقصدُ بها المشركون الذينَ يتبعون غواةَ الناس، ويتخذون من الشعر وسيلةً لنشرِ الأكاذيبِ والأباطيلِ، ولا يتورعون عن قول الفاحش.

عوداً على بدء فإن بعضاً ممن تحدثوا عن الشعر بأن الإسلام هجَّنه، أو أن القرآن بغَّضه للمسلمين، ويستندون إليه للاستدلال على صحة نظرهم، وصدق رأيهم إلى أن صرح بتهجين الشعر، وذمِّ الشعراء[2]، هو – عوداً – افتراءٌ محضٌ، ولغطٌ ينم عن قصور حاصل عن سوء قصدٍ وفهمٍ معاً.

وعلى كلٍّ فإن الشعر – كما قال الرسولُ – ليس معيباً في ذاته، لكنه كلامٌ مؤلفٌ، فما وافقَ الحقَ منه فهو حسنٌ، ومالم يوافقْ الحَقَ منه فلا خيرَ فيه[3] أو كما قال الرسول: "إنما الشعرُ كلامٌ، فمن الكلامِ خبيثٌ وطيبٌ[4]".

(١) انظر: الأدب فى عصر النبوة والراشدين لصلاح الدين الهادي ص٢١٧ نقلاً عن الطبري فى تفسيره ج١٩ص ٨٠ مطبعة الأميرية بولاق ١٣٢٥هـ.

(٢) انظر: العمدة لابن رشيق ج١ ص١.

(٣) انظر: المصدر نفسه ج١ ص٢٧

(٤) راجع: فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ج١٩ ص ١٢٠ دار الثقافة بيروت.

خلاصة الأمر:

بالنظر فيما سبق فإن للقرآن موقفين ينشطران انشطاراً تضادياً بكل مقاصدهما المبطنة؛ **الأول مع الشعر، والآخر مع الشعراء.**

فالموقف الأول: لا وجودي، وذلك لغيبة الطرف الثاني – الشعر الذي تُحدِّدُ – على ضوئه– القيمةُ التفاعليةُ إيجاباً أو سلباً حيثُ إنه لا يوجدُ له ذكرٌ – في القرآن الكريم– خيراً كان أو شراً ..!!

إذن فالقرآن لم يعادِ أوَ يحاربْ الشعر، ذلك الفنُ الذي يصور الوجدان البشري، فيسمو به، ويطهره مَن أدرَان المادية، ويحيل متاعب الحياة، وقسوتها قبساً مَن أقباس الجمال؛ وإنما حارب المنهج الذي صار عليه الشعر والشعراء ومنهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابطَ لها، ومنهج الأحلام المهومه التى تشغلُ أصحابَها عن تحقيقها[1]، ولما "حاربَ الشعَر الجاهلي فإنه حاربَ ما جاء منه مجسداً للقيمِ الجاهليةِ بكل محاسنها ومساوئها"[2] تلك التي نهى عنها الرسولُ (ﷺ) عدا السدانةِ أي حراسةِ البيتِ الحرامِ، وسقايةِ الحجيج في "خطبة الوداع".

أما الموقف الآخر: فهو كائنٌ شمولي وفيه استطاعت التركيبةُ الاستثنائيةُ أن تقدمَ الرؤيةَ الكليةَ، أو المبلغَ الإجماليَّ للشعراء حيث قدمت الشعراءَ وبخاصةِ المشركين مستثنى منه، ثم جاءت الأداة الاستثنائية، والمستثنى بعدها وهم الشعراءُ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا اللهَ كثيراً، وكلُ هذا الأسلوبِ الاستثنائيِّ يترجمُ ترجمةً فعليةً صادقةً الموقفَ الحقيقيّ للقرآنِ الكريم منه.

انظر إلى الشكل التالي فإنه يبرزُ الأسلوبَ الاستثنائيَّ بكلِّ تداعياتهِ ودلالاتهِ وسياقاتهِ المختلفة:

---

(١) انظر: الإسلام والشعر لسامي العاني ص٢٤ نقلاً عن "في ظلال القرآن" لسيد قطب ج١٩ ص١٢٠

(٢) انظر: قراءة فى الأدب الإسلامي والأموي لمحمد عبد العزيز الموافي ط١ ص١٢ دار الثقافة العربية سنة ١٩٩٢م.

المستثنى منه	أداة الاستثناء	المستثنى
(الشعراء وأتباعهم الذين على شاكلتهم وصفاتهم وخصوصاً المشركين الذين تناولوا الرسول (ص) بالهجاء ومسوه بالأذى ونماذج هؤلاء في معسكر الشرك في مكة والطائف كثيرة)	إلاّ	(المؤمنون وصفاتهم شعراء النبي الذين يصدرون شعرهم عن تصور صحيح للمنهج الإسلامي)

من خلال ما سبق فإن الموقف القرآني من الشعراء واضح حيث إنه لم ينفر من الشعر بعامة وكذلك جاء ذمه للشعراء منصباً على الفئة التي ناصبت الرسول (ص)، ودعوته العداء، الذين جعلوا من شعرهم سلاحاً ماضياً يريدون أن يطفئوا بـه نـور الله حيث كانوا يطرقون المعاني المنافية للدعوة أما من عداهم فقد استثناهم القرآن **(إلاَّ الذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللهَ كثيراً)** سورة الشعراء آية (٢٢٧).

ثانياً: موقف القرآن من الشعر:

لعل الناظر المتأمل -في آيات القرآن الكريم- يرى أنها ذكرت الرسول، وموقفه من الشعر في خمسة مواضع هي كالتالي:

١) **(بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ)** سورة الأنبياء آية (٥).

٢) **(ومَا عَلَّمْنَاهُ الشِعْرَ ومَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ. لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حيًا ويَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِين)** يس آية الآيتان (٦٩-٧٠).

٣) **(ويَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ. بَلْ جَاءَ بِالْحَقِ وصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)** سورة الصافات الآيتان (٣٦-٣٧).

٤) **(فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رِبِكَ بِكَاهِنٍ ولا مجْنُونٍ. أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)** سورة الطور الآيات (٢٩-٣١)

٥) **(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. ومَا لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ومَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ)** سورة الحاقة الآيات من (٣٨-٤١).

بالنظر إلى الآية **الأولى** فإنها تقدم أخباراً عن تعنت الكفار، وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه..... فتارة يجعلوه سحراً، وتـــارةً يجعلونه شعراً، وأحياناً يجعلونه مفترى، وعجباً على ما صاروا إليه.

وبالنظر إلى **الثانية** فإن الله تعالى يقول مخبراً عن نبيه محمد (ص) إنه ما علَّمه الشعرَ وما هو في طبعه، فلا يحسنُه ولا يحبُّه، ولا تقتضيه جبلته؛ ولهذا ورد أنه (ص) كان لا يحفظ بيتاً على وزنٍ منتظم؛ بل إنْ أنشدَهُ زحَّفَهُ، أو لم يتمه هذا مـــن جانـــب... على الجانب الآخر فإن الآية السابقة كانت أولَ تفرقةٍ بين إيقاعٍ وموسيقى الشعرِ وإيقاعِ وموسيقى القرآنِ الكريم، وهنا نفى الله عن رسوله الكهانة والجنون والسحر والشـــعر، وأثبت له النبوة والوحي.

وننتقل إلى **الثالثة** التي تقول: أنحن نترك عبادة آلهتنا، وآلهة أبنائنا عن قول هذا الشاعر المجنون -يعنون الرسول (ص) -فيرد عليهم الله تبارك وتعالى- مكذباً ومسفهاً ظنهم قائلاً: "لكنّ رسولَ اللهِ جاءَ بالحقِّ في جميع ما شرعه الله تعالى له من الأخبـــار والطلب.

أما في **الرابعة** فإن الله تعالى يقول – آمراً رسوله- بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكِّرهم بما أنزل الله عليه ثم نفي عنه ما يرميه به أهلُ البهتانِ والفجورِ بقوله: إنني لست بكاهنٍ كما تزعمُ الجهلةُ – كفارُ قريش.......

وأخيراً فإن الآية **الخامسة** تنفي صفة الشعر عن الرسول (ص) مؤكدة أن القرآن لم يتعرض للشعر بخيرٍ أو شرٍّ، ولم يذكر لفظ الشعر إلا في آيةٍ واحدة.

والواضح أن الآيات – في مجملها يجمع بينها خيطٌ موضوعيٌّ واحدٌ وهو اتهـــام المشركين للرسول بقول الشعر هذا من جانب ..... على جانب آخر فإنها تنفـــي عـــن النبي أن يكون شاعراً، أو تعلمَ حرفةَ الشعرِ، وإنما هو رسولٌ يجئ بشئ غيرِ الشـــعر، ولغرض آخر غير ما يجئ الشعر من أجله، وهو الرسالة أو التبليغ عن ربه وليس مـــن

العسير تعليلُ ما مضى؛ لأن العرب كانوا يظنون بعقول الشعراء الظنون، فيعتقـدون – أحياناً– أن بهم ما يشبه الجنون **(ويَقُولُونَ أئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)** أو أن بهم مساً من الجنّ، أو أن بعض الشياطين يوحون إليهم بما يجري على ألسنتهم من شـعر، وتلك الأقوال– لو لصقت بالرسول صفة الشاعر لجديرةٌ بأن تنـاقض معنـى الرسـالة والوحي، فضلاً عن أن كثيراً من الشعراء في الجاهلية– قد عرفوا بمسلك خلقيٍّ يتسمُ بكثير من الإسراف في اللهو والإقبال على الملذات المادية من خمر وميسر، وغير ذلـك حتـى برئت بعض القبائل من مثل هؤلاء الشعراء[١] أمثال طرفة الذي عرضنا له حديثاً سابقاً.

من هنا فإن دليلاً واحداً لا يستطاع تقديمُه على أن القرآن اتخذ موقفاً خاصاً ضد الشعر، وإنما نفي عن النبـي (ﷺ) المـرةَ تلـوَ الأخـرى أن يكـون شـاعراً مـن الشعراء وبالتالي تكون رسالتُه كرسالتهم، ثم إن تشبيهَ مشركي قريش النبـي بالشـاعر ذاك التقليد الجاهلي واستنكار القرآن له يخشى أن يجعلهم ينظـرون للرسـول نظـرةً ترجعهم لعصرٍ وثنيٍّ ذهبَ بكل تبعاته، أو دفن بأشلائه بمقابر الجاهلية.

فالقرآن –إذن– لم يهاجمْ الشعراءَ بل هاجمَ المشركين الذين يهجـون الرسـولَ، ويثبطون عنه دعوته، كما هاجم شعراً كان يؤذي الرسول (ﷺ) كما ذكرنا آنفاً.

ثانياً: موقف الرسول من الشعر:

مما لا شك فيه أن الرسولَ (ﷺ) أثنى على الشعر الجيدِ المنضبط بشروط المنهج الإسلاميِّ وحدوده، وشجع الشعراءَ الذين يصدرون شعرَهم عن تصورٍ صحيحٍ للمـنهج الإسلاميِّ القويم، وكان منزهاً عن قول الشعر، لا كارهاً له، كما يزعم بعضُ الدارسين الذين يأخذون قولَهُ "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً" علـى أنّ حقيقةَ أمر الحديث تظهرُ – بوضوح – من رواية أبي سعيد الخدري، ومفادها "بينا نحنُ نسيرُ مع رسول الله (ﷺ) إذا عرض شاعرٌ ينشدُ فقال رسول الله (ﷺ): "خذوا الشيطانُ، أو أمسكوا الشيطان، لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خيراً له أن يمتلئ شعراً"[٢].

---

(١) انظر: في الشعر الإسلامي والأموي لعبد القادر ص٧ دار المعارف سنة ١٩٩٥م.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام ق١ ص٢٧٠

فالواضح أن الرسول – هنا – يقفُ موقفَ العداء تجاه شاعرٍ بعينه، وقد تجاوز حـــدود المنهج الإسلامي بأن شغله شعره عن ذكر الله، وتلاوة القرآن الكريم، وطاعة الله جـــلّ وعلا"، وعلى "من أقبل على الشعرِ القبيحِ المتضمنِ للكذبِ والباطـــل؛ كـــذكرِ الخمـــر، ومحاسنِ النساءِ الأجنبياتِ ونحو ذلك"[1].

عوداً على بدءٍ فإن سببَ تنزيه الرسولِ عن قول الشعر ما ذكره السيوطي: "إن علماء العروض مجمعون على أنه لا فرقَ بين صناعة العروض، وصناعة الإيقـــاع إلا أن صناعة الإيقاع تقسيمُ الزمانِ بالنغم، وصناعة العروض تقســـيمُ الكـــلام بـــالحروف المسموعة فلما كان الشعر ذا ميزانٍ يناسبُ الإيقاعَ، والإيقاعُ ضربٌ من الملاهـــي لـــم يصلح ذلك لرسول الله (ﷺ)، وقد قال رسول الله (ﷺ) ما أنا من ددٍ ولا الددُ مني[2].

يؤكدُ ما ذهبنا إليه أنه حين اتهمت قريشٌ رسولَ الله (ﷺ) بالكهانة والســـحر ردَّ عليهم الوليدُ بنُ المغيرةِ فقال: والله ما هو بكاهنٍ، فقد رأينا الكهانَ، فما هـــو بزمزمـــة الكاهن، ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون قال: ما هو بمجنون، لقـــد رأينـــا الجنـــون، وعرفناه فما هو بخنقة ولا بخالجه ولا وسوسته قالوا: فنقول شاعر قال: فما هو بشاعرٍ، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهرجه، قريضه ومقبوضه وبسيطه فما هو بالشعر!![3]

لكن القرآن قد رد عليهم رداً مفحماً قوياً "**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَـــاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ**" سورة الحاقة الآيتان (٤٠-٤١).

من هنا فلا شذوذَ أو غرابةَ أن ينشدَ الشعرَ على نحوٍ غيرِ موزونٍ... هذا ولقـــد علل الرافعي ذلك بقوله: كانَ الرسولُ (ﷺ) في حقيقةِ الأمرِ لا يهتدى إلى إقامـــةِ وزنِ

---

(١) راجع: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، ج٦، ص٣٩٠، عالم الكتب بيروت.

(٢) انظر: المزهر في علوم اللغة للسيوطي ج٢ ص٤٧٠ دار إحياء الكتب وفي رواية "ما أنا مـــن ددا ولا دداً مني" وراجع لسان العرب مادة (دد) حيث إن الدد والددن والديدان كله اللهو واللعب.

(٣) انظر: صحيح البخاري "باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر" ج١ ص١٠٩.

الشعرِ، فإذا هو تمثل بيتاً منه؛ فإنه يكسرُه ويتمثلُ البيت[1] نذكر على سبيل المثال إنشاده بيتَ طرفةَ بن العبد كالتالي:

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيكَ منْ لمْ تزوّدِ بالأخبارِ

وأصل الشطر الثاني: ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تزوَّدِ حيثُ خالف بـذلك (عليـه السلام) حَفَظَةَ الشعر، ورواته الذين حرصوا على روايةِ الأشعارِ مستقيمةَ أوزانُها، ومكتملةً معانيها وأفكارُها.

والرسول ارتضى ما ارتضاه القرآن، ولم يتضمنْ ما يتنافى مع روحِ الإسـلامِ وتعاليمهِ السمحة، وآدابه الكريمة؛ لذا فلقد تمثَّل بكلِّ ما وافقَ الحقَّ، وعضدَه بقوةٍ مـن الأشعار الجاهلية، وغيرِ الجاهليةِ.

إن ما يلخصُ موقفَ الرسولِ من الشعر قولُهُ "إنما الشعرُ كلامٌ مؤلفٌ، فما وافق الحق منه فهو حسنٌ......" كما شجع على قول الشعر فقال "الشعرُ كـلامٌ مـن كـلامِ العرب، جزلٌ تتكلمُ به في بواديها، وتسلُّ به الضغائنَ من بينهما"[2] كما قـال "لا تـدعُ العربُ الشِعرَ حتى تدعَ الإبلُ الحنينَ"

ويروي لنا ابنُ قتيبةَ حكايةَ بجير وكعب ابني زهير، وإهـدار النبـي (ص) دم كعب؛ لأنه هجاه بشعره فلما بلغ ذلك النبي (ص) فتواعدهُ فبعث إليه بجيرٌ، فأتى بجيـرُ النبي (ص) فأسلم فكتب إليه كعبُ معيّراً إيّاه بإسلامِه وقد ذكر الرسولُ متجـاوزَ الأدب ومتهكماً على الرسالة

ألا أبلغا عنّي بُجَيراً رسالةً ... فهلْ لك فيما قلت بالخيفِ هلْ لكَا
سقيت بكأسٍ عندَ آل محمد ... فانهلكَ المأمـونُ منــه وعلَّكَـا
فخالفت أسبابَ الهدى واتّبعتَهُ ... على أن شيئاً ويْبَ غيـركَ دَلَّكَـا

---

(١) انظر: العمدة لابن رشيق ج١ ص٢٨.
(٢) انظر: الشعر والشعراء ط٢ ص ٨٠-٨١

فكتب بجير إلى كعب يخبره بأن رسول الله قتل رجلاً ممن كان يهجوه، وأنه لم يُبْقِ من الشعراء الذين كانوا يؤذونه إلا " ابن الزبعرى السهمي" و"هبيرة بن أبي وهب المخزومى" وقد هربا منه فإن كانت لك فى نفسك حاجة فأقدم عليه فإنه لا يقتل أحدًا أتاه وإنْ أنتَ لم تفعلْ فانجُ بنفسك.. فقدم على رسول الله متنكراً فبدأ بأبي بكر، فلما سلم النبي (ص) من صلاة الصبح جاء به- وهو متلثمٌ بعمامته فقال: يا رسول الله هذا رجلٌ جاء يبايعك على الإسلام، فبسط النبيُّ يده، فحسر كعبٌ عن وجهه، وقال: بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ الله، أنا كعب بن زهير فتجهمته الأنصار، وغلَّظت له لذكراه قبل ذلك رسول الله (ص) وأحبت المهاجرة أن يسلم ويؤمِّنَهُ النبي (ص) فأمنه واستنشده:

بانَتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ مُتَيَّمٌ إثْرها لم يُجزَ مَكبُولُ

حتى بلغ قوله:

إنَّ الرسولَ لنورٌ يستَضاءُ به مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ

في عُصبةٍ من قريشٍ قال قائلُهم ببطنِ مكةَ لما أسلمُوا: زُولُوا

فنظر الرسول (ص) لغلظتهم عليه فأنكرت قريش عليه، وقالوا: لم يمدحنا إذ هجوتهم، ولم يسر عن الأنصار غضبهم، ولم ينل رضى المهاجرين عنه إلا حيث مدح الأنصار بقصيدته التي قال فيها:

من سرّه كرمُ الحياةِ فلا يزلْ فى مقنبٍ من صالحِ الأنصار

كذلك فلقد مدح المهاجرين في موضع آخر، فكساه النبى (ص) بردة اشتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم وهي التي يلبسها الخلفاء في العيدين منذ أيام أن عُيِّن عثمان بن عفان[1].

فالرواية السابقة تلك التي أُثِرتَ عن رسول الله (ص) تسجل موقفاً إيجابياً له حيث يظهر فيها إعجابه قولاً، وذلك بتنبيهه أصحابه إلى بعض المقاطع التى كان ينشدها

---

(١) انظر: إعجاز القرآن ص ٢٣٩.

كعب فضلاً عن أن هداية الناس مقدمةٌ على معاقبتهم، وإما فعلاً فلأنه خلع عليه بردتـــه بعد الانتهاء من القصيدة[1] وقد ظلَّ يبتسمُ في ثنايا الاستماع.

وهكذا نراه قد أعطى وأوفى المنح، أو العطاء خدمةً للدولة الجديدة التي أرســـى دعائمها الرسول (ﷺ) حيث كان يهدفُ إلى ربطِ مقولات الشاعر بخدمة الدولة؛ لـــذلك فضّل (ﷺ) قتل بعض الشعراء الهجّائين فى حين أبقى على حياة كعب بن زهيـــر بعـــدَ توبته ودخوله إلى حرم الدولةِ الجديدة هذا على جانب ...

على الجانب الآخر فإن هذه الحكايةَ تدلُّ بدءًا على روحِ الانضباط والحسم فـــي مواجهة أعداء النبي الذين كانوا يهجونه – فى بادئ الأمر –؛ وانتهاءً تدلُّ علـــى روح السماحةِ وروعة الصفح، وسمو العفو الذي استقبل به (ﷺ) كعباً وهو تائبُ نادمٌ. فلمـــا ورد عليه الكتاب (كعب)، أرجف به من كان بحضرته من عدوه لما قال قصيدته[2] التي سبق أن ذكرنا مقدمتها وبعضاً منها.

ونتساءل عن معرفة الشعراء **بإعجاب الرسول** (ﷺ) بالشعر فنقول: لقد دافعوا عنه بكلِّ شدةٍ، وهم لا يعرفون – بداية– أن الحق بجانبهم، فقد روي أنه بينما كان حسان بـــن ثابت ينشد الشعرَ في مسجد الرسول (ﷺ) فجاء عمر فقال: يا حسانُ تنشـــد شـــعرك فـــي مسجد رسول الله (ﷺ) فرد عليه حسان بقوله: أنشدتُ فيه، وفيه من هو خير منك[3]"

وكان الرسول (ﷺ) يقول: إن هذا الشعر سجع من كلام العـــرب، بـــه يعطـــى السائل، وبه يكظم الغيظ، وبه يؤتى القوم فى ناديهم"[4]

كذلك فإن ما روته عائشة رضى الله عنها من أنه بنى لحسان بن ثابت من منبراً ينشدُ عليه الشعر وأنه حين دخلَ مكةَ معتمراً (عمرة القضاء ٧هـ) قدمَ بين يديه عبـــد الله بن رَوَاحة فأخذ بخطام ناقة مرتجزاً بأبيات منها:

خَلُّوا بني الكفارِ عـــن ســـبيلِه ... خَلُّوا فكلُّ الخيـــرِ مـــع رســـوله
يا ربـــي إنِّـــي مـــؤمنٌ بقيلِـــهِ ... أعـــرفُ حـــقَّ الله فـــى قبولـــهِ

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء ج١ ص٩٩.
(٢) انظر: الشعر العربي من منظور حضاري للدكتور مدحت الجيار، ط١، ص١٨٧.
(٣) انظر: العمدة ج١ ص ٢٨.
(٤) انظر: العمدة ج١ ص ٢١

فقال عمر: يا بن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله!! (يعنـي الشـعر).

فقال رسول الله (ص): "خلّ عنه يا عمرُ، فلهو أسرعُ فيهم من نضحِ النّبل[١].

وها هو الرسولُ (ص) يقول –للعـلاء بـن الحصـين وقـد جـاءه يومـاً – هل تروي من الشعر شيئاً؟ .. فأنشدهُ[٢]:

وحَيِّ ذَوي الأضغانِ تَسْبِ عقُولَهم — تحيتك الحُسنى فقد ترفع النَّغَـلْ

فإن دحسوا بالكُره فـاعفُ تُكرُمـا — وإنْ خَبَسوا منك الحديثَ فلا تَسلْ

فإنَّ الذي يؤذيـك منـهُ سـماعهُ — وإن الذى قالوا وراءك لم يُقَـلْ.

فلما سمع هذا الشعر قال قولته المشهورة "إن من الشعر لحكمة"

هذا ولم يجئ الإعجابُ من فراغ، بل اتكأ على خلفية ناصعة، وعلم غزير بالشعر؛ لأن الله –كما سبق أن قلنا– قد خصّهُ بعرقٍ من الفصاحة عريق، وسببٍ مـن أسـباب البلاغة عتيقٍ حتى إنه كان يطربُ للكلمة العذبة والبيانِ الجميل، ومن ذلك ما ورد مـن أنه قال: "كان يحضر مع لداته سوق عطاظ ليسمع الشعر"[٣] كذلك ورد أنه –صـلى الله عليه وسلم– كان يتوقُ إلى معرفةِ كيفيةِ جريانِ الشعرِ على لسانِ الشاعر، ومن ذلك أنه سأل ابن رواحة قائلاً له:ما الشعر؟! فأجابه ابن رواحة بقوله: "شئٌ يختلج فى صـدر الرجل؛ فيخرجه على لسانه شعراً"[٤]؛ ولذا رُوي أن سودة أنشدت "عُدّي وتيم" تبتغي من تحالف" فظنت عائشةُ وحفصةُ –رضي الله عنهما– أنها عرضت بهما، وجري بيـنهن كلامٌ في هذا المعنى فأخبر النبي (ص) فدخل عليهما وقال: يا ويلكن! ليس في عـديكن ولا تيمكن قيل هذا وإنما قيل هذا في عديِّ تميم وتميم، تميم، وتمام هذا الشعر:

فحَالفْ ولا والله تهـبطُ تَلْعَـةً — من الأرضِ إلاَّ أنتَ للذّلِ عـارفُ

ألا مَنْ رأى العبدين أو ذُكرَا له — عُديٌّ وتيمٌ تبتغي مَـنْ تُحَـالفُ

---

(١) انظر: المصدر نفسه ج١ ص ٢٢٣

(٢) انظر: العمدة ج١ ص١٧. النغل: الحقد والكراهية دحسوا بالكره: أظهروه

(٣) انظر: الأغاني ج٩ ص ١٧

(٤) انظر: شرح شواهد المغني للسيوطي ج١ ص٢٩٣ الخانجي بمصر

كذلك حدث أبو الفرج الأصفهاني عن أنس بن مالك قال[1]: "جلسَ رسـولُ الله (ص) في مجلسٍ فيه ليسَ إلاَّ خزرجي، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطـيم (وهـو شاعرُ الأوس) يعني القصيدة التي مطلعها:

أتعرفُ رسماً كاطِّرادِ المـذاهب لعمْرةِ وحشاً غَيْرَ مَوقِفِ راكـب

فأنشده بعضهم إياهم حتى بلغ إلي قوله:

أُجالدُهُم يَومَ الحديقــة حاسـراً كأنّ يدي بالسَّيفِ مخْراقُ لاعـب

فالتفت إليهم رسولُ الله فقال: هل كان كما ذكر؟ فشهد له ثابتُ بـن قـيس بـن شماس وقال له: والذي بعثكَ بالحقِّ يا رسولَ الله، لقد خرجَ إلينا يومَ سـابعِ عرسـه .. فجالدنا كما ذكر[2].

على أنّ **علم رسول الله (ص) يرجع لارتياحه، أو رغبته في سماعة (ص) للشعر** واستحسانه له، فقد جاء عن النابغة الجعدى أنه قال: أنشدت رسول الله (ص) قولي:

بلَغْنا السماءَ مجداً وجوداً وسؤددا وإنَّا لنرجو فوقَ ذلـك مَظْهَـرَا

فقال النبيُّ (ص) أينَ المظهرُ يا أبا ليلى؟ قلت إلى الجنةَ يـا رسـولَ اللهِ ..!!! قال: "أجل إن شاءَ اللهُ، ثم قال: "أنشدني" فأنشدته من قولي:

ولا خيرَ في حلْمٍ إذا لَمْ تكنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَـفْوَه أنْ يُكـدَّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يَكُنْ له حَليمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأَمْرَ أصْـدَرَا

فقال (ص) أجدتَ لا يفضضِ الله فاك – قال الراوي: فنظرت إليه كـأن البـرد المنهل، ما سقطت له سنٌ ولا انفلت ترف غروبه[3].

فهذا القول وأمثاله قمينٌ أن يدحضَ أيَّ ادعاء، أو افتراء يفضي إلى أنه (ص) لم يكن يحبُّ الشعر؛ لكنه دفعَ الشعراءَ إلى قوله، شريطةَ أن يتمسكوا بالجانبَ الأخلاقـيِّ

---

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء، ج١، ص٢١٩، مطبعة المدنى بالقاهرة، ١٩٧٤.
المخراق: منديل يلف ليضرب به.
(٢) انظر: الأغانى ج٣ ص٧ طبعة دار الكتب
(٣) انظر: زهر الآداب ج١ ص ٥٦١.

الذي أمر به الدينُ، بحيثُ يوافقُ الحقَّ، ويعلى من القيمِ الروحيةِ والاجتماعيةِ السامية، ويجافى الباطل، أما إذا ثبت عن الرسول (ص) ما يفيد كره الشعر فإن ذلك مرده إلى الشعر الذي يخرج عن حدود الأدب والخلق الكريم[1]؛ لأن هذا يتنافى -جملة- مع دعوته التي كُلِّف بتأدية رسالتها على الوجه الأكمل.

إنه ومن ناقله القول أن يدفع **علمُ الرسول (ص) وارتياحُه واستحسانه للشعر** إلى شدةّ تأثر نفسه الشريفة لما ينطوى عليه الشعر من عاطفة؛ لذا فلقد كان يهتز له، وينفعلُ به ويتذوقه ويتأثر به وآية ذلك ما يروى من أن قتيلة بنت الحارث بن النضر من بني عبد الدار من قريش- وهو يطوف بالكعبة فاستوقفته وكان قد أمر علياً بن أبي طالب بقتل أخيها- بعد أن أُسِرَ وذلك بعد انتهائه من معركة بدر - فقالت ترثي أخاها النضر بن الحارث الذي حرَّض على قتل النبي والمسلمين في مكة وقد آذاهم بلسانه وشعره حيث نذكر منها هذه الأبيات:

يا راكباً إنَّ الأُثيلَ مظنَّةٌ — من صُبحِ خامسةٍ وأنتَ مُوفَّقُ
أَبلِغْ به ميْتاً بأَنَّ تحيَّةً — ما إن تزَالَ بها النجائبُ تَخْفِقُ
منِّي إليكَ وعَبْرةً مَسْفُوحةً — جادتْ بدرَّتها وأخرى تَخْنَقُ
فيسمعنَّ النَّضْرُ إن ناديتَه — أمْ كيف يسمع ميِّت لا ينطقُ
ظلَّت سيوفُ بني أَبيهِ تَنُوشُهُ — لله أرحامُ هناك تُشَقَّقُ
قَسْراً يُقادُ إلى المنيةِ متعباً — رسف المُقيَّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ
أمحمدُ وأنتَ نسلُ نجيبةٍ — في قومِها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضرَّك لو مننتَ وربما — منَّ الفتى وهْوَ المغيْظُ المُحنَقُ
أو كنتَ قابلَ فِدْيةٍ فلنأتِينْ — بأعزِّ ما يغلُو لديكَ وينْفَقٌ.

---

(1) انظر: العمدة لابن رشيق ج1 ص 27- 32.

فلما سمع الرسول (ص) قول قتيلة السابق – وقد تأثر بهذا العتاب الحزين الباكي قال:– لو سمعتُ هذا قبلَ أن أقتلَهُ ما قتلته[(١)]

فالأبيات – بما تحملُ من عتابٍ حزينٍ بحيثُ استخدمتْ فيه الشــاعرةُ الألفــاظَ الباكيةَ، والصورَ، الملتاعةَ والمعانيَ الحانيةَ – استحوذت على مشاعرِ رسولِ الله (ص) وهذا يدلُّ كلَّ الدلالةِ على رهافةِ إحساسهِ، ورقةِ مشاعره وروعــةِ ردِّ الفعــلِ نتيجــةَ التفاعلِ مع كيميائيةِ الأبياتِ.

وعلى كل فإن مثل هذه الآراء الناقدة قد صدرت عن علمٍ ودرايةٍ، وشــدة تــأثرٍ بالشعر حيثُ ورد إن رسول الله لما كان يشتركُ في الاستماع إلى الشعر فإنه كان يبدي رأيه في بعض ألفاظه، وما تحمله من معانٍ.

وكما كان الشعرُ سبيلاً للاعتذار للرسول فقد جاء وسيلة للاستنجاد به وهنا نجد الرسول يهب للنجدة منفعلاً أشد الانفعال من ذلك رُوي أن عمرو بن سالم الخزاعي الذي قدم على الرسول– وكانت خزاعة في حلفه فاعتدت عليها قريش مستنصراً، فقال[(٢)]:

يــا ربِّ إنــي ناشــدٌ محمــداً … حلْــفَ أبينَــا وأبيــه الأتْلَــدا
قدْ كنــتُم ولــداً وكنَّــا والــداً … ثُمَّتَ أســلمنا فلــم ننْــزِعْ يَــدا
فانصرْ هداك اللهُ نصراً أعتــدا … وادْعُ عبــادَ الله يــأتوا مَــدَدَا
فيهم رســولُ الله قــد تجــرَّدا … إنْ سيمَ خَسْــفاً وجهــهُ تَرَبَّــدا
إنّ قريشــاً أخْلَفــوك المَوعــدا … ونقضــوا ميثاقَــك المؤكَّــدا
وزعمُوا أنْ لستَ أدْعوا أحَــدا … وهـــم أذلُّ وأقـــلُّ عـــددا
هُــمْ بَيَّتُونــا بــالوتيرِ هُجّــدا … وقتلونـــا رُكعـــاً وسُـــجّدا

---

(١) انظر: العمدة ج١ ص٥٦ والأغانى ج١ ص٩ والعمدة ج١ ص٣٠ والبيان والتبين للجاحظ ج٤ ص ٤٥ حيث ذكر أن الشاعرة هى ليلى بنت النضر وليست قتيلة هذا ولقد ذكر الــدكتور صــلاح الــدين الهادي أن الذي قُتِلَ أبوها وليس أخاها...... راجع: الأدب فى عصر النبوة والراشــدين ط٣ ص ٢٢٤ مكتبة الخانجي. هذا ويذكر بن سلام الجمحى رواية ابن جعدية ومفادها: "أنه مات بســبب جرح أضناه، حتى عاف الطعام والشراب، ثم عضد ابن سلام ما ذهب إليه برواية أخرى تفيد بأن الرسول (ص) لم يقتل أحداً صبراً بعد (بدر) إلا عقبة بن أبي المعيط......" راجع طبقات فحــول الشعراء ص ١٠٠، ١٠١ طبعة دار الكتب العلمية بيروت

(٢) انظر: جمهرة أشعار العرب ج١٦ ص ١٧ الوتير: اسم ماء بأسفل مكة كان لخزاعة.

فما إن سمع الرسول هذا الشعر حتى دمعت عيناه، وقال: (نُصِرتَ يا عمرو بن سالم)

لقد روى أن النبي (ص) خرج على كعب بن مالك الأنصاري، وهو في مسجد الرسول (ص) ينشد الشعر، فلما رآه كأنه انقبض، فقال: ما كنتم فيه؟ فقال كعب: كنتُ أنشد فقال الرسول: فأنشد ...... حتى أتى على قوله "مقاتلُنا عن جِذْمِنا كلّ فخمه فقال الرسول (ص): لا تقلْ عن جذِمنا، ولكن قل: "مقاتِلنا عن ديننا" إذا أن الدفاعَ صارَ قاصراً على الدين لا غير[1].

هذا ولم يكتفِ (ص) بالاستماع إلى مَنْ جاءَ ينشدُهُ، بل إنه **كان يستنشدُ الشعراءَ وغيرهم** إذ كان يتذوقُ الشعرَ، ويحفظُه ويرويه بلسانه، وكان - أيضاً - يطلب من يرويه؛ ليصَحح خطأَ المخطئ، وعلى كلٍّ فلقد كان يرتاحُ ويظهر ارتياحَه للشعر الذي يفيضُ بالخير، ويدعو إلى المحامد والفضائلِ الساميةِ، وينهى عن المقابحِ أو الرذائلِ.

وأمَّا استنشاده[2] إيَّاه فكثيرٌ نذكرُ ما جاءَ عن الشعبي (رضي الله عنه) عن عبد الله أنه قال: لما نظر رسولُ اللهِ (ص) إلى القتلى "يوم بدر" مصرعين؛ قال (ص): لو أن أبا طالبٍ حيٌّ لعلم أنٍ أسيافنا قد أخذت بالأناملِ "قال وذلك لقول أبي طالب:

كذَّبتُمْ وبيتِ اللهِ جِدَّما أرَى — لتلتَبسَنْ أسيافُنَا بالأناملِ

وينهضُ قومٌ في الدروعِ إليهمُ — نُهوضَ الرَّوَايا في طريقِ حُلالِ

كذلكِ أوردت كتبُ الأدبِ بيتين من الشعر كانت ترددهما عائشةُ (رضي الله عنها) فسمعَ رسولُ اللهِ (ص) عائشةَ (رضي الله عنها) وهي تتمثل بالبيتين وهما لزهير ابن جناب الكلبي يقول فيهما[3]:

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلافة للنبوي شعلان ص١٧٩ نقلاً عن الأغاني ج١٦ ص ٢٣٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٨٠ نقلاً عن دلائل الإعجاز ص ٣٨ هذا ويبدو أن الصحيح "حلائل" أو "جلاجل" بدلاً من "حلال" حتى يستقيم الوزن مع نغمة البحر.

(٣) راجع: أشعار بني حمير وأخبارها في الجاهلية والإسلام "جمع وتحقيق ودراسة" للمؤلف ط ١ص ٢٣٠ مطبعة الضوي سنة ١٩٩٩م

ارفعْ ضعيفَكَ لا يجزيكَ ضَـعَفُه	**يوماً فتدْرِكُهُ عواقبُ مـا جنَـى**
يُجزيكَ أو يُثني عليكَ وإنَّ مَـنْ	**أثْنَى عليكَ بما فعلْتَ كَمَنْ جَـزَى**

فكان يقول: كيف الشعر الذي كنت تتمثلين به فإذا أنشدته إياه قال: يا عائشـة لا يشكرُ اللهَ مَنْ لا يشكر الناسَ(١).

وعائشة رضي الله عنها كانت **تُحثَّ على طلب الشعر، وتعلم روايته** ومما كانت تقوله في ذلك الصدد "رووا أولادكم الشعرَ تعذبْ ألسنتكم"(٢).

وهل يمكننا أن نغفلَ **تقديرَ الرسولِ للشعرِ** وإدراكه تأثيره في نفـوسِ العـربِ، وهو الذي قَبِلَ مفاخرةَ وفدِ بني تميم -في ميدان الشعر-، فأذن لحسانٍ في الـردِّ علـى شاعرهم فلما سمعوا قول حسان أعجبهم، ورأوا في تفوقهم -على شاعرهم- وجهاً مـن وجوهِ التوفيقِ الإلهيِّ للنبيِّ فقالوا: إن هذا الرجلَ لمُؤتى له أي لشاعرُهُ أشعرُ من شاعرنا(٣).

عوداً على بدءٍ فإن ما رواه الأصفهانى أنه (ﷺ) طلب من عكرمةَ بن عباس أن ينشدهُ شعراً لأميةَ بن أبى الصلت فأنشده قوله:

الحمـدُ للهِ مُمْسـانا ومُصـبحُنا	**بالخيرِ صـبَّحَنا ربّـي ومسَّـانا**
ربُّ الحنيفَةِ لـم تَنْفَـدْ خزائنُهـا	**مملُوءة طبَّـقَ الآفـاقَ سُـلطانا**
ألا نبـيٌّ لنـا منَّـا فيخبرُنـا	**ما بعد غايتنا من رأسِ مَحْيانـا**
بينـا يُرَبِّبُنـا آباؤُنـا هَلكُـوا	**وبينمـا نَقتنـي الأولادَ أفنانـا**
وقد علِمْنا لو أنَّ العلـمَ ينفعُنـا	**أنْ سوف يلحقُ أُخرانا بأُولانـا**
وقد عجِبتُ وما بالموتِ من عجبٍ	**ما بَالُ أحيائنا يَبْكُـونَ موتانـا!!**

حيثُ **عبَّر الرسولُ عن إعجابه بهذا الشعرِ لصدقه** بقوله: إن كادَ أميةُ ليسلم(٤).

---

(١) انظر: شعر بنى حمير وأخبارها فى الجاهلية وصدر الإسلام للمؤلف ط١ ص١٥٥. حيث جاء الشـطر الثاني من البيت الأول برواية: .. عواقب ما نمى.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام ق٢ ص ٥٦٠.

(٣) انظر: الأدب فى عصر النبوة والراشدين لصلاح الدين الهادي ط٣ ص مكتبة الخانجي.

(٤) انظر: ديوان أمية ص٤٦، وفي الأدب في عصر النبوة والراشدين لصلاح الدين الهادي ص ٢٢١ جاء الخبر برواية أخرى وهى إنه كان ليسلم فى شعره، وقيل "أمن شعره وكفر قلبه" لقصة مفادها أن عمراً بن الشديد قال: ردفت النبى (ص) هل معك شعر أمية بن أبى الصلت.

ورأيُ الرسول (ﷺ) هنا صائبٌ؛ لأن الناظرَ للأبيات – بعين التذوق والنقد – يرى أنها تتضمنُ قيماً توحيديةً جُلَّى متمثلةً في قدرةِ اللهِ سبحانه، وعظمته في خلقِ السمواتِ والأرضِ، واختلافِ الليلِ والنهارِ والملائكة، فهو ربُّ الدينِ الحنيف، الذي يدعو الناسَ إلى التدبرِ والتفكرِ في مجيئنا لهذه الدنيا التي نحيا فيها، ونموتُ دون أن يكونَ لنا أيُّ هدفٍ فيها؛ لذا فإن الشاعرَ يتمنى مجئ نبيٍّ بدينٍ جديد؛ ليبصِّرَ الناس بما غابَ عنهم، ويذكرَهم بيومِ الحساب....

إنه لما سمع النبيُّ – عليه السلام – قول لبيد بن ربيعة العامري:–

ألاَ كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

قال: "أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لبيد، وأوردَ الشطرَ الأول[1].

وأنشد (ﷺ) قول عنترة الذي كان يقول عنه: "إنه يدعو إلى مكارمِ الأخلاق".

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلُّهُ حتَّى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فقال: "ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنتره؛[2] لأن هذا البيتَ يصير مضربَ المثل، ويحضُّ على القوةِ والصبرِ، إذ يتشبهُ الشاعر بالأسدِ الجائعِ الذي يصرُّ على جوعه على الرغم من وجود الجيفِ بالصحراء،..... وشتان بين ما سبقَ وما جاء من تعليقاته (ﷺ) على شعر امرىءالقيس حيثُ روى ابن قتيبة أن قوماً فرُّوا من مأزقٍ شديدِ الحرجِ بسبب بيتين من الشعر لامرىء القيس؛ فلما نجوا –وقد بلغوا النبيَّ (ﷺ)– قال (ﷺ): ذاك رجلٌ مذكورٌ في الدنيا، شريفٌ فيها، منسيٌّ في الآخرة، خاملٌ فيها، يجئ يوم القيامة، معه لواء الشعراء إلى النار[3]؛ لأن المتتبع لمعلقة امرئ

---

(١) راجع: صحيح الأعشى للقلقشندي ص٦١.

(٢) راجع: الأغاني ج٨ ص٢٤٣ دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٣م.

(٣) يقصد النبى (ص) بلواء الشعراء: المشابهون لامرئ القيس، وليس مجمل الشعراء؛ لأن مواقف النبى (ص) من شعر عنترة، ثم من شعر الخنساء، نقيضةٌ لهذا الموقف، راجع: الشعر العربي من منظور حضاري لمدحت الجيار، ط١، ص١٨٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٠م.

القيس، يجدها مليئةً بالمغامرات المتتاليات مع المعشوقات، وهي مغـــامراتٌ متنوعـــةٌ، ومليئة بالمجازفة حتى ينتهي بموقفٍ يائسٍ من الحياة ومتشائمٍ منها.

وانطلاقاً من إيمانِ الرسولِ بقيمةِ **الشعرِ الفعنية وأثرها الكبيرِ** في نفوس العرب اتخذ منهُ -ومن رجاله- حماةً للعقيدة بحيثُ يصرعون المتآمرين عليها، والمشركين بها فكانوا بألسنتهم -مع فوارس الإسلام، وسيوفهم- جنباً إلى جنبٍ.

لقد كان من فرسان هذه الحلبةِ حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبـــدَ الله بـــن رواحه حيث طلب الرسول(ص) شعرهم دفاعاً عن الإسلام. ولما هاجر الرســـول(ص) من مكةَ إلى المدينة، واشتدَّ هجاءُ عبد الله الزبعري، وضرار بن الخطاب، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص للرسول وصحبه، -وكانوا وقتذاك من المشركين- قال قائل من المسلمين لعلي بن أبى طالب: "أُهجُ عنا القومَ الذين يهجوننـــا" فقال: إن علياً ليس عنده ما يراد في ذلك منه" ثم قال صلوات الله وسلامه عليه: ما يمنع القوم الذين نصروا الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فينبرى حسان قائلاً: إني لها يـــا رسولَ الله، فقال له الرسول: "كيف تهجوهم، وأنا منهم فقال "إني أسلُّك منهم كما تُسَـــلُّ الشعرةُ من العجين" فيقول له الرسول "اذهب إلى أبي بكرٍ فليحدثك حديثَ القومِ، وأيامهم وأحسابهم، ثم اُهجهم وجبريل[1] معك. كما قال: "اهج قريشاً فوالله هجاؤك عليهم أشـــدُّ من وقع السهام في غلسِ الظلامِ" وفى حديث عنه (ص) أنه قال: "أمرتُ عبـــدَ اللهِ بـــنَ رواحةَ (بهجاء قريش) فقال، وَأَحْسَنَ، وأمرتُ كعبَ بن مالك فقال، وَأَحْسَـــنَ، وأمـــرتُ حسانَ بن ثابت فشفيَ واشتفي." واستمع إلى بعض هجاء حسان في المشـــركين فقـــال: "لهذا أشدُّ عليهم من وقعِ النبل" وكان عليه السلام يعجبُ بمراثي الخنساء لأخيها صخر، وقد استمع إليها وسألها أن تزيد من شعرها.

---

(١) هذا الحديث يتوافق مع الحكمة القائلة "جرح اللسان أنكى من وقع السنان"

وبعد فتح مكةَ أخذت وفود القبائلِ العربيةِ تفدُ على النبيِّ من أرجـــاء الجزيـــرة، لتعلنَ إسلامها، وكان مع هذه الوفودِ شعراءُ، يتحدثون باسم قبائلهم، ويمـــدحون النبـــيَّ والإسلام، وكان النبيُّ يستمعُ إليهم، ويُعجبُ بقولهم.

إذن فالنبي لم يعادِ الشعراءَ؛ لكنه كان يقف موقفَ العداء لكلٍّ من لا يتفق شعره مع مناهج الدعوة الإسلامية، وتقاليدها الصادقة.

ثالثاً: موقف خلفاء الرسول الراشدين من الشعر:

كان خلفاءُ الرسول الراشدون، وسائر صحابته –رضـــي الله عـــنهم أجمعـــين– يهتمون اهتماماً كبيراً برواية الشعر، وإنشاده إنشاداً منشؤه ثقافتهم الصادرة عن الفطرة والسليقةِ فضلاً عن أن مواقفهم كانت –دائماً– تابعةً لموقف الرسول تجاه كل القضايا في شتى مناحى الحياة بما فى ذلك الشعر حيث كانوا يتأسُّون بالرسول فـــي كـــلِّ مناشـــط الحياة، لذا وجدنا انسجاماً رائعاً بين موقفِ الرسولِ من الشـــعر، ومواقـــفِ الصـــحابةِ أجمعين، وآية ذلك أن بعض القدماء يرون أن الخلفاء الأربعة كانوا شـــعراء مجيـــدين، ومن هؤلاء الشعبي الذي يقول: "كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمرُ يقـــولُ الشـــعرَ، وكان عثمانُ يقولُ الشعرَ وكان عليٌّ أشعرَ الثلاثة[1].

وسئل الحسن البصري[2]: أكان أصحاب رسول الله (ص) يمزحون؟

قال: نعم ويتقارضون.

وقال أبو سلمة[3]: لم يكن أصحاب رسول الله– صلى الله عليه وآلـــه وســـلم – متحزقين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون الأشعارَ، ويذكرون أمرَ جاهليتهم.

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧١ دار الفكر بيروت.

(٢) راجع: الفائق فى غريب الحديث ج٢ ص٣٣٩ تحقيق على محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل ط عيسى الحلبي سنة ١٩٤٨م

(٣) انظر: شروح الشعر الجاهلي للعمرى ج١ ص٥٥ – طبعة دار المعارف ١٩٨٢م.

وكان **أبو بكر** يحبُ الشعرَ، بحيثُ يرويه، وينشده متمثلاً به في كثيرٍ من مواقفه، فقد رقى المنبر يوماً، وقال فيما قال- يخاطبُ الأنصارَ:- "فنحن وأنتم كما قال الغنوي:

جزيَ اللهُ عنَّا جعفراً حينَ أزلقَتْ — بنا نعلُنا فــي الــواطئين فزلَّــتْ
أبَوَا أن يملُّونا لــو كانــت أُمنُّــا — تُلاقِي الذي يلقَــونَ منــا لملَّــتْ
هم أسكنونَا في ظــلالِ بيــوتِهِم — ظــلالَ بيــوتٍ أدفَــأتْ وأكَنَّــتْ

أما **عمر بن الخطاب**- فإن ملاحظاته النقديةَ التي كان منشؤها الفطرةَ الســليمةَ، والذوق الخالص الذي أدلى به أكثرَ من مرةٍ في معرض حديثه عن الشــعر والشــعراء بحيثُ إنه كان يرويه، ويتمثل به، ويحثُ على روايته؛ لإيمانه أنها من تمــامِ المــروءةِ والمعرفة، يشهد بذلك نصحه لابنه عبد الرحمن: "يا بني انسب نفسك، تصــل رحمــك، واحفظ محاسن الشعر يحسنْ أدبك[1]" -كلُّ هذا يشهد له بعلم الشعر وروايتــه - حيــثُ كان مؤرخاً فقيهاً أديباً شغوفاً بالأمثال والطرف الأدبية والشعر، يستنشد من حوله فــي حلِّه وترحاله، ربما لقناعته بأنه -"كان علمَ قومٍ لم يكنْ لهم علمٌ أصــحُّ منــه[2]". **وكــان منهجه** يقوم على عدم الدعوة إلى حفظ مطلق الشعر، بل كان يدعو إلى حفظِ ما ســما ورقى منه، وخصوصاً المحددَ بحدودِ الإسلامِ وآدابه، المتصفَ بالخلقِ الرفيعِ... تأسيساً على ما سبق فإنه كان يقول: أرووا من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أحسنَه، ومن النســب ما تواصلون عليه، وتعرفون به، فربَّ رحمٍ مجهولةٍ قد عُرفت فوصلت، ومن محاســن الشعر ما يدلُّ على مكارمِ الأخلاقِ، وينهى عن مساوئها[3]....

إن آية ما سبق أنه قال يوماً لابن عباس: هل تروي لشاعرِ الشعراءِ؟ قال ابــن عباس، قلت: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

ولو أنَّ حمداً يخلدُ النَّاسَ أُخْلِدُوا — ولكنَّ حَمْدَ النَّاسِ ليس بمُخلدِ

---

(١) انظر: جمهرة أشعار العرب ص٥٢
(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ج١ص٢٤.
(٣) انظر: جمهرة أشعار العرب ص٥٢

قلت: ذاك زهير، قال: فذاك شاعرُ الشعراء، قلت: وبمَ كانَ شاعرُ الشعراء؟ قال: لأنه كان لا يماطلُ في الكلام، وكان يتجنبُ وحشيَّ الشعر، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه.... ثم قال أنشدني له، قال ابن عباس فأنشدته حتى برق الفجر[1].

كذلك فلقد أبدى رأيَهُ في شعر امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني والأخطل حيثُ وصف امرأ القيس بصفاتٍ تميِّزُهُ عن غيره، بل تعطيه الأسبقيةَ والتفردَ على الرغم من رأي النبي (ص) في حقه فقال: "سبق الشعراء وخسف له عين الشعر"

وهناك قصة عمر بن الخطاب مع الحطيئة لما وقف موقفاً متشدداً حيث حبسه حين أقذع في هجائه للزبرقان من بدر، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورةِ عفا عنه بعد أن عاهدهُ على ألا يعودَ إلى مثل هذا الهجاء[2].

لقد كان يقول مادحاً -في الشعر الذي يوافق مواقفه، ويؤدي حاجة صاحبه-: "خير صناعات العرب أبياتٌ يقدمها الرجلُ بين يدي حاجته، يستميلُ بها الكريمَ، ويستعطف بها اللئيمَ[3]"

هذا ولقد كان لعمرَ مواقفٌ كثيرةٌ من الأغراض الشعرية ما بين مستحسنٍ ومستهجنٍ، فما استحسنه هو المدحُ شريطة أن يمدحَ الرجلَ بما فيه، ولعل حكمه على شعرِ زهيرِ السابقِ يشيرُ إشارةً واضحةً إلى الصدق في الشعر، وكذلك فإنه كان يستحسنُ الرثاءَ والحكمة حيثُ إنه كان يعجبُ بحكم زهير، حتى قال فيه معجباً بحكمه: "لو أدركت زهير لوليته القضاء لمعرفة"[4]

وإما الهجاء والغزل الفاحش أو التشبيب بالنساء فإنه كان يستهجنهما؛ لأنهما لا يتفقان مع روح الإسلامِ، ومبادئه وقيمه الساميةِ.

---

(١) انظر: الأغانى ج١ ص٢٩٣. هذا ولقد جاء فى بعض المصادر "يعاظل" بدلاً من "يماطل"
(٢) انظر: الشعر والشعراء ج١ ص٩٣ بتحقيق أحمد شاكر طبعة دار المعارف ص ١٩٦٧م.
(٣) انظر: العقد الفريد ج٦ ص١٠٨
(٤) انظر: ديوان زهير ص١٢

ويمتد تيارُ الإعجاب بالشعر ليصل إلى خلفاء بني أمية فنجد معاوية بـن أبـي سفيان يحبُّ الشعرَ، ويتمثل به ويستنشد من حوله، حيث التفت يوماً في أحد مجالسه إلى عبد الله بن الزبير وقال متمثلاً[1]

ورام بعُـوران الكـلام كأنهـا   نوافرُ صـبح نَفَّرتْهـا المراتـعُ
وقد يدْحضُ المرءُ الموَاربُ بالخنَـا   وقد تَدرك المرءَ الكريمَ المصانعُ

ثم قال لابن الزبير: مَنْ يقول هذا؟ فقال: ذو الأصبع، فقال: رجل مـن قـيس، فقـال: أترويه؟ قال: لا. فقال: مَنْ ها هنا يروي هذه الأبيات؟ فقام رجل من قيس، فقال: ارويها يا أمير المؤمنين. فقال: أنشدني، فأنشده حتى أتى عليها .. فزاد معاوية في عطائه"[2]

رابعاً: موقف العلماء من الشعر:

لعلنا لا نجافي الحقيقةَ إذا قلنا: إن العلماءَ لم يأخذوا كلَّ ما سبق مأخذاً مسلماً به حولَ موقف الإسلام من الشعر؛ لكنهم أشعلوا نارَ القضية، وراحوا يؤكدون أن الإسـلام وقفَ موقفَ العداء من الشعر، كما اعتقدوا أن القرآنَ الكريمَ، والرسولَ الأمينَ هاجمَـا الشعرَ والشعراءَ معتبرين أن ما سبقَ كانَ الدافعَ الرئيسيَّ لانصراف العرب عن الشعر في صدر الإسلام وبالتالي ضعفَ الفنُ، وكسدت سوقُه.

وعند معالجة هذه القضية كان من الطبيعي أن تختلفَ وجهاتِ النظـر، وتعـدد الروئ، وتتباينَ الأبعادُ وذلك؛ لاختلاف ثقافات وطبائع وميول، وعقليات هؤلاء القدماء.

فمن العلماء القدامى الذين أثاروا هذا الموضوع **الأصمعي وابـن سـلام وابـن خلـدون** ولكلٍّ روايةٌ قد أدلى بها في معرضِ حديثه عن القضية، علماً بأننـا سـنحاولُ تحليلَ كلِّ روايةٍ على حدة، ثم نجملُ ما تشابهَ، وما تباينَ في الآراء، مع بيانِ رأينا فـي كلِّ ما سبقَ.

---

(١) راجع: شروح الشعر الجاهلي لأحمد جمال العمري ص٥٥ دار المعارف سنة ١٩٨٢م
(٢) راجع: الشعر الجاهلي لأحمد جمال العمري ص٥٥ دار المعارف.

فالأصمعي قال: "الشعر نكدٌ، يقوى في الشرّ، فإذا دخل في الخير ضعفَ ولان"، ثم استشهد الأصمعي على صحة قوله بحديثٍ عن حسان بن ثابت فقال: "هذا حسانٌ فحلٌ من فحولِ الشعراءِ في الجاهلية، فلما جاءَ الإسلامُ سقطَ شعرُهُ"(١).

ويقول **ابن سلام** نقلاً عن عمر "رضي الله عنه": "كان الشعر علمَ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُ منه.. فجاء الإسلامُ، وتشاغلت عنه العربُ، وتشاغلوا بالجهادِ وغزوِ فارس والروم، ولهَتْ عن الشعر وروايته، فلما كثرُ الإسلامُ، وجاءت الفتوحُ، واطمأنت العربُ بالأمصارِ، راجعوا روايةَ الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوانٍ مدونٍ، ولا كتابٍ مكتوبٍ، وألفوا ذلك، وقد هلكَ من العربِ من هلك بالموتِ والقتلِ، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهبَ عليهم منه كثير""(٢).

أما **ابن خلدون** فيقول في مقدمته: "انصرفَ العربُ عن الشعرِ أولَ الإسلامِ بما شغلهم من أمرِ الدينِ والنبوةِ والوحي، وما أدهشهم من أسلوبِ القرآنِ ونظمِه، فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوضِ في النظمِ والنثرِ زماناً، ثم استقرَّ ذلك، وأُونس الرشدُ في الملَّة، ولم ينزلْ الوحيُ في تحريمِ الشعرِ وحظرِه، وسمعَه النبي (ص)، وأثاب عليه، فرجعوا حينئذٍ إلى ديدنهم منه(٣).

بالنظر إلى **الرواية الأولى** فإننا قد نتفق معها بمقدارٍ حيثُ إن المشاحناتِ والخصوماتِ والتناحراتِ هي وقودٌ جزلٌ كثيراً ما يشعلُ جذوةَ الشعرِ، ويجعله متأججاً؛ فيضيئ غياهب النفس البشرية، أما في السِّلم -حيثُ تهدأ الثوراتُ، وتخمدُ الفتنُ، وتنتهي الحروب فيحدثُ الهدوءُ والاستقرارُ وهنا- تقلُّ دواعي الشعر وروايتُهُ.

أما ما نختلفُ فيه هو استشهاده على صحة قوله: "بحديث حسان" حيث إن هذا الحكمَ جائرٌ؛ لأن ما بين أيدينا من نصوصٍ شعريةٍ لحسانٍ ليس كلُّ ما قاله، فلربما أنَّ ما

(١) انظر: الاستيعاب ج – ص١٢٧.

(٢) انظر: طبقات الشعراء ص٢٢.

(٣) ابن خلدون: مقدمته ج١ص١٢٢، والديدن: اللهو واللعب.

ضاع هو ما يُختَلَفُ معه في تدليله، أو تمثيله على صحة رأيه. ويكفي القول: إن تراثنا الأدبي ما يزالُ مطموراً، وما وصل إلينا منه ليس بأفضله... وعلينا الرجوع إلى كتب الصحابة والسيرة فإنها سجلت الكثيرَ والكثيرَ مما سقطَ من كتبِ الأدبِ والأخبارِ.......

أما **الرواية الثانية** التي جاء بها ابن سلام فإنه ردَّها –في رأينا– إلى ثلاثة أسباب:

الأول: التشاغلُ بالإسلام.

الثاني: التشاغلُ بالجهاد، وغزو فارس والروم.

الثالث: غيبةُ التدوين.

وجدير بالذكر القول بأن أسباب ابن سلام تخالفُ الواقع، ولربما تعبثُ به؛ لأن الثابتَ في كتب الأدب والتاريخ والسير والمغازي –أنها تحملُ بين طياتها– شعراً كثيراً قيل في صدر الإسلام.

فبالنظر – مثلاً – إلى السبب الأول فإنه تصور ليس في محلِّه؛ لأن ظهور الإسلام، والانشغال بالدعوة أمران لا يتعارضان مع الشعر، ولم يقللا من الشعراء عامةً، لكنهما وقفا فى وجه المشركين الذين كانوا يهجون الرسولَ، ويثبطون عن دعوته، وبالتالى فإن الإسلامَ لم يمس الشعرَ بمكروهٍ، كما لا يصحُ القولُ: إنه شجعَ الشعرَ دونَ توجيهٍ وتهذيبٍ، بل ردَّ القرآنَ على مزاعمِ المشركين الذين زعموا أن القرآنَ شعرٌ أو ضربٌ من النثر؛ لذا فمن الظلم للإسلام أن يقال: إنه كفَّ العربَ عن الشعر، وبالتالي أوقف نشاطه؛ لأن الأحداثَ الجسامَ كانت وقوداً جزلاً وقد ساعدت على ازدهاره سواءً في معاركِ الإسلامِ مع الوثنين أم المرتدين، ولعل هذا ما أكده الدكتور يحيي الجبوري في قوله: "بأن الإسلام اتخذ من الشعر مواقفَ تنسجمُ مع طبيعةِ المرحلةِ التي شهدتها الدعوةُ والمواقفُ الإسلاميةُ تلك التي كانت منبثقةً من ظروف الدعوة

نفسها[1]، وهذا التوقف أو السكوت المشارُ إليه إن صح في فترة نزول الوحي – كما ذهب ابن سلام وابن خلدون – فإنما ينطبقُ على المسلمين دون غيرهم من العرب الذين لم يدخلوا في الإسلام قبلَ فتح مكةَ، كما أن الكثيرين من العرب لم يُقبِلوا عليه عن إيمان خالصٍ بدليل ارتدادهم عنه بعد وفاة الرسول(ص)، وهؤلاء كانوا ينظِمون شعرهم ولم يصل إلينا أنهم توقفوا عنه لسببٍ أو لآخر.

وبالنظر إلى السبب الذي يرى أن الجهاد والغزو قد أضعفا الشعر فإنه وهمٌ أو محضُ افتراء؛ لأن الجهاد والغزو وما يصاحبها من أحداثٍ جسامٍ وقد واكبت الدعوة منذ انتشارها أدت إلى ازدهار الشعر، وفتحت أمام الشعراء واحاتٍ لأفانين للقول، وروائعَ من التعبير لم تطرقْ من قبلُ، وأوجدت -في نفوس من الشعراء- البواعثَ الحقيقيةَ للنظم وقتذاك؛ فنطق به من لم يكنْ ينطقُ من قبلُ، وسال على ألسنة من كانوا يشتهونه..... فهذه هي مكةُ التي قلَّ شعرها في الجاهلية لم يكن لها رصيدٌ معلومٌ من الشعراء، ومع الفتوح ظهر فيها شعراءُ لم يشتهروا بشعرٍ قبلها؛ إذ أن الدعوة الإسلامية -في مهدها- كانت في حاجة إلى شعراء يدافعون عنها، وعن الرسول والمسلمين أمام سبِّ وقذفِ المشركين؛ لذا جنَّد ثلاثةٌ أنفسهم للدفاع عن الإسلام، وهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

من هنا فإن ابن سلام لم يهدف من قوله السابق إلى إثبات ضعف الشعر، أو تخلفه عن الميدانِ في صدرِ الإسلام، بل أرادَ أن يدللَ على أن الشعرَ العربيَّ القديمَ ضاعَ أكثرُه وذهب مع أدراج الرياح، ولربما سقطت به يدُ النسيان، أو ضعف الذاكرة؛ لأن العرب اعتمدوا في حفظه على الرواية الشفوية، ولم يدوّنوه. هذا بالإضافة إلى فقدهم الكثيرَ من كنوزه حتى فقدت العربيةُ أثمنَ ذخائرها من حفظته الذين راحوا في الجهاد والغزو، "وابن سلام نفسه يروي في طبقاته أن عبد الله بن رواحة قال: مررت

(١) انظر: شعر المخضرمين ط٣ ص٤٠ مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٨.

بمسجدِ رسولِ اللهِ (ص)، وهو جالسٌ في نفرٍ من أصحابه فنادى القومَ: يا عبدَ اللهِ بـنَ رواحةَ: فعرفتُ أن رسولَ اللهِ دعاني، فانطلقتُ إليه مسرعاً، فسلمتُ فقـالَ: هـا هنـا، فجلستُ بينَ يديه، فقال -كأنه يتعجب من شعري-: كيفَ تقولُ الشعرَ إذا قلـتَ؟ قلـتُ أنظرُ ذلك ثم أقولُ: قال. فعليك بالمشركين. وهنا نتساءل مندهشـين أيضـاً- قـائلين: هل يعدُّ - ما سبق من قولٍ - تشاغلاً عن الشعر، أم أنه تقديرٌ كبيرٌ له بوصـفه سـيفاً بتّاراً في الدفاعِ عن الإسلام، ووسيلةً للدعاية(١)...؟!!

إننا نقبل القول على إن التشاغل كان عن الرواية، لا عن النظم، أو عن إبداع الأعمـال الأدبية بشكلٍ أو بآخر.

وأما عن السبب الثالث الذي يشير فيه ابن سلام إلى غيبة التدوين التي أضاعت الكثير والكثير من تراثنا الأدبي فإننا سنرد على ابن سلام بقول أبي عمرو بن العلا "ما انتهى العلمُ مما قالته العربُ إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير"(٢).

أجل: إننا متفقون مع كل ما وصل به بحيثُ إنه لو جاء إلينا كلُّ ما قاله العـربُ لملئت الشعاب والأودية شعراً ونثراً، ولامتد سحرُ الكلمات، ولم ينطفئ وهجُ حروفهـا إلى الآن؛ لكن الذي وصل إلينا هو القليلُ ذاك الذي نجا من قبضةِ النسيانِ، أو ضـغائنِ الرواةِ، أو عاملِ تزايدِ القبائلِ في أشعارها؛ لتتزيدَ في مناقبها، ناهيـك عـن المغـارقِ والمحارقِ اللتين ابتلعتا الكثير من تراثنا الأدبي في وقتٍ دارت رحاه بـين سـندانِ الحقـدِ الصليبي، ومطارقِ الطمعِ والجشعِ التتري.

وعند المقارنة بين الشعر الإسلامي والشعر الجاهلي من حيثُ الكمِّ يجبُ أن نضعَ في الاعتبارُ أن الفترة التي قيل فيها الشعر في الجاهلية - كما حددها الجـاحظُ عنـدما قال: "الشعر صغيرُ الميلاد، حديثُ السن، فإذا استظهرنا فمائة وخمسـون عامـاً، وإذا

(١) راجع: دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامى لمحمد عبد القادر ص٤٢.

(٢) انظر: طبقات الشعراء ص ٢٣ بتحقيق محمود شاكر طبعة دار المعارف.

استظهرنا بغاية الاستظهار فهي مائتا عام – ليست حقيقيةً...!! والواقع أنها تمتد لأكثرَ من ذلك بكثير؛ لأن الشعر لم يُخلق من عدم، وكلُّ ظاهرةٍ فنيةٍ لابـد أن تكـونَ ثمـرةَ محاولاتٍ طويلةٍ، وتجاربَ موصولةٍ استكملت أسبابُها حتى آتـت ثمارَهـا المرجـوة، والجاحظ عندما وضع هذا الغرضَ فإنه اعتمد على أشياء أهمّها أنها:

أولاً: هي الفترة التي تكاملت للغةِ العربيةِ خصائصُها.

ثانياً: هي نفسُ فترةِ مجئ الشعر في حرب البسوس علماً بأن الشعر ليسَ موقوفاً علـى قبيلتي بكر وتغلب، بل وصل إلينا الشعرُ عن جميعِ القبائلِ العربيةِ شمالية وجنوبية

ثالثاً: هي الفترة التي وصلت فيها المادةُ الشعريةُ الممثلةُ في القصائد الطوالِ من امرئ القيس والمهلهل أول من قصّدا القصائدَ؛ لكننا لم نعرفْ – بعدُ – متى بدأ أو وصل إلينا شعرُ المقطعات؟!!

على كلٍّ فإنها أمرٌ غيرٌ معلنٍ؛ لكنها تمتدُّ لأكثرَ من ذلك بكثيرٍ، على عكس فتـرة الشعر الإسلامي التي تزيدُ عن نصف قرنٍ تقريباً هي فتـرة عصـر الرسـول وخلفائـه الراشدين. ناهيك عن أن كثيراً من الشعر الذي أنشده شعراء المشركين ضاع لتحرج الرواة في روايته، وإذاعته بينَ الناس لنهي الرسول (ص) عن إنشاده؛ ولأنه تضمَّن كثيـراً منـه هجاءٍ للرسول، وتشبيباً بنساء المسلمين، ومهاجمةً للإسلام، وصداً عن دين الله.

ثم ننظر إلى **الرواية الثالثة** تلك التي جاء بها ابن خلدون فإنه يمكـن ردُّهـا – عوداً إلى ثلاثة أسباب:

الأول: النبوة والوحي. **الثاني:** الانبهار ببلاغة القرآن.

الثالث: انتظار مصير الشعر المجهول كما يجئ به القرآن.

ولما نتحدث عن السببَ الأولَ فإن الحديث فيه سيجئ متشابهاً شكلاً وضمناً مـع ما ذهبَ إليه ابنُ سلامٍ بحيثُ نرى إن التاريخَ لم يقل لنا: إن الشعراءَ قد انصرفوا عـن

الشعر، أو خرسوا عنه وإلا كيف نفسرُ، أو نصنفُ الشعر الذي أجـازه الرسـول مـن شعرائه دفاعاً عن دعوته، وحماية لعقيدة المسلمين.؟؟!!

ثم ندع ما سبق فنتساءل: أينَ نصنفُ شعرَ وفودِ القبائل وسفرائهم الذين أنشـدوا الرسول أشعارهم؟ وبِمَ نتعاملُ مع قصة قدوم وفد بني تميم على الرسول بعد فتح مكـة ودخولهم المسجد وقولهم للرسول: يا محمدُ جئناك نفاخرك فاذن لخطيبنا وشاعرنا فأذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب بن زارة، فأمر رسول الله (ص) قيس بن ثابـت فـرد عليه، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال أبياتاً مطلعها:

نحنُ الكرامَ فلا حيَّ يعادلُنا   منا الملوكُ وفينا يقسمُ الرّبَعُ

فارتجل حسان بن ثابت قصيدته التي مطلعها:

إنَّ الذوائبَ من فهرٍ وإخوتِهم   قد بيَّنوَا سنةً للناسِ تُتَّبَعُ

ولما فرغ حسان من قصيدته، قال الأقرعُ بن حابس –أحد رجال الوفـد–: والله إن هذا الرجل – يعنى محمداً– لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتُهم أعلى من أصواتنا:...... ثم أسلموا[1]. هذا وسـنعرض لقصـيدة حسان حديثاً مفصلاً فى هذا الشأن، كما سنعرض حديثاً لطائفة من شـعراء المشـركين الذين وقفوا في وجه الإسلام أول الأمر، وراحوا يدافعون عن عقيدة الوثنية في مكة من أمثال أبي سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزبعري، وضرار بن الخطاب، وعمـرو بـن العاص، وأبى عزة الجمحي، والحارث بن هشام.

إن أكبرُ دليلٍ على أن الإسلامَ كانَ الوقودَ الجزلَ لجذوه الشعر إبرازُه للشاعرية القرشية التي كانت مخبوءةً تحتَ رمادِ الجاهلية، إذ أن المجتمع المكي كان يحيا حيـاةَ أمنٍ واستقرار، فلم يعرفْ العصبيةَ القبليةَ التي ألفتها الحياةُ البدويةُ، هذا بالإضافة إلـى عظمةِ مكةِ التي استمدتها من وجود الكعبة بها، فلما جاء الإسلامُ انطلقـت الشـاعريةُ

---

(١) انظر: دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامى لمحمد عبد القادر ص٤١.

القرشيةُ كذلك رأينا الشعراءَ القرشيين بدأوا يحتلون مكانتهم الأدبيةَ في تاريخِ الأدبِ العربي حيثُ كانَ للصراعِ الذي دارَ في الإسلام بين المدينة وأعدائه في مكة أثرُهُ في زيادة عددِ الشعراءِ المشركين الذين ناصبوا الدعوة العداءَ.

أما عن السبب الثاني الماثل في انبهار الشعراء ببلاغة القرآنِ الكريمِ فهذا صحيحٌ حيث ملأت عقيدةُ الإسلامِ – وتعاليمُه وآدابه السمحةُ – نفوسَ المسلمين عزةً وجلالاً وبهاءً؛ لكن هذا لا يمنع من وجود فئة قليلة مضت في طريقها ناظمةً شعرها على حسب ما جُبِلَت عليه من سليقةٍ أو طبع ...!!

صحيحٌ أن هناك رواياتٍ قليلةً تؤكدُ انبهارَ الشعراء بالقرآن وتوقفَ بعضهم عن قول الشعر بينما مضى آخرون ينظمون شعرهم، نذكرُ منها قصةَ عمرَ بن الخطاب الذي كتب إلى المغيرة بن شُعبة وهو على الكوفة: أن استنشد من قبلك من شعراء قومك ما قالوا في الإسلام، فأرسلَ إلى الأغلب العجلي فاستنشده فقال:

لقد سألتَ هيِّناً موجوداً　　　أرجزاً تريدُ أم قَصيدَا؟

ثم أرسل إلى لبيد فقال له: إن شئت مما عفا اللهُ عنه – يعني الجاهلية – فعلتَ قال: لا، أنشدني ما قلت في الإسلام. فانطلق لبيد فكتبَ سورةَ البقرة في صحيفةٍ، وقال: لقد أبدلني اللهُ – عزَّ وجلَّ بهذه في الإسلام – مكانَ الشعر.

فكتب المغيرة بذلك إلى عمر، فنقص عمرُ من عطاءِ الأغلب خمسمائة، وجعلها في عطاءِ لبيدٍ فكتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين أتنقصُ عطائي إن أطعتك ..!! فرد عليه خمسمائة وأقرَّ عطاءَ لبيد على ألفين وخمسمائة ويستطرد قائلاً.

نحنُ الكرامَ فلا حيٌّ يعادلُنا　　　منَّا الملوكُ وفينا يقسمُ الرّبعُ

ثم دخل الأغلبُ على عمرَ، فلما رآه قال: هيه أنتَ القائل:

لقد سألتَ هيِّناً موجوداً　　　أرجزاً تريدُ أم قَصيدَا؟

فقال: يا أميرَ المؤمنين إنما أطعتُك، فكتب عمر إلى المغيرة: أن أردد عليه الخمس المائة، وأقرَّ الخمسَ المائة للبيد(١).

---

(١) انظر: أشعار بكر في الجاهلية والإسلام للمؤلف ق٢ "شعر الأغلب العجلي" رسالة دكتوراه "مخطوطة".

على كلٍّ فإننا نقبلُ القولَ، أو نقرُّ بسقوط منزلةِ بعض الشعراءِ الذين كانوا يتكسَّبُون بالشعر، كما ضاق محيطُ الإبداع الشعري، لتتقلص مقوماته، وخصوصاً لما حارب الإسلامُ العصبيات القبلية، وحرم الخمر، وقاوم الهجاء، والقذع والغزل الفاحش ... وكل هذه المضامين كانت وقوداً كثيراً ما أشعلَ نارَ الشعرِ، فلما قاوم الإسلامُ تلك الموضوعات فإنه اقتصر على أغراضِ شعر المخضرمين الذي وقف – بالمرصادِ – في وجه شعراء المشركين، هذا بالإضافة إلى شعرِ المدائحِ النبوية.

وأخيراً ننظر في السبب الثالث الذي يفضي إلى انتظار مصير الشعر المجهول، كما يجئ به القرآن ونقول: إنه إن كان هذا كذلك فإن أمرَ تحريمِ الشعرِ سيكونُ أولَ المحرمات، وسوف يخبر به المسلمون جميعاً؛ لكن القرآن قد سكت – في هذا الشأن – ولم يصدر حكماً جزئيا أو كلياً، وهذا معناه أن القرآن لم يتعرضْ للشعر بخيرٍ أو بشرٍّ.

على هذا التصور انطلق الشعراء ينظمون وينشدون لاسيما أهلَ مكةَ والمدينة بسبب انتقال مركز الأحداثِ الإسلاميةِ إليهما.. وعلى كل فإننا نرى أن ابن خلدون لم يتفهمْ حقيقةَ ما جاءَ بالقرآن فهمَ درايةٍ ومعرفةٍ كبيرتين؛ لذلك راحَ يصدرُ الأحكامَ على عواهنها.

خلاصة القول:

من الظلم للإسلام أن يقالَ: إنه كفَّ العرب عن الشعرِ، وأوقف نشاطه إذ كان ينشدُ على كلِّ لسانٍ، كما ساعدت الأحداث الإسلاميةُ الكبرى على ازدهاره لا خموله سواءٌ في معاركه مع الوثنيين، أو في الفتوح الإسلامية هذا من جانب ...

على الجانب الآخر فإنه من غير المقبول، ومن الخطأ –عوداً– أن يكون القرآن شعراً أو نثراً أو أن يكون الرسول شاعراً، إذ أن تنزيهَ القرآنِ والرسولِ عن هذا وذاك ليس طعناً في الشعرِ أو النثرِ، ولا غضّاً من قيمتهما؛ لكن القرآنَ شيءٌ، والشعرٌ والنثرٌ شيءٌ آخر.

إنه إذا كان الإسلام ذمَّ بعضَ الشعر والشعراء، أو هوَّن من أقدارهم -في الفترة الأولى – وهى فترة بدء نشر الدعوة – حيث رأينا نفراً من الشــعراء يهــاجمُ الــدين، وينقصُ من قدره...!!؛ لكنه -على الجملة- لم يغض من الشعر، ولــم ينــه عنــه، أو يحاربه لذاته، وإنما حارب منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابطَ لها، ومنهج الأحلام الموهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها[1]، ولا يصح أن نقول: إنه شجع الشعر دون توجيه، والقرآن ينزه الرسول عن قول الشعر، ويرفض أن يكونَ الرسول شاعراً وقــد ورد القرآن على مزاعم المشركين الذين زعموا أن القرآن شعراً، أو ضرباً من الشعر. وكذلك فإنه رد على المنافقين واليهود، وغيره بل كان أثر الشعر الإسلامى جليّــاً فــي نفوس القرشيين بحيثُ لم يكن بأقل من أثر السيوف في أجسادهم حتى أن الشــعر قــد سجل عليهم اندحارهم، وتمزيقهم شرَّ ممزقٍ يوم بدر، وفرار بعضهم هرباً مــن قولــه المؤمنين بالله، والمتمسكين بسنة رسوله (ص)، ولربما خوفاً من قوة إيمانهم، وســلامة عقيدتهم التي كانت أكثر صلابة من السيوف فطالما أن الشعر ذاك الكلام المؤلف- على حد تعبير الرسول (ص) يوافق الحق، ويحث على الخير. فما وجه الاختلاف عليه إذن؟

لقد كان الرسول (ص) كما مر بنا- يقبلُ على كلِّ شعرٍ فيه حكمة، وكثيراً مــا كان يوجه الشعراءَ توجيهاً سليماً نحو تمثل المفاهيم الإسلامية، ونشر المثــل الجديــدة، ويدفعهم إليها دفعاً ويحذرهم من اتباع الهوى.

إذن فالشعر – كما يرى ابن رشيق – ليس مذموماً كله، فمنه المذموم، والمحمود علماً بأن مسألة القبح والجمال تكمنُ في القيمة المعنوية فإذا كان المعنى جمــيلاً فــإن المنظوم سيكون آية في الروعة، وقبساً من أقباس الجمال، ونموذجاً لكمال المثال.

والإسلام لم يصرف المسلمين عن الشعر كله بل حــرَّم بعــض الموضــوعات القبلية. فبفضل الإسلام اختفت في الشعرِ بواعثُ الشعر والأغراض التي تتعارضُ مــع

---

(١) راجع: الإسلام والشعر لسامي العاني ص٤٢ مطبعة الرسالة – الكويت سنة ١٩٨٣م.

تعاليم الإسلام السمحة، وأصحاب الرسولِ (ص) وخلفاؤه ليس بمنصرفين أو معرضين أو متزمتين ولا متحرجين مما يتبادله الناس في مجالي القول والتعبيـر؛ لأن مـواقفهم مستمدةٌ من مواقفِ الرسول ومصلحة المسلمين.

ننتقل إلى تأثير الإسلام على الحياة العربية والأدبية في ذلك الحين فنجده يسـيرُ في ثلاث[1] اتجاهات.

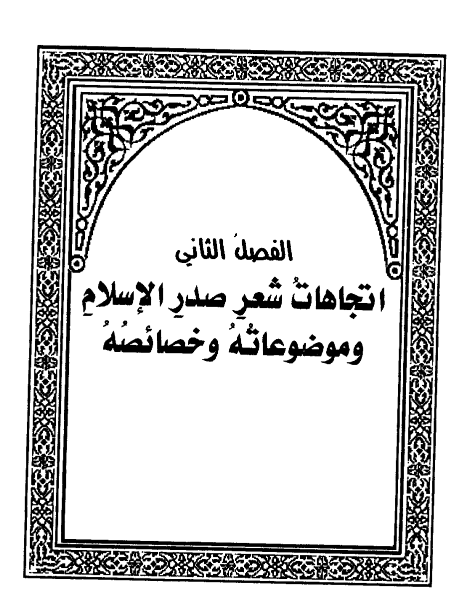
الأول: وجود الإسلام المادي كجزءٍ لا يتجزأ من البيئة الحسية، بحيثُ أمدَّ الشعر بمـادةٍ غزيرةٍ استفادوا منها في الوصف، وإثراء في الصور الشعرية.

الثاني: استخدام الفكر الإسلامي بشكلٍ عامٍ في التعبير عن شئون المجتمع، وعلاقاتـه المعقدة بشكلٍ توظيفي في فن النقائض الذي جاء نتاجَ التوسع والحرية في المدح والهجاء حيثُ دخل القرآن في دائرةِ المفاضلةِ، فمدحوا مَنْ حفظه وفهمه، وهجوا مَنْ لم يستطعْ حفظه وفهمه.

الثالث: بروز العنصر الديني كعامل فاعلٍ يقفُ خلف مظاهر السلوك الشخصي مثـال ذلك: شعر الحجاج حيثُ برزت تجربته الدينية قويةً واضحةً، كما ظهر إحساسه الشديد بعقيدته لاسيما في معالجته للموضوعاتِ التقليديةِ.

---

(١) راجع: شعر البصرة فى العصر الأموى لعرني قاسم ص ٢٤ وما بعـدها دار الثقافـة بيـروت سـنة ١٩٧٥م (بتصرف).



الفصلُ الثاني

اتجاهاتُ شعرِ صدرِ الإسلامِ وموضوعاتُهُ وخصائصُهُ



لقد كان من المتوقع -أنه بمجئ الإسلام- أن تنسابَ مشاعرُ الشعراء، وتُصَبَّ انفعالاتهم سابحةً - في اتجاه أُحادي - في منابع نهر الدعوة الإسلامية؛ لكن مثل هذا الأمر لم يحدثْ بحيثُ رأينا ثنائيةً في الاتجاه وقد تزيد، وعجباً على ما صاروا إليه.

ونظراً للتفاوتِ الحاصلِ بين بيئاتِ الشعراءِ، ومعايشهم، وثقافاتهم وأنماطهم العقليةِ والاجتماعيةِ والنفسيةِ؛ فإننا رأينا تبايناً قد يصل إلى حدِّ التغاير، وقد نتج عنه أن وجدنا مؤيداً للدعوة - وقد آمنَ بها ومتجاوباً معها، أو معارضاً لها؛ لأنه قد كفر بها فصدَّ عنها ..!!

ونتساءلُ عن مرجع هذا كلِّه فسنجد أن الشعراءَ المخضرمين ينتسبون لطائفتين: أهل المَدَرِ (الحضر)، وأهل الوَبَرِ (البادية الذين يميلون لأحد المعسكرين المتخاصمين المسلمين والمشركين)، هذا ولكلِّ طائفةٍ تكوينُها العقليُّ، وطبيعتها العرقية، ونزعتها العقدية التي غالباً ما تكونُ بين نزوعٍ منها، وجموحٍ وانفلاتٍ من عقالها في بعض الأمورِ.

ولكي نسيرَ في الطريق على سبيلٍ رشيدةٍ فإننا سنعرض حديثاً لكل طائفةٍ على حدة مشيرين إلى اتجاهاتِ وخصائصَ كلٍّ منها:

أولاً: شعراء المَدَر:

لعلنا نقصد بهم شعراءَ مدن وحواضر مكةَ والمدينة والطائف وقبائل عبد القيس في البحرين والجزيرة والعراق.

والحقَّ نشهدُ أن هذه الطائفة أسهمت بشعر كثيرٍ في أحداث الدين الجديد، وبخاصة المجموعةُ التي حاولت النيلَ من المسلمين، ورسولهم الكريم (ﷺ).

من هذه الفئة نذكرُ عبد الله وأبا سفيان ابني الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص يقابلُهم - في معسكر الشعراءِ المسلمين الذين راحوا يدافعون عن الإسلام بالمدينة -حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، شعراء الرسول (ﷺ).

ونتساءلُ عن دوافعِ هذه المعارك الحقيقية فإننا نجدُ بعضاً من النقاد يرجعونهــا إلى المفهوم القبلي[١] العصبي بكل تبعاته ومقوماته؛ لكننا نختلفُ مع ما سبق اخــتلافَ رأيٍّ، لا يفسدُ من جوهر الأشياء شيئاً؛ لأننا لو سلمنا فرضاً أنها موجودةٌ؛ لكنها ليســت عصبيةً قبليةً على الجانبين؛ لأن الإسلام حارب العصبياتِ بكــل أشــكالها أو ألوانهــا، والشعراء المسلمون يعلمون ذلك، ومقرون به لكن تعصبَ المشركين لعقيــدتهم التــي اجتثها الإسلامُ من جذورها، وألقى بها في مهاوي الردى ربما تكونُ هي باعثُ الخصومات والمنازعات التي دارت رحاها بينهما.

إذن فالعصبية دينيةٌ حيثُ وُجِدَت، بعد أن حلت وحدة المعتقد محلَّ وحدةِ القبيلة، وقامت وشيجةُ الإسلام – كرابطةٍ فكريةٍ وروحيــةٍ – مقــامَ وشــيجةِ الــدم كرابطــةٍ اجتماعية[٢]. أما وقد يذهب الدكتور أبو ذكري إلــى رغبــة الأولــين –مــن شــعراء المشركين–، ومدى حرصهم على تثبيت عادات وتقاليد الوثنين، بينما يخفــقُ الشــعراءُ المسلمون في تصوير الإسلام ومزاياه تصويراً صحيحاً فهذا فرضٌ – كثيراً ما – يحتاجُ إلى ما يعضدهُ من النصوصِ، أو الشواهدِ الشعريةِ التي جاءت في هذا الصدد، فضــلاً عن هذا فإنه راحَ يبررُ عدمَ تصوير المسلمين للإسلام، ومزاياه تصويراً صحيحاً؛ لأن هَمَّ الشاعر أن يسبغ على الشخص من الفضائل والمزايا وقتئذٍ دون النظر للعلائق الأخرى..!

هذا وقد استشهد – على ما ذهبَ إليه – بقصيدةِ كعبَ بن زهير التــي يخاطــبُ فيها رسولَ الله (بانت سعاد) التي يقول فيها:

مهلاً هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الــ	**قرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ**
إنَّ الرسولَ لنورٌ يُستضــاءُ بــهِ	**مُهنَّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ**

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصر النبوة والإسلام ص١٩٢ حيث نجد الدكتور السـيد أبـو ذكـري مـن المؤيدين لباعث القبلية.

(٢) راجع: العرب في التاريخ لبرنارد لويس ص٥٦ بيروت سنة ١٩٥٤م.

أما نحنُ فنرى غير ذلك حيث إن معظمَ ما جاءَ به الشعراءُ الإسـلاميون -فـي شعرهم- من قيم وفضائلَ، ورسمِ خارطةٍ للدين الجديد- قد يصل إلى مرحلةِ الإشباعِ أو الرضى الفني؛ لأننا ماذا ننتظرُ من أناسٍ لا يفرغون من معركةٍ حتى يجدوا أنفسهم وقد أُجبِرُوا على خوضِ غيرها .. وهكذا الحال دون أن تستتبَّ لهم الأمورُ، فهذه السـرعة الحياتية تُفْرَضُ على نظمهم فنجد فيه سرعةً فنيةً ممثلـةً فـي القصـائد القصـار، أو المقطوعات القصيرة بحيث لم يعد لدى الشاعر وقتٌ؛ لكي ينقِّح، ويحـوِّك، ويضـيفَ، ويحللَ ويعللَ، فيودع فيها كلَّ ما يريد لكن ظروف الدعوة في مهدها هي التي فرضـت عليهم هذا النمطَ النظمي الذي احتاج إلى كيميائية الإخراج بالصورة المثلى.

عوداً على بدء فإن البيتين[1] اللذين استشهد بهما على خلوِّ شعرِ كعبٍ من التعاليم والفضائل، إنما هو تمثيلٌ ليس في موضعه حيثُ إن البيتين أفادا بأن الله قـد خـصَّ - تحديداً - نبيّه الكريمَ (ﷺ) بالقرآنِ الكريمِ الذي يحملُ - بين أطوائه - العظاتِ والتدبر والتذكر والعبر، والدروس المستفادة؛ فضلاً عن هذا فإنه يشتملُ على تفاصـيل تعـاليم الدين الجديدِ، وأحكام كل شيء في الحياة، كما أن رسول الله (ﷺ) هو الرحمةُ المهـداةُ، والنورُ الذي أضاء الدنيا بأسرها فأخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ. حيثُ كان مـن عادةِ العربِ أنهم إذا أرادوا استدعاء مَنْ حولهم من القوم شهروا السيفَ الصقيلَ فيبرقُ فيظهر لمعانه من بعيد فيأتون إليه طائعين بنوره، رمز القوة والسلطان. وهنـا يـرى التبريزي -في شرحه- أن جعله سيفاً مختاراً من سيوف الله علـى سـبيل الاسـتعارة ويروى أن كعباً "رضي الله عنه" أنشد "من سيوف الهند فقال النبي (ﷺ) من سيوف الله.

وخلاصة الأمر فإن الشاعر شبهَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالسيف اللامع المضيءِ الذي يرسل الإشعاعاتِ المنيرةَ التي يهتدي الناسُ بها إلى الطريق المستقيم، إنه سيفٌ مصقولٌ مرفوعٌ في وجوه أعداء الله حمايةً لدينه؛ لأن ظروف الدعوة للدين الجديد وضعت الشعراء المسلمين الأولين في مواجهةٍ كان من الضروري أن ينهضوا بأعبائها، ويؤدوها على خير قيام حتى تحسم لصالحهم، وقد كان.

(١) انظر: الحياة الأدبية ص١٩٢.

ثانياً: شعر الوبر:

ونقصد بهم شعراءَ البادية من أعراب نجد واليمامة، وبواديها حيث أكسبتهم الباديةُ غلظةً في النفوس، وجفاءً في الطبع، وخشونةً في التعامل ترجم - صداه - التنازعُ والتناحرُ على الشرف، وسدّة الرياسة قبل الإسلام؛ لذا فقد كانوا أقل الناس تعمقاً في الدين وذلك؛ "لأن الإيمان بالإسلام يعتمدُ على الشفافيةِ وجمالِ الروحِ ورقةِ المشاعرِ وسلامةِ الطبعِ، وبما أن هذا كله غير موجود لديهم فلقد ظهر إيمانهم ضعيفاً؛ لذا وصفهم الله بما يميّزُ طبائعهم[1]. فقال: **(قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا ولَكن قُولُـوا أَسْلَمْنَا ولَمّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وإنْ تُطيعوا اللهَ ورسولَهُ لا يَلِتْكُم من أعمالكمْ شيئاً إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ)** سورة الحجرات آية (١٤)، كما قال **(الأَعْرَابُ أَشَدُ كُفْراً وَنِفَاقَاً وأجدَرُ ألاَّ يعلَمُوا حُدُودَ ما أنزلَ اللهُ على رسوله واللهُ عليمٌ حكيمٌ)** التوبة (٩٧).

من هنا فإن المجموعَ الشعَريَّ الذي وصل إلينا عن شعراء البادية غالباً ما يتسمُ بضعف المستوى، أو البناء الفني، وعدمِ الانقيادِ والخضوعِ للهِ سبحانه وتعالى؛ فبضعف التأثير أو الوازع الديني لديهم بقيت سماتُ شعر الجاهلية المهيمنة وقد فرضت بل أحكمت سيادتها الفنيةَ لاسيما من حيثُ جزالةِ الألفاظِ، ووعورتها؛ لأنهم لملموا حروفَها من فلوات صحراء البادية؛ لذلك فإننا لمسنا الأداءَ الضخمَ، والتعبيرَ الرائعَ، إذ أن أغلبَ الأساليبِ والتصاويرِ التي كانوا عليها في الجاهلية قد التزموا بها في الإسلام .. من هنا جاء تأثرهم بمعاني القرآن وأساليبه قليلاً.

طوائف الشعراء المخضرمين:

لم يكن الشعراء الذين عاشوا فترة الإسلام الأولى على حال واحدةٍ - سلوكاً وعقيدةً وشريعةً ومنهاجاً - بل لقد تباينت مواقفُهم، وتنوعت أساليبُهم، وتعددت اتجاهاتُهم، وتشعبت مذاهبهم وأهدافُهم .. فمنهم من وقف موقفَ العداء للإسلام؛ فراح يجعلُ من أشعاره سيفاً يسلَّطَ على رقابِ المسلمين، أو سهاماً تُصوبُ إلى صدورهم،

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلفاء الراشدين، ص١٩٢.

وكان أشدُّ هؤلاءِ خطراً الشعراءَ **اليهود**، أعداء الإسلام والمسلمين، ومنهم مـــن ظـــاهَرَ المسلمين الإسلام؛ فراح يبطنُ الكفر حتى صدق عليه أنه **منافق**، فضلاً عن هـــذا وذاك فلقد ظهرت طائفةٌ من الشعراءِ قد بعدت عن جادةِ الصوابِ سلوكاً وخلقاً ومعاملةً حتى رأيناهم يجاهرون بالمعصيةِ، ويتباهون بالبخلِ والغدرِ فكانوا **منحرفين**، وهناك من رجعَ إلى رشدِه، وفاقَ من سكرتِهِ، فاعتذرَ عما بدرَ منه في الجاهليةِ، كما رجعَ عما قاله في الإسلامِ وقد تابَ وأنابَ ..

هذا وسنذكر حديثاً مجملاً لأغلبِ هذهِ الطوائفِ بكل اتجاهاتها وخصائصِها حتى نقفَ على مدى تأثيرِ الدينِ الجديدِ عليها.

أولاً: الشعراء المنحرفون:

على مرِّ العصورِ الأدبيةِ نرى من يشطُّون بأفكارهم؛ فينحرفون عـــن ســـلوكهم فيصبحون منبوذين في مجتمعاتهم، ومن ثَمَّ يكون حالُهم كالصعاليك... من بينَ هـــؤلاءِ أبو الطمحان القيني وهو حنظلة بن الشرقي، أحد بني القين بن جسر القضاعي، كـــان فارساً خارباً صعلوكاً، أدرك الجاهليةَ والإسلامَ، فكان خبيثَ الدين فيهما، وكـــان تربـــاً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية، ونديماً له.

يقول الأصفهاني[1] بلغني أن أبا الطمحان القيني قيل له – وكان فاسقاً خارباً – ما أدنى ذنوبك؟ قال: ليلةُ الدير قيل: وما ليلة الدير؟ قال: نزلت بديرِ زانيةٍ فأكلتُ عندها طفيشلاً بلحمِ خنزير، وشربتُ من خمرها، وزنيتُ بها، وسرقتُ كساءها، ثم انصرفتُ عنها.

كما يقال: إن له ناقةً يقالُ لها المرقالُ، وله إبلٌ استقاها قومٌ نزلوا ضيوفاً عليـــه، وشربوا من ألبانها ثم أخذوها معهم فقال في ذلك شعراً منه:

وإنِّي لأرجُو مِلْحَها في بطونِكُم   وما بَسَطَتْ مِنْ جِلْدِ أَشْعَثَ أَغْبَرَ

(١) انظر: أشعار بني حمير وأخبارها في الجاهلية للمؤلـــف ط١، ص١٨٤، مطبعـــة الضـــوي للكمبيـــوتر والطفيشل هو: نوع من المرق.

وقَتَلَ حريث بن زيد الخيل الطائي، معلِّمَ القرآن – أبا سفيان – الذي أرسله عمر ابن الخطاب إلى قومه، وقتل عدداً من أصحابه على أثرِ ضربِ المعلمِ لرجلٍ طـائيٍّ – أوس بن خالد – ثم خاطبَ قريشاً والمسلمين قائلاً[1]:

فإنْ تقتلُوا بالغدرِ أوساً فإنَّني تركتُ أبا سفيانَ ملتزمَ الرّحـل
قتلْنا بقتلانا من القومِ عُصْبَةً كراماً ولم نأكلْ بهم حشفَ النّحل

ومن المنحرفين في عقيدتهم النجاشي الحارثي، وهو شاعرٌ مخضـرمٌ هَجَّـاءٌ، خبيثُ اللسان[2]، وكان فاسقاً رقيقَ الإسلام، هجا عبدَ الرحمنِ بن حسان بن ثابت وهو لا يزالُ في اليمن، ثم إنه جاء إلى الحجاز في خلافة عمرَ فلقي عبدَ الرحمنِ بن حسان في ذي المجاز، ثم في مكةَ وهجاه طويلاً، ولكن عبدَ الرحمنِ غلبهُ في الهجاء، كما تعرض بالهجاء لبني العجلان وشاعرهم فأفحش في هجائهم فهددهُ عمر رضي الله عنه فقـال: "إن عدت إلى الهجاء قطعتُ لسانك[3] يقول النجاشي .. هاجياً معاويةَ، ومادحاً علياً:

يا أيُّها الملـكُ المُبْـدي عداوتَـهُ روِّي لنفسك أيَّ الأمر تأتمرُ
وما شعرتَ بهِ أضمرْتَ من حنَـقٍ حتَّى أتتني به الأخبارُ والنُّذُرُ

وهناك شبيل بن ورقاء الذي كانَ لا يصومُ رمضانَ حيثُ أنكرت عليــه ابنتـهُ انحرافَه في الدين حتى قال:

تأمُرُني بالصومِ لا درَّ درّها وفي الغيرِ صومٌ يا أميمُ طويلُ

وهناك المغيرة بن الأسود الأسدي الذي اُشتُهر بالفسوق حيثُ أدمن الخمر، وقــد تهكَّم على الدين الإسلاميِّ، لكنَّ عمرُ بنْ معد يكرب الزبيدي آمن بالنبيِّ عليه السلام – عند لقائه، وما إن علِمَ بوفاته حتى ارتدَّ عن الإسلام؛ لنفوره من فروة بن مسيك الــذي ولاّه النبي أميراً على قومه، وقد عبرَّ عمرٌو عن إنكاره لولاية فروة بقوله:

وجدْنا مُلكَ فـروةَ شـرَّ مُلـكٍ حماراً سَافَ مُنْخـرُهُ بِثَغْـرِ[4]

(١) انظر: الشعر والشعراء، ج١، ص٢٨٦.

(٢) انظر: الشعراء وخصائصهم في الشعر العربي لعبده بدوي ص٨٣، الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٣

(٣) انظر: الشعر والشعراء، ج١، ص٣٣٦، حيث كان شاعرهم – يوم ذاك – تميم بن أبي مقبل العجلاني.

(٤) ساف: شم. الثغر: في البهائم بمنزلة الرحم في الإنسان.

وكنت إذا رَأيــتَ أبــا عُمَيــرٍ تَرَى الحَولاءَ من خَبثٍ وغدرِ[١]

وبالنظر إلى هذين البيتين فإن صاحبهما لم يكتسبْ خصائصَ إسلاميةً من واقــع الحياة التي عاشها في الفتوح[٢] حيثُ إن شعره – كما يبدو لي – لم ينسحبْ عليه شيءٌ ذو غناءٍ من تعاليمِ الدين، وآدابه السمحةِ.

ننتقل إلى أبي محجن الثقفي الشاعرِ الفارسِ، ذي البأس الذي يعرفُه قومُه فــي الملمات وكثيراً ما اشتركَ معهم في محاربةِ المسلمين، حيث توجهوا لحصارِ الطــائف، حيثُ صوَّب سهمه – في تلك الحربِ – في صدر عبد الله بن أبي بكر، الــذي تُــوفي متأثراً بجراحه، وذلك في السنة الحادية عشرة للهجرة، هذا ولقد أسلمَ أبو محجن مع مَنْ أسلم من قومه، في السنة التاسعة للهجرة[٣].

وتشيرُ مصادرُ الأدبِ جميعُها إلى القول بأنه كانَ مولعاً بشــربه الخمــر فــي الجاهلية، واستمرَّ على ذلك في الإسلام، وقد حذرَّه عمر مراراً فلم يكفَّ عنهــا، حتــى اضطرَ إلى نفيه، لكنَّه هربَ، ولحق بسعد بن أبي وقاص في القادسية (سنة أربع عشرة للهجرة)، فأبلى – في الحربِ – البلاءَ العظيمَ، وقدْ تاب –منذ ذلك الحين– توبةً نصوحاً عن معاطاة الخمر[٤].

بالنظر إلى شعر أبي محجن فإنه يتوزَّعُ على قسمين –وقد تضــمَّن مــرحلتين متناقضتين على مائدة الخمر، وعاطفةُ الشاعر تجاهها–:

الأولى: استحسانها والإصرار على شربها، والدعوة إليها، والأنس بمجالسها.

الأخرى: ذمُّها، والندمُ على شربها، وعلى كلِّ ما ارتكبه على إثرها وهو إعلان توبةٍ صادقةٍ.

والقارئ – في شعره جملة في المرحلتين يرى بوناً شاسعاً وخصوصاً في مرحلة التوبة حيثُ رأيناه – مُهلهلاً غيرَ مترابطٍ، سقيماً، فاتراً – لعب ضعف العاطفــة

---

(١) الحولاء: الجلدة التي يخرج فيها ولد الناقة. راجع سيرة ابن هشام، ج٤، ص١٩٥، ١٣٨٤هـ.

(٢) انظر: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام لنعمان عبد المتعال القاضي، ص٢١٨، الــدار القوميــة للطباعة والنشر، ١٩٦٥م.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ج١، ص١٦٧.

(٤) انظر: طبقات الشعراء، ص٢٢٦، بتحقيق محمد شاكر دار المعارف.

دوراً واضحاً في هشاشة تراكيبه، وعدم استواء بنائه، فتثاقل على النهوض بدوره في رفع راية الإسلام.. ربما لضعفِ وازعه الديني.

نذكر مثالاً على ضلاله وإصراره على فعلِ المعاصي وفيه قد يحكي أبو محجن ما كان من تعلقه بالخمر، وعكوفه عليها حتى إنها سيطرت على نفسه ونفوس شاربيها، لقد لعبت في رأسه حتى جعلته يستهين بإقامة الحدّ عليه في سبيلها فقال: إنها حلالٌ؛ لذا أفتى عليٌّ بن أبي طالب بقتله، ومن أصرَّ معه على تحليلها، ولما راجعوا أمرها أقَامَ عليه الحدَّ.

كذلك فإنه يستهين بعذابِ النار في سبيلها فيشربها صرفاً، تمادياً في الإثم، وإيغالاً في المعصية قائلاً(١):

ألا اسقني يا صاحِ خمراً فإنني ... بما أنزلَ الرحمنُ في الخمرِ عالمُ

وجدْ لي بها صرفاً لأزدادَ مأثماً ... ففي شربِها صرفاً تتم المآثمُ

هي النارُ إلا أنني نلتُ لذةً ... وقضيتُ أوطاري وإن لامَ لائمُ

والأبيات – بما تحمل من تحدٍ صارخٍ للشريعة السمحاء، وتهكم عليها تؤكدُ – أنه كان سادراً غافلاً – ولربما نظَّمها وهو سكران – لكنها على الصعيد الفني جاءت قوية البناء، محكمةَ النسج، جزلةَ العبارة، قويةَ التراكيب.

ونطالعُ في القسم الثاني من حياته عندما تاب وأناب، فيعاهدُ اللهَ ألا يعودَ إليها، ويطمع في مغفرةٍ من عندِ الله، فهو الغفورُ الرحيمُ قوله(٢):

أتوبُ إلى اللهِ الرحيمِ فإنَّهُ ... غفورٌ لذنبِ المرءِ ما لَمْ يعاودِ

ولستُ إلى الصهباءِ يوماً بعائدٍ ... ولا تابعٍ قولَ السفيهِ المعاندِ

فالناظرُ – في البيتين السابقين – يرى أنهما يمثلان الاتجاه المعاكسَ شكلاً وموضوعاً هذا على جانب ... على جانب آخر فإن البيتين – هنا – يتضمنان عاطفةً إيمانيةً صادقةً، ورغبة أكيدة في التوبة، لكن المستوى الفني، أو الصياغي ضعيف، مترهلٌ على وجه التعبير، كَلٌّ على دلالاته، أينما نأوله فإنه لا يأتي بذي طائل. وهنا

(١) انظر: ديوان أبي محجن ص١٥، مطبعة بريل، سنة ١٨٨٧م.
(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٢.

يرى يحيي الجيوري أن أبا محجنٍ، لم يكن قد شارك بشعره في المعارك التي قامت بين المسلمين والمشركين، بل كل ما لديه من شعرٍ له مساسٌ بالإسلام، هو الشعرُ المتعلــقُ بالخمرِ ليس غير[1].

ثانياً: الشعراء المنافقون:

سبق أن قلنا: إن المنافقين من الشعراء الذين تظاهروا بالإسلام – مبطنين الكفرَ – كانوا ضعافَ الإيمان، مزعزعي العقيدة؛ لأنها لم تتغلغلْ في نفوسهم؛ لتستقر راسخة في صدورهم، فرأيناهم يكيدون للإسلام مستغلين ما وهبهم اللهُ من فــيضِ الشــاعرية، والروعةِ البيانيةِ، والنجدةِ البديهيةِ أو النزعةِ السلقيةِ – في خــداعِ النــاسِ وتضــليلِهِم، وجذبهم إليهم حيثُ كان هدفُهم الأولُ هو الطعنُ في الإسلام، وحدوثُ الشرخِ الأعظــمِ بين أفرادِ الأمةِ الإسلاميةِ.

من بين هؤلاء نذكرُ أبا عفك، وهو أحد بني عمرو بن عوف الذي حرص على تحريضِ الأنصارِ من أولاد قيلة؛ للسخريةِ من شخصية رسول الله (ﷺ)، كما زعمَ بــأن التشريعَ الإسلاميّ يخبطُ خبطَ عشواء، إذ لا يفرق بين الحلال والحرام فقال[2]:

لقد عشتُ دهراً ومَــا إن أرَى ... منَ النَّاسِ داراً ولا مَجْمَعــاً
أبــرَّ عُهُــوداً وأوفَــى لِمَــنْ ... يُعَاقِــدُ فــيهمْ إذا مــا دَعَــا
من أولادِ قَيْلَــةِ فــي جَمْعِهِــمْ ... يَهِدُّ الجبــالُ ولــنْ يَخْضَــعَا
فصــدَّعُهم رَاكِــبٌ جــاءَهُم ... حــلالٌ حــرامٌ لشــيَّ معــاً

فقال (ﷺ): "من لي بهذا الخبيثِ؟" فخرج سالم بن عمير فقتله، وكان من حصادِ ذلك المُرِّ أن أظهرَ نفاقَ "عصاء بنت مروان المخبوء – إحدى شــواعرِ المنافقــات – حيثُ عابت وتطاولت على الإسلام وأهله، ولامت موبخةً أنصار النبيّ – عليه السلام – من بني مالك وبني عوف، وبني الخزرج، وزعمت أنه يفرضُ الإتــاوةَ علــيهم، كمــا

(١) انظر: شعر المخضرمين وأثره في الإسلام، ط٣، ص١٩٠.

(٢) انظر: الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلفاء الراشدين، ص١٩٩ للدكتور السيد أبو ذكــري، مركــز معالجة الوثائق سنة ١٩٩٦م، نقلاً عن سيرة ابن هشام، ج٤، ص٢٤٤-٢٤٦.

زعمت أن قريشاً دون مراد ومذحج، بجانب هذا كله فلقد حرّضت على اغتيال النبي – عليه السلام – قائلة(١):

باستِ بني مالــكِ والنَّبِيْــتِ	وعوفٌ وباستِ بني الخَــزْرَجِ
أطعتُم أتــاوِيَّ مــن غيــرِكُمْ	فلا مــنْ مــرادٍ ولا مَــذْحجِ
تُرجُّونَهُ بَعْدَ قتْــلِ الــرؤوسِ	كما يُرْتَجى مَــرَقُ المنْضَــجِ

وحيثُ بلغَ رسول الله – عليه السلام – شعرها، قال: "إلا أخــذَ لِي مــن ابنــةِ مَرْوان"..فسمع قوله عمير بن عدى الخطمي، فسرى إلى بيتها وقتلها، ولما أصبح قال: يا رسولَ الله، إني قتلتها. فقال: "نَصرَتَ الله ورسوله يا عميرُ". فقال: هل على شيءٍ من شأنها يا رسولَ الله؟ فقال: "لا يَنْتَطِحُ فيها عنزان".

هذا النوع من الشعر كثيراً ما كان يثيرُ القلاقل والفتن، ويحركُ الشرَّ الدفين في النفوس، ويحملُ الأفئدة على الضغينةِ والكراهيةِ، ويحرض على الاغتيال حيــث كــان كالنار التى تحتَ الرمادِ لم تزل يتحفزُ للاشتعال.

وعلى كلٍّ فإن النصوص التي وصلت إلينا لا تعكسُ الصور كاملةً تلــك التــي تبرزُ شعراءَ هذه الطائفةِ، سوى أبي عفك وعصماء، لارتباط أخبارهما بشخص النبي (ﷺ).

ثالثاً: شعر اليهود:

بما أن اليهود أصحاب كتابٍ قد عرفوا – بمقتضاه – وحدانيةَ الله تعالى فقد كان لزاماً عليهم أن يتحلُّوا برجاحةِ العقل، وحصافة الفكر، وسماحةِ القلبِ، وجمالِ التعامل، ونبلِ الوسيلةِ، وسمو الغايةِ؛ لكنهم أعلنوا التحدى والتصدى للإسلام بمجرد مجيئه حيث عاونهم كفارُ قريش، فرأيناهم يرفعون رايةَ التمرد والعصيان ضد المسلمين، ويتحالفون مع قريشٍ في حربهم غيرِ العادلة .. ييكون قتلاهم في بدر، ثم أشهروا سيوفهم؛ ليقاتلوا المسلمين محاولين إيقافَ المسيرة الظافرةِ الموفقة.

أجل إنهم نفرٌ، سكنوا المدينةَ، وقراها المنتشرة في خيبرٍ وتيماءَ، ووادي القرى، هذا بالإضافة إلى مهدهم الأول يثربَ ذاك الموطنُ القديم حيثُ يقال:

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلفاء الراشدين، ص١٩٩، نقلاً عن سيرة ابــن هشــام، ج٤، ص٢٤٤–٢٤٦.

"إن موسى عليه السلام، كان قد بعث جيشاً من بني إسرائيل إلى العماليق – سكان يثربَ – فانتصر عليهم وأفناهم، ثم أقام بنو إسرائيل في يثرب بعد وفاة موسى، ثم لما ظهر الروم على بني إسرائيل في الشام، خرج بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل هاربين منهم إلى إخوانهم بالحجاز، ثم توافدت العشائر اليهوديةُ، وصارتْ مُهاجَراً لهم[1]، ولما هاجر رسولُ الله (ﷺ) إلى المدينة، ووضع الكتاب بين المهاجرين والأنصار، وادعَ اليهودَ وآمنهم، فقال عليه السلام: "وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوةَ، غيرَ مظلومين ولا متناصرين عليهم"، وقد أقرَّهم على دينهم فقال: لليهودِ دينُهم وللمسلمين دينُهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته[2].

هذا ولقد أكرمهم الرسولُ حتى جعلهم مع المسلمين في مقامٍ واحدٍ متناصحين حيثُ كان ينصحهم، ويحذرُهم من سوء تصرفهم بقوله: "يا معشرَ يهود، احذروا من اللهِ مثل ما نزلَ بقريشٍ من النقمةِ، واسلموا فإنكم قد عرفتم أنّي نبيٌّ مرسلٌ تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم[3].

ما سبق كان موقفَ الرسولِ منهم إلا أنهم أَبَوا إلا الخيانة، ونقض العهد والمواثيق، وقتل الأنبياء بغيرِ الحق، والنفاق والزور والتشكيك وبخاصة الأحبارُ منهم، وكانوا يسألون رسولَ الله (ﷺ) أسئلة يريدون بها أن يشقُّوا عليه، أن يلبسوا الباطلَ لباسَ الحق، فكان القرآن الكريم لهم بالمرصاد، يكشف نواياهم، ويظهر باطلهم، قال تعالى: **(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ. وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)** سورة البقرة الآيات (٣٩، ٤٠، ٤١).

---

(١) انظر: شعر المخضرمين وأثره في الإسلام، ص١٩٣، نقلاً عن الأغاني، ج١٩، ص٩٤، طبعة الساسي.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٩٣، نقلاً عن السيرة، ق١، ص٥٠٣.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص١٩٤.

كما أن معركةَ "بدر" التي دارت بين المسلمين والكافرين من قـريش - حيـث انتصرَ المسلمون - لشاهدةٌ على أكاذيب اليهود، وألاعيبهم فقد أحزنهم انتصارُ المسلمين علىَ قلّتهم، وانتشار الدعوة، وكثرة المؤمنين فكان أول ما لجأوا إليه أن نقضوا العهـد الذي بينهم وبينَ المسلمين، وكان بنو قينقاع أولَ يهود خانوا وحاربوا بين "بدر وأُحد"

لقد تمادوا في غيهم، وحرضوا الناسَ لحرب المسلمين فما كان من المسلمين إلا أن أعدوا العدّة لهم وتحاربوا؛ لكن اللهَ نصر دينه، وهزمَ أعداءه.

وبالنظر إلي شعرهم فقد قال ابنُ سلام: "وفي يهود المدينـة، وأكنافهـا شـعرٌ جيدٌ"[١]، لكننا لا يعنينا من هذا الزخم سوى الشعراء الذين أدركوا الإسلامَ، وقد وقفـوا موقفَ العداء منه. من هؤلاء الشعراء كعب بن الأشرف الطائي نسباً لأبيه، والنضيري لأمه حيثُ كان أكبَر شعراء المدينة منزلةً، وأشدهم تعصباً ضد المسلمين لعدائه للـدين الإسلامي، وحرصه على حرب المسلمين حيثُ أفزعه انتصار المسلمين في "بدر" رغم قلتهم، وهو شاعرٌ فارسٌ، له مناقضاتٌ مع حسـان، وكثيـر مـن شـعراء الإسـلام، وخصوصاً في الحروب الدائرة بين الأوس والخزرج، وكثيراً من المسلمين قـد نالتـه أعراضُهم فضلاً عن هجائه رسولِ الله وصحابته الكرام، حتى بلغَ من هجائه أنه كـانَ يحرّضُ على الرسول (ﷺ)، وينشدُ الأشعارَ، ويبكي أصحاب القليب من قريش[٢].

ولما رجع كعب إلى المدينة كان يجاهرُ بعدائه للمسلمين، فشبب بنسائهم، وشهّر بأعراضهم، فاستأذن نفرٌ من المسلمين رسولَ الله (ﷺ) في قتله، فاستدرجوه، وقتلـوه[٣] وكان مقتله سبباً في رعب اليهود، ومن معهم من المشركين.

ونقرأُ - على مضض بعد أن نجرَّ -على العيون- ذيلَ الإغضاء - شعرَ كعب ابن الأشرف الذي ذكر في رثاء أصحاب القليب، وفي التحريض ضد المسلمين عنـدما أسرعَ إلى مكةَ يثيرُ الحزنَ، والحقدَ في نفوس القرشيين لقتل رؤسهم في "بدر" بقوله[٤]:

---

(١) انظر: طبقات الشعراء، ص٢٣٥.

(٢) انظر: السيرة، ق٢، ص٥٢..

(٣) انظر: الأغاني، ج١٩، ص١٠٦-١٠٧، طبعة الساسي.

(٤) انظر: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ط٣، ص١٩٧.

طحنَتْ رحى بدر لمهلـك أهلـه ولمثل "بـدر" تُسْـتَهَلُّ وتَـدمَعُ
قُتِلَتْ سراةُ الناس حولَ حياضهم لا تَبْعـدوا إن الملـوكَ تُصـرَّعُ
كم قد أُصيب به من أبيضَ ماجد ذي بهجة يأوي إليـه الضُـيَّعُ[1]
طلق اليدين إذا الكواكبُ أخلفـتْ حمَّالُ أثقـال يسـودُ ويربَـعُ[2]
ويقولُ أقـوامٌ أسـرُّ بسـخطهم أنّ ابنَ الأشرف ظلَّ كعباً يجزعُ[3]

هذا ولقد كان لهذه القصيدةِ وقعٌ شديدُ الأثر على نفوس المسلمين، فانبرى حسان يفِّندُ أكاذيبه؛ ليسكت لسانه البذيء، كذلك فإن ميمونةَ بنتَ عبد الله المسلمةَ قد ردّت على كعب بستة أبيات نذكر منها:

تحنَّنْ هـذا العبـدُ كـلَّ تحـنُنٍ يُبكِّي على قتلى ولـيس بناصـبِ
بكت عينُ من يبكى لبدرٍ وأهلـه وعلت بمثليها لـؤَيُ بـن غالـبِ
فليتَ الـذين ضُـرجوا بـدمائهم يُرى ما بهم من كان بينَ الأخاشبِ

لكنه ردَّ عليها بقطعتين الأولى إسلامية خالصة، والأخرى إباحية معادية للإسلام

ننتقل إلى شاعرٍ آخرَ من المعادين للإسلام وهو أوس بن دني القرظي اليهودي حيث كانت له امرأةٌ من بني قريظة، أسلمت وفارقته، ثم نازعتها نفسـها إليـه فأتتـه وجعلت ترغِّبه في الإسلام فقال أوس[4] في ذلك:

دعتني إلى الإسلام يـومَ لقيتُهـا فقلْتُ لها لا بـلْ تعـالى تهـوَّدي
فنحنُ على توراة موسى ودينـه ونعمَ لعمري الـدينُ ديـنُ محمـد
كلانا يـرى أنَّ الرسـالةَ دينُـهُ ومَنْ يُهدَ أبواب المراشـد يُرْشَـد

من خلال عرضنا لما سبق نستطيع القول: بأن اليهود نجحوا في جذبِ بعـض الشعراء إليهم؛ لتكوين جبهةٍ معادية للإسلام، والرسولِ الكريم حيثُ روت لنا كتبُ التاريخ كثيراً من هؤلاء، ربما لأن شعراء اليهود قد نهجوا نهجَ قريشٍ في عدائهم للدين الإسلامي؛ لذا جاء صورةً مماثلةً بل امتداداً لشعر مكةَ آنذاك؛ ولأن اليهود أصحابُ كتاب، وثقافـة

(١) الضيع: جمع ضائع وهو الفاقد لكل معنى أو هدفٍ في الحياة.
(٢) أخلفت: لم يصاحبها مطر، وكانت العرب تعزى هطول الأمطار إلي الكواكب يربع يأخذ حصـة الـرئيس من الغنيمة، وهي الربع.
(٣) يبدو لي أن (تقول) مصحفة من يقود حتى يستقيم البيت مع نغمة الوزن.
(٤) انظر: السيرة، ق٢، ص٣٣٣، والأغاني، ج١٩، ص٩٧، طبعة ساسي.

دينية، واتصالٍ مباشرٍ بالمسلمين في المدينة؛ لذا فقد كان من المؤملِ في شـــعرائهم، أن يتعرضوا للدينِ الإسلامي، ويحاجُّوا المسلمين، كما حاجَّ بعــضُ أحبـــارِهم رســـولَ اللهِ (ﷺ)، بمسائلَ دينية، أو بما جاءَ في دينهم في التوراة[1].

لقد اتخذ اليهودُ الشعر سلاحاً فاعلاً –أي فاتكاً– للنيلِ من المســلمين، فراحـــوا يحرِّضُون قريشاً، ومن والاهم على حرب المسلمين واستئصالهم، ثـــم يبكـــون قتلـــى المشركين، وذكر البلاء الذي أصابهم في يوم قُرَيظةَ والنضيرِ.. كلُّ هذا دليـــل علـــى كيدهم للمسلمين.

هذا ونحاولُ الوقوفَ على المستوى الفنِّي لشعر هذه الفترة فنجد أنه من الصعوبة بمكان – إصدار أي حكمٍ طالما أن المجموعَ الشعري جاء في شكل مقطوعاتٍ اكتنفتهـــا السرعةُ الفنية وذلك؛ لأن شعراءَه كانوا يلهثون وراء الأحداث؛ لكن ما يدعو للغرابة هو اختفاء المعنى الديني بكل صوره حيث كانت المهاجاة والملاحاة تقومُ بين أحبارِ اليهودِ، وبينَ الرسولِ والمسلمين حول الإسلام ومبادئه.

رابعاً: شعراء الشِّرك:

ويقصد بهم الذين أدركوا الإسلام لكنهم بقوا على وثنيتهم، وأصرُّوا على كفرهم واتخذوا شعرهم سلاحاً أشهروه في وجوه المسلمين، ورسولهم الكريم (ﷺ).

من هؤلاء أبو عزة الجمحي الذي يحرضُ فيها بني كنانةَ وقد قيل عنه: إنه كانَ شديدَ العداوةِ للهِ، ورسولِهِ الكريمِ.

ننظر إليه وهو يقول في تحميسِ وتأليب العرب على المسلمين يوم "أحد" حيـــثُ خرج في تهامة يدعو بني كنانة[2]:

يـا بني عبدِ مَنَـــاةَ الـــرُّزَامْ   أنتُم حُمَـــاةٌ وأبـــوكُمْ حـــامْ

لا تعِدُونيَ نصرَكُم بعدَ العـــامْ   لا تُسلِمُوني لا تحلُ إســـلامْ

وهناك مسافع بن عبد مناف الجمحي الذي حرض بني مالك بن كنانة على قتال المسلمين، ويدعوهم إلى حرب الرسول قبيل أُحد فقال[3]:

---

(1) انظر: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ليحيي جنبوري، ط٣، ص٢٠٩.

(2) انظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين لصلاح الدين الهادي، ص٢٣٧.

(3) انظر: المصدر نفسه، ص٢٣٧.

يا مالِ مـــالِ الحســـبِ المقـَّــدمْ		أنشد ذا القُربى وذا التـــذمُمْ

من كان ذا رُحْمٍ لو لـــم يَـــرْحَمْ		الحلفُ وسْط البلـــد المحـــرمْ

عندَ حُطَـــيمِ الكعبـــةِ المعظَّـــمْ

ولما انتهى من موقعة أحد- وتخيلت قريش أنها انتقمت لقتلاها في بدر- انطلق شعراؤها يفخرون بالنصر، ويمتدحون بالبطولة، ويتشفُّون بقتلى المسلمين وبخاصة قتلُ سيدِ الشهداء حمزة عمِّ الرسول، حتى رأينا ضرار بن الخطاب الفهري يزهو ببطولـــةِ وبسالة فرسان قريشٍ ويفخر بما أحرزوه من نصرٍ، وبما أصابوا من فرسانِ المســـلمين فيقول[1]:

إني وجـــدِّك لا أنفـــكُّ منتطقـــاً		بصارمٍ مثلِ لونِ الملْـــحِ قَطـــَّاعِ

على رحالـــةِ ملْـــوَاحٍ مُثـــابرةٍ		نحوَ الصريخِ إذا ما ثوَّبَ الداعي

وهناك عبد الله بن الزبعري السهمي الذي بكي قتلى بدر وقد ذكر رؤساً مـــنهم مبرزاً مصاب قريش فيها حيث لقوا هزيمة قاسية قائلاً[2].

ماذا على بدْرٍ ومـــاذا حَولَـــه		منْ فتيةٍ بيضِ الوجوهِ كـــرَام

تركوا نَبيها خلفهـــم ومُنيِّهـــا		وابنْي ربيعةَ خيرُ خصمٍ فئـــام

خلاصة ما سبق: فإن شعر أهل الشرك جاءَ محافظاً على نمطهِ الجاهلي شكلاً ومضـــموناً، وهذه المحافظةُ جاءت نتاجَ عدةِ عواملَ أهمها:

أن المشركين لم يقرُوا بصحةِ الدينِ الجديدِ، ولم يتعصبوا لعقيدتهم الوثنية، كمـــا أنهم ليسوا على درجةٍ من التحضر، بل عرفوا بتعصبهم القبلي الذميم، وعدائهم الشـــديدِ لأهل المدينة هذا ولقد اختلفت نظرةُ المشركين للحربِ حيثُ اعتبروها أنها فـــي ســـبيلِ الزعامة والسلطة القبلية قبل أن تكون في سبيل العقيدة،أوأي شئ آخر؛ لذا هنـــا فلقـــد اصطبغت النقائضُ بصبغةٍ دينيةٍ عندِ المسلمين إذ تطبعت وتشكلت على حسب طبيعـــةِ الصراع القبلي بكل صوره وألوانه.

---

(1) انظر: الأدب في عصر النبوه والراشدين لصلاح الدين الهادي، ص٢٣٧-٢٣٨.

(2) انظر: السيرة، ق٢، ص١٥، الغنام: جماعات من الناس.

أثر الإسلام في شعر المخضرمين:

اصطبغ الشعر – في صدر الإسلام – بما اصطبغت به نفوسُهم من مشاعرَ وعواطفَ صادقة رسختها العقيدةُ القويةُ، ودعمها الإيمانُ بالله المتين، وأذكتها تعاليم الإسلامِ الساطعةِ تلك التي بينّها القرآنُ الكريمُ، وفصلتها السنةُ النبويةُ المطهرةُ.

من هنا فإن شعر المخضرمين لابد أن يرتوى من ينابيعه الصافية لذا سنجد كل هذا ماثلاً في شعرِ الفتوحِ الإسلاميةِ حيثُ نلمس – بوضوح – التأثر –المباشر– بألفاظِ القرآنِ الكريم، وأساليبه ومعانيه .. ولعل في قصة عمر بن الخطاب مع المغيرة الشعبي التى سقناها سابقاً بشأن لبيد والأغلب العجلي أكبرُ دليلٍ على ذلك.

على كل فإن –من الشعراء الذين تأثروا بأساليب القرآن ومنهجه وألفاظه ومعانيه –حسان بن ثابت الذي اقتبس قوله تعالى:(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) سبأ آية (٢٤). في الرد على أبي سفيان بن الحارث حيث هجا النبي (ﷺ) وخاطبه بقوله:

أتجهوهُ ولستَ لـهُ بكـفءٍ فشـرُكما لخيركمـا الفـداء

وتأثر حسان بقوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) سورة التوبة الآية (١٢٨)، مستخدماً إياه في رثاء النبي (ﷺ) قائلاً:

عزيزٌ عليه أن تحيدوا عن الهدى حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا

كما تأثر حسان بقوله تعالى: (إلا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) سورة التوبة الآية (٤٠) في حديثه عن أبي بكر الصديق حيث قال:

والثاني اثنينِ في الغارِ المنيفِ وقد طافَ العدوّ به إذ يصعدُ الجبال

وعرض للإيمان الذي تملّك قلبه وجوارحه فأشار إلى ثمودَ عليه السلام قائلاً:

شهدتُ بـإذن الله أنّ محمـداً رسولُ الذي فوق السموات من علُ
وأنَ الذي عادَ اليهودَ ابنُ مريمَ رسولٌ أتي من عند ذي العرش مرسلُ
وان أخا الأحقـافِ إذ يعذلُونَـهُ يقـومُ بـدينِ الله فـيهم ويعـدلُ

فتأثر في إشارته بقوله تعالى (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَـوْمٍ عَظِـيمٍ) سورة الأحقاف الآية٢١. وأخذ عبد الله بن رواحة قوله تعالى (النارِ مثوًى لهم)

شهدتُ بأنَ وعـدَ اللهِ حـقٌّ   وأنّ النـارَ مثـوًى الكافرينـا

وهناك النمر بن تولب، وهو ممن أدركوا الإسلامَ "وقد علت سننهم فسنرى فـي شعره آثاراً واضحةً من تلاوته للقرآنِ الكريمِ على شاكلة قوله:-

ومتى تُصبْكَ خَصاصةٌ فارجُ الغنى   وإلى الذي يُعطى الرَّغائب فارغبِ

حيثُ تأثرَ بقوله تعالى "ولوْ كانَ بهِمْ خَصَاصَةٌ .." (الحشر آية ٩).

كما يجدرُ بنا أن نمثلَ لطائفةٍ من الشعراء قد تتضح في شعرهم بعضُ مظـاهرِ هذا الأثرِ في الأغراض والألفاظ والمعاني حيثُ نذكرُ منهم كعب بن زهير القائل[١]:

رحلتُ إلى قومي لأدعوَ جُلَّهـم   إلى أمرِ حزمٍ أحكمتهُ الجوامـعُ
ليُوفوا بما كانوا عليه تعاقـدوا   بخيفِ منى واللهُ راءٍ وسـامعُ
سأدعوهُم جهدي إلى البرِّ والتقى   وأمرِ العُلا ما شايعتني الأصابعُ

فنرى كعباً يدعو قومه للتمسك بالإسلام وفاءً بما بايعوا عليه الرسول بمنى حيثُ نراه يذكرُ (اللهُ راءٍ وسامعُ، البر والتقى) وكلُّها معانٍ وألفاظٌ إسلاميةٌ خالصة وقد استقاها من المعجم القرآني الثري بألفاظه العظيمةِ.

من خلال ما سبق عرضه فإن الإسلامَ بمبادئـه، والقـرآنَ بألفاظـه ومعانيـه وتشريعاته السامية، والحديث النبوي بما أضاف للمعجمين - اللغوي والبياني- كل هذا كان نهراً دفَّاقاً امتاح منه الشعراءُ بما يشحذ عقـولهم، ويصـقلها، ويرقـق عـواطفهم ويشذِّبُها، حتى استقرت النفوسُ، واطمأنت القلوبُ، وقد بصُرت بنورِ القـرآنِ الكـريم حفظه له ورعاه.

---

(١) انظر: ديوانه ص١١٢، طبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٥٠م.

خصائص شعر المخضرمين:

بعد أن عرضنا حديثاً مفصلاً للشعراءِ المخضرمين على اختلافِ بيئاتهم التي شكلت عقائدَهم وسلوكياتِهم وأخلاقَهم، وتعرفنا على أطوارِ الشعرِ في عهدِ الرسولِ والخلفاءِ من بعدهِ ثم تمثيله الصادقِ لأحداثِ عصرِه -فإنه يمكننا رصدُ الخصائصِ التي تميزَ بها هذا الشعرُ دونَ سواه- وأهمُّ هذهِ الخصائصِ التي ينفردُ بها هؤلاءِ المخضرمون طابعان:

أولاً: الجاهلي:

من الواضح أن شعر المخضرمين قد احتفظ بطابعه الجاهلي لاسيما في منهج القصيدةِ فرأينا المقدماتِ الطلليةَ، وتعددَ الموضوعاتِ في القصيدةِ الواحدة، وكذلك الأداء والأسلوب فضلاً عن هذا كله فإننا نلمسُ سماتٍ عامة متمثلةً في الإيجازِ، وقوةِ التعبيرِ وجزالةِ الألفاظِ، وروعةِ الأوصافِ وبخاصة عند شعراء الباديةِ، وأهلِ مكةَ فإنهما لا يبعدان عن الشعرِ الجاهلي كثيراً، ولعل هذا راجعٌ لعدة عواملَ قد فصلنا الحديثَ فيها سابقاً، أما شعراء المدينة فلقد تأثروا بالإسلام ذلك الدين الجديدِ من حيثُ وضوحِ المعاني وروعةِ الأساليبِ، وبراعةِ التراكيبِ، وظهرَ التأثرُ الواضحُ بالقرآنِ الكريمِ، والسنةِ المطهرةِ.

وبشكل عامٍ فإن المنهجَ الجاهلي كان السلطانَ الذي فرض كلمته سواءً من جهة أساليبهم أو موضوعاتهم من مدحٍ وهجاء وفخر ورثاء.

إننا إن خلنا في ذلك فنظرة إلى قصيدة نهج البردة (بانت سعاد) لكعب بن زهير حيثُ نرى المطلعَ التقليدي الطللي المتمثل في الغزل الصناعي وقد جرى عليه العرفُ الجاهلي مجرى قائماً بغض النظر أن تكون سعادُ رمزَ النماء، أم رمزَ الربيعِ والحياةِ كما فسرها النقادُ المعاصرون في ضوءِ الدراساتِ الحديثةِ.

على أية حالٍ فالطابعُ الجاهلي سيطرَ على المقدمةِ، ثم موضوعِ الاعتذار ذاك الفن المعروف كذلك فإنه وهو يمدح الرسولَ كأنما يمدحُ أحدَ الملوكِ دفعاً للأذى..! وحال كعب بن زهير كغيره من المخضرمين أمثال كعب بن مالك، وحسان بن ثابت.

نخرج مما سبق بأنه لم يحدث التطور المتوقع في القصيدة العربية الإسلامية بل كان وئيداً، وفي مساحة ضئيلة لم يستطعْ فيها أن يعربَ عن نفسه، أو يكشف عن ملامحه.

ونتساءل عن السبب في ذلك فنرى أن:

أولاً: النقلة العقدية من زمن الجاهلية إلى الإسلام بكل تبعاتها الفكريةِ والإنسانيةِ والروحيةِ والسياسيةِ كانت سريعةً سرعةً آنيةً، ومن الطبيعي أن تصاحبَ سرعةَ الحياةِ سرعةٌ فنيةٌ لدى الشعراء .. فسرعةُ الأحداث، ومدى تفاعل الشعراء معها سلباً أو إيجاباً، قد يجعلهم ماضين على ما هم عليه – سلفاً – وخصوصاً أن مشاعرهم وتجاربهم تتدفق وتتلاحق فلم يعد لدى الشاعر وقتٌ يبحثُ فيه عن قوالبَ بديلةٍ عما يملكها .. من هنا ظهرَ الثباتُ النسبيّ.

وبمرور الزمن وهدوء الأحداث تهدأُ معها النفس ثم يجيء بعدها التجانسُ والتواؤم وقتها تصطبغُ الألفاظ بمؤثرها الديني فتستدعي المعاني الإسلامية المقتبسة من كتاب الله وسنّته في ألفة وانسجام، لذا فلا شذوذَ ولا غرابةَ أن تشيع الروحُ القبليةُ في شعر الشعراء المسلمين مع أن الإسلام يبغّض من هذه الروح، ويضع في نفوس القوم مفهومَ الأمة مكان القبيلة[1] ..

ثانياً: إن أغلب الشعراء الذين ترجموا المثاليةَ الجاهليةَ قد قطعوا أشواطاً كبيرةً من مراحلِهم السنيةِ في الجاهليةِ تلك الفترةِ التي قد بلغوا فيها حدَّ الكمالِ الفني، أو الفحولة الشعرية فكانت الجاهليةُ مسرحَ الشفافية الفنيةِ لديهم؛ لذا تأصلت عندهم أفانينُ قولهم، وجمالياتُ تعبيرهم، وروعةُ بيانهم فيما قضوا فيه أغلبَ أعمارهم، من هؤلاء حسان ولبيد وكعب بن زهير والنابغة والحطيئة وغيرهم وقد صعب أن يستمروا على ما كانوا عليه من تفوقٍ فنيٍّ فالموهبةُ الشعريةُ كالكائن الحيّ تُولَدُ وتشبُّ وترعرعُ ثم تزكو وتخبو؛ لذا فإن بعضاً من الشعراء المخضرمين قد توقفوا عن نظم الشعر.

---

(١) انظر: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ط٣، ص٣٤٩.

وقصة لبيد مع عمر بن الخطاب التي سقناها في موضع سابقٍ لأكبر دليلٍ على ما ذهبنا إليه ظناً؛ كما إن درج النقاد المخضرمين في عداد الشعراء الجاهليين لأكبرُ دليلٍ على اعتبارهم امتداداً طبيعياً لفنية المثالية الجاهلية طالما أنهم لم يكشفوا النقاب عن وجههم الفنى الإسلامي بالصورة المثلى.

ثانياً: الإسلامي:

لقد ظهر جلياً في ذلك العصر وبخاصةٍ في المدينة؛ لأنها القاعدةُ التي انطلق منها المسلمون مهاجرين كانوا أو أنصاراً؛ لينشروا الدين الحنيفُ في شتى بقاعِ المعمورةِ. وهنا يقول الدكتور يحيى الجبوري: "إذا صح أن تطلق كلمة الشعر الإسلامي في هذه الفترة فإنها تتمثلُ في شعر المدينة الذي مثل الدينِ الجديدِ دون غيره"[1].

هذا ولا نزعم أن هذا الشعر استطاع أن يعكسَ قيمَ المجتمعِ الجديدِ، ومبادئه الدينية على الصورة المثلى وذلك؛ لأن الشعراءَ لم يستطيعوا تفهم تلك القيم والمبادئ، كذلكِ فإنهم لم يستطيعوا التخلصَ من تقاليدهم الفنيةِ الموروثة بسهولة.

من هنا فإن أثر الدين اقتصرَ على استعمال الألفاظ، والتعبيرات الدينية، وذكر أحداث ومناسبات إسلاميةِ فكل هذا يدخل في مرحلة الاقتباس لا الإبداع إذ أنَّ أغلب شعرِ هذه الفترةِ ضعف فيه الأثر الديني المباشر حيث إن أغلب قصائد هذه الفترة غلبت عليها النزعة الحماسية وما يصاحبها من فخر بالنسب، أو وصف للمعركة، أو هجاء لأعدائه

فإذا عولج أي موضوع إسلامي ما فإنه يقتصرُ على ذكر القرآن والرسول والجهاد، أو الهدي إذ يعبرُ عنه، ثم يردفه بمعانٍ جاهلية.

على كل فإن شعر المخضرمين مثَّل العصرَ، وأرخَ وترجمَ الأحداثَ التي كانت دائرةً بين المسلمين والمشركين بشكلٍ أو بآخرَ.

(١) انظر: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ط٣، ص٣٥٠.

موضوعات شعر المخضرمين:

معروف أن الإسلام حرم كثيراً من موضوعات شعر المخضرمين خصوصاً التي حاربت العصبياتِ والخمرَ، وقاومت الهجاءَ القبلي القذعَ، والغزلَ الفاحشَ، كذلك فإنه لم يشجعْ على رحلاتِ اللهوِ والقنصِ .. وكلُّ هذهِ الأمورِ كانت وقوداً جزلاً لشعلة الشعر، فلما قاومها الإسلامُ اقتصرت أغراضُ شعر المخضرمين على مناقضة شعر المشركين، وعلى مدحِ رسولِ اللهِ (ﷺ) وأصحابه وغيرها من الموضوعات التي اختلف مضمونها عن ذي قبل سواءٌ في المعاني؛ أو في رقةِ الألفاظِ وعذوبتِها، أو في الأسلوبِ والتركيبِ، أو في الخيالِ الشعري وما إلى ذلك مما يحتاجُه التعبيرُ.

على كلٍّ فإنه يمكننا تقسيمُ موضوعاتِ شعر المخضرمين قسمين:

الأولى القديمة: وفيها عالجَ شعراءُ عصرِ الرسول، والخلفاءُ الراشدين موضوعاتِ الشعرِ القديمةِ من مدحٍ وهجاءٍ وحماسةٍ وفخرٍ ورثاءٍ، ووصفٍ، واعتذارٍ، وحكمةٍ، وقد أدخلوا عليها ما يتناسبُ مع روحِ الدينِ الجديدِ بكلِّ توجُهاتِه، وتداعياتِه كما تتناسبُ مع طابعِ الحياة التي أحدثها الإسلامُ ..

من هذه الموضوعاتِ نذكرُ:

أولاً: المديح:

هو فن الثناءِ والتقديرِ، والإشادةِ والإكبارِ يثني فيه الشاعرُ على الممدوح؛ فيعدد فضائله الكريمةَ، ومناقبه العظيمةَ، ويشيد بأخلاقه الساميةِ، ومزاياه الرفعيةِ وفي هذا الدليل الأكبر على أدب المادح، ووفائه، وكريم أخلاقه، اللهم إلا إذا كان بدافع الاستجداء رجاء نيل الهبات والعطايا هذا ولقد نهى عنه الرسول، وسار على نهجه الخلفاءُ الراشدون، أو بدافع الإعجاب بالممدوح، وأي إعجاب بالممدوح وهو رسولُ الله (ﷺ) بحيثُ خصّ بكل ما مدحه القرآنُ من أجلِّ الصفات، وأسناها، وشريف الطباع، وأجملها، تلك التي تتناسب مع حضرته (ﷺ) بعيداً عن المبالغة أو المغالاة من هذا نذكر ما مدحه به أبو دهبل الجمحي فقال:

عقمَ النساءُ فما يلدنَ شبيهَهُ ... إنَّ النساءَ بمثلِهِ عقمُ

وهناك من راح يشيدُ، بعظمة الرسالةِ وشموليتها وهنا، نقرأ قول العباس:

رأيتُكَ يــا خيــرَ البريــةِ كلِّهــا نشرتَ كتاباً جاءَ الحقُ معلمــاً
ونوَّرتَ بالبرهانِ أمــراً مُدمَّســاً وأطفأتَ بالبرهانِ ناراً مُضَرَّما

حيث يثني على رسولنا ثناءً يليق بذاته وعظيم أخلاقه، معدداً مفاخره، وفضائله، ومزاياه الرفيعة، فهو خيرُ البريةِ حيث جاءَ بالحقِ، وأخرجَ الناسَ من ظلماتِ الجهلِ إلي نورِ الحقِ والمعرفة واليقين...... وقريباً من هذا المعنى قال حسان بن ثابت:

أتانا نبــيٌّ بعــد يــأسٍ وفتــرةٍ من الرسلِ والأوثانُ في الأرضِ تُعْبَدُ

حيث يتضح التأثرُ البالغُ بعظمةِ القرآنِ فنرى الرسول القائد الأعلى والنمــوذج الأسنى قد أحالَ الظلام نوراً بعدما بدَّد ستائر –الوثنية البالية فبرزَ الإسلامُ ناصعاً رائعاً.

ويعلن مقدار ما حاز عليه الرسولُ (ﷺ) من حبِّ ربنا له حيثُ خصه بمزايا لــم يتميز بها غيره ولم لا؟ وهو الصادق الذي نزل عليه كلامُ الله حيث كشفَ الله له كثيراً من الأسرار فقال[1]:

نبيٌّ يرى ما لا يرى الناسُ حَولهُ ويتلو كتــابَ اللهِ فــي كــلِّ مســجدِ
وإنْ قالَ في يومٍ مقالــةَ غائــبٍ فتصديقُها في اليومِ أو في ضُحى الغدِ

إن وصف حسان الرسول بهذا المعنى يدل على تصديقه لدعوة النبي، وامتزاجه بروح الإسلام امتزاجاً كلياً.

وامتدح عبد الله بن رواحة رسولنا الكريم بأنه صاحبُ الشفاعة يومَ القيامة، وأن من يحرمْ شفاعته فسوف تسوءُ عاقبته، ثم يذهب ليساند الرسول فيدعو لدينه بالنصر والتأييــد فقال[2]:

أنتَ النبيُ ومن كُــرِمَ شــفاعتُهُ يومَ الحسابِ فقد أزرى بــه القــدَرُ
فثبَتَ اللهُ ما أعطاك من حســنٍ تثبيتَ موسى، ونصراً كالذي نُصِرُوا

وهنا آن للشعراء أن يفتخروا؛ لأنهم تبعوه في هدايته وساروا فــي درب نــوره مستظلين بواسع فضله ورحمته فنجدُ مثل هذا القول عند كعب بن مالك[1]:

---

(1) انظر: ديوانه، ص١٠.
(2) انظر: العمدة، ج١، ص١٤٠.

فينا الرسولُ شهابٌ ثـم يتبعُـهُ نورٌ مضيءٌ له فضلٌ على الشهبِ
بـدا لنـا فأتبعنـاهُ نصـدقهُ وكـذبوهُ فكنَّـا أسـعدَ العـربِ

هذا ولم يقف مدح الشعراء عند رسول الله بل تجاوزوه إلى الخلفاء[٢] .. من هنا اختلفَ مضمونُ القصيدةِ واختلفت معها أدواتُ التعبيرِ بحيثُ سادت الواقعيةُ في التعبيرِ، بل راحوا يؤكدون جملةَ المبادئ والأسسِ الإسلاميةِ لذلك جاءَ المدحُ إلي الشعرِ السياسي والتعليمي أقربَ منها إلى المدائحِ التقليديةِ.

وعلى كل فإن الناظرَ للمديحِ في الشعر العربي يلمسُ مدى ارتباطه في أذهاننـا بالمبالغةِ على طولِ تاريخه الفني لارتباطِه بالتكسب حيثُ اتخذَهُ الشعراءُ وسيلةً لكسـبِ الرزقِ؛ لكن مدحَ الرسولِ اتسمَ بالصدقِ خصوصاً من عرفوه حقَّ معرفـةٍ، وخضـعوا لتوجيهه، وأشرافه بحيثُ لم يضخموا صفاته، ولم يلحقوا به ما ليس فيه من الصفات[٣]. لكنهم عبروا عن عواطفهم الدينيةِ متقربين إلى اللهِ بالثناءِ عليه، ونشرِ تعاليمه، كما كانوا يرجون المثوبةَ على ما قدموه من دفاعٍ عن العقيدة التي تمكنت مـن قلـوبهم، فهـاموا بأرواحهم في الملكِ والملكوتِ.

ثانياً: الهجاء:

لاشك أن الهجاء في الجاهلية كان سلاحاً فتاكاً من أسلحة القتالِ، ينعت به الشـاعرُ خصومَه، أو من يبغضهم فيتوعدهم، ويهددهم ويعدد معايبهم؛ لينقصَ من أقدارهم..

وفي صدر الإسلام قد اتسعت رقعةُ الإسلامِ بعـد أن زادت أعـدادُ المسـلمين، وقويت شكيمتُهم حيثُ أذنَ الله لهم بقتالِ أعدائهم وقد أيّدهم بنصره .. من هنـا بـدأت المعاركُ الكلاميةُ مساندةً لمعارك السيف حيثُ جاءَ في السيرةِ النبويةِ أن الرسولَ (ﷺ) قال

---

(١) انظر: ديوان كعب بن مالك، ص١٣٤.

(٢) انظر: مديح الرسول في فجر الإسلام لصلاح عيد، ص١٥، دار غريب، سنة ١٩٧٥م.

(٣) انظر: أثر الإسلام في الشعر للسيد عبد القادر عويضة، ص٥٣.

لحسان بن ثابت – وقد أخذ في هجاء القرشيين – "لشعرك أشدُ عليهم من وقعِ النبل" ثم كـــان يدعو له بقوله: "**اللهم أيِّده بروح القدس**" وقال لعامة الشعراء: "**قولوا لهم مثلما يقولون**"

ولعل في هذا ما يصورُ مدى أثرِ الهجاءِ في نفوسِ العربِ حيثُ إنه كانَ سلاحاً لا يقلُّ عن أسلحتهم في القتالِ، وكثيراً ما يقالُ في الحِكَمِ "وقع اللسان أنكى من وقع السنان".

من هنا فإنه كان أداةً لا يُستهان بها في المعاركِ الكلاميةِ التي قامت بين الشعراء المسلمين وخصومهم إذ صار وسيلةً مؤثرةً من وسائلِ الدفاعِ عن الإسلامِ، وأعـــراضِ المسلمين.

ونتساءل عن مادةِ أو مضمونِ الهجاءِ الإسلامي فنجد أنها لم تتناولْ القذفَ فـــي الأغراض، أو ضعف القبيلة وخسة الأصل، والجبن ذاك الموروث الجاهلي؛ لكنها كانت تنديداً لمن بَعُدَ عن الحقِّ، أو تقريعاً بهزائم المشركين، ولربما تعريضاً بالألقـــاب؛ لأن الرسولَ الكريمَ – صلوات ربي عليه – لم ينسَ أن يوجِّهَ حسان إلى مادة الهجاء بقولـــه (اذهبْ إلى أبي بكرٍ ليحدثك بحديث القومِ وأيامهم وأحسابهم ثم اُهجهم وجبريل معـــك) فأتى أبا بكر "رضي اللهُ" عنه فأعلمَه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كُف عن فلانٍ، واُذكر فلانةً، هذا بالإضافة إلى التوجيه القرآني لمضمون هجاء المشـــركين حيثُ اعتمدَ على نبذ معتقداتهم الفاسدة، ومحو خرافاتهم الآسنة، وكشـــف مخططـــاتهم وفضحها، وذلك بقرعِ الحجةِ بالحجة سواءً أكانوا منافقين أو مشركين أو يهوداً هذا ولقد تأثر حسان بأساليب القرآن في وصفه أبا جهل بما كانَ يكرهُهُ حيث قال[1] له:

سماهُ معشرٌ أبـــا الحكـــمِ	**واللهُ ســـمَّاهُ أبـــا جهـــلِ**
وكأنهُ ممـــا يجـــيشُ بـــه	**مُبدئُ الفجورَ وسورةُ الجهل**

ويعيِّرُ حسان قريشاً بطاعتهم للشيطانِ، واستجابتهم لنداء الشرك بقوله:

طاوعوا الشيطانَ إذ أخزاهم	**فاستبان الخزيَ منهم والفشَلْ**
حينَ صاحوا صيحةً واحـــدةً	**مع أبي سفيانَ قالوا أعل هُبَلْ**

---

(١) انظر: شاعر الرسول حسان بن ثابت لعبد الجواد سليمان ص٥٨ مطبعة أحمد مخيمر.

ثالثاً: الفخر:

هو نبتٌ قد نما تلقائياً في نفوسٍ تطمح إلى العلياء والعزة والكمال، فإذا افتخر الشاعرُ بنفسه فهو افتخاز بالسؤدد والمجدِ والآباء والعفة والولاء، فضلاً عن كونه إعجاباً بشجاعة القلب، وفيضِ الشاعرية، وعظم المسؤوليةِ القبلية، وإذا افتخر الشاعر بقبيلته فإنه يجعل من شعره سجلاً لانتصاراتها، وأيامها وأحسابها. إنه -بحق- فنُ التغني بالتقاليدِ الأصليةِ ومثلها العليا، والتباهي بالسجايا النفسية.

أما بالنظر إلى الفخر -في صدر الإسلام- فإن الذاتيةَ[1] وجماعية الجاهلية قد حلَّ محلهما الفخر بالقيمِ الإسلاميةِ والأخلاقيةِ وبالرسالةِ السمحة تلك التي جاء بها ديننا الحنيفُ الذي أذاب الطبقية، وأحلَّ محلَّها الروحَ الجماعيةَ المستمدةَ من روح الإسلام؛ أملاً في أن تكون يدُ الله معهم، وهنا نقرأ قول النابغة الجعدي[2]:

وعمرتُ حتى جاءَ أحمدُ بالهدى ... وَقَوارعُ تُتلى من القرآنِ
ولبستُ الإسلامَ ثوباً واسعاً ... من سيبِ ولا حرمٍ ولا منانِ

حيث استبدل وحدةَ القبيلةِ بوحدةِ المعتقدِ المتمثل في الدين الجديدِ، وما أنعم عليه من خيرِ وغبطة بهذا الشرف العظيم.

هذا بالإضافة إلى افتخار المسلمين بتمسكهم بدينِ الله، وطاعتهم لرسوله الكريم (ﷺ) وتلمس الخير والفضيلة، وانتصارهم على أهلِ الشرك بأتييدٍ من الله، وملائكته، وهم في طريقهم إلى هذا كانوا يفتخرون بأدواتِ حربهم، وخصوصاً الخيولَ والسيوفَ. نذكر منها فخرَ حسان بسيوف المسلمين التي تغلبت على سيوف الأعداءِ حيثُ قال:

وسيوفُنا بيضُ الحدائدِ تجتلي ... جُنَنَ الحديدِ وهامةَ المُرتادِ

على أن فخره في مقام الرسول كان له دلالته النفسية وهي أن الإسلام الذي جاءَ به محمد (ﷺ) إنما أعزَّ به قومَه، وقومَ الأنصار حيث جاء الفخرُ في مقام المدح: نذكرُ من ذلك قوله[3].

(١) لقد ولَّى الفخر الذاتي الذى يدعو إلى التباهي والتفاخر بالنفس والزهو والخيلاء حيثُ إنها معان أبطالها الإسلام.

(٢) انظر: شعر النابغة ص٢٠٧

(٣) انظر: ديوان حسان ١٢١

ألاَ أبلغْ أبا سفيانَ عنِّـــي	**فأنتَ مجـوَّفٌ نخـبٌ هـواءُ**
بأنَّ سيوفَنا تركتْك عبداً	**وعبدُ الدارِ ســادتُها الإمــاءُ**
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه	**وبحــري لا تكــدرُه الــدلاءُ**

معنى هذا أن انتصار الإسلام حلَّ محلَّ نصــرةِ القبيلــةِ والتبــاهي بأمجادهــا ومفاخرها ومناقبها، إذ أن الفخرَ انصبَّ على رجالٍ وقادةٍ حملت الدعوةَ الإسلاميةَ على عاتقها لا سيما الرسول الذى أيده الله وأعزه بنصره، هو والمؤمنين الــذين اصــطفاهم ربنا، وميزهم، ووقرَّهم في هذا الصدد يقول حسان:

اللهُ أكرمَنَــا بنصــرِ نبيِّــه	**وبنا أقَــامَ دعــائمَ الإســلامِ**
وبنــا أعــزَّ نبيَّــهُ ووليَّــهُ	**وأعزَّنَــا بالنَّصــرِ والإقْــدامِ**
نحنُ الخيارُ من البريَّة كلِّها	**ونظامها وزمامُ كــلِّ زمــامِ**

وبالتالي ينتقل الفخر من رئيس القبيلة بصولاته وجولاته المزعومة إلــى قائــد المسلمين ورسولِهم الكريمِ (ﷺ) والشرفِ العظيمِ بالوفادةِ عليه وهنا يجسد العبــاس بــن عصيم الذي يفخرُ ويزهو بزيارة أبيه وعمه لرســول الله (ﷺ) هــذه المعــاني النفيســة فيقول(1)عصيمُ:

أبي زارَ النبيَّ محمداً	**وعمِّي سواءٌ قلَّ هذا التفــاخرِ**
ولما دعا داعٍ لــدينِ محمــدٍ	**وفدْنا فمنا كانَ أيمــن زائــرِ**

على كلٍّ فهذا هو فخرُ الإسلامِ الذي هدمَ أسوارَ العصبيةِ القبيليــةِ وأقــامَ علــى انقاضِها التباهي بدينِ اللهِ ورسولهِ، وقوة العقيدة التي انطلقَ منها رســولنا مُعليــاً مــن انتصارات المسلمين في معاركهم.

رابعاً: الاعتذار:

هو فن دفع الأذى عن النفس، سواءٌ أكانَ صادراً عن خطأ ارتكبــه الإنســانُ – وكثيراً ما يسيطر عليه، أو يقع تحت ذاك المؤثر فيؤرقه، ويثقلُ على مشاعره؛ فيحتــاج إلى ما يدفعُ هذا الأذى حتى يستريح؛ وذلك بالتماس الأعذار– أم كــان صــادراً مــن

(١) انظر: أسد الغابة ج١ ص١٦٦

الإنسان إحساساً بنفوز الغير منه، وكراهيتهم له، وإعراضهم عنه، وهذا النوع كثيراً ما يؤرقُ الإنسانَ، ويجعل الهموم تتوالى عليه، وهنا يحتاجُ – عوداً – إلى من يدفعُ هذا الأذى أو الشعور بالظلم حتى يريحَ نفسَه، وغيره فيلين ويصفحُ عنه، ويتخذ لنفسه الوسائل التي تخلصه من دائرة الضيق، حيث نراه يشرح للمعتذر إليه همومه، وسوءَ ظروفه للذين أوقعاه في مثل هذا الخطأ، فيمدحه ذاكراً قوته وعظمته وعفوه وغالباً ما تكون عاطفةُ الاعتذار مزيجاً متكافئاً من الخوف مع الشكر والرجاء؛ لذا فإنه نشأ عن المديح.

والناظر إلى الاعتذار – من المنظورِ الأخلاقي– يرى أنه قيمةٌ إنسانيةٌ تدعو الإنسانَ إلى تخليصِ نفسِه من الأذى، ومحاسبتها عما ارتكبته من الحوادث، ومحاولة التعاون مع الناس على أساس من الودّ والتفاهم، وعلى أساسٍ من إصلاح النفوس فتبقى صافيةً تتجاذبُ وتتآلفُ.

ولما جاء الإسلام وجدنا من الشعراء مَن وقفَ منه موقفَ العداءِ في بادئ الأمر، لكنهم لما رأوا في الدين الجديدِ من سماحةٍ، وإعلاءٍ من شأن الإنسان عقلياً وروحياً واجتماعياً غيَّروا مواقفهم، وراحوا يعتذرون عما بدر منهم حفاظاً على روحِ الجماعةِ، ووحدةِ الصفِ الإسلامي.

من هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث، وأنس بن زميم، وأسيد بن إبي إياس، وكعب بن زهير الذي حملت قصيدته "نهج البردة" كثيراً من مشاعرِ الخوفِ والشكرِ والرجاءِ، وخصوصاً لما قال "لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم" –بعد القصة المذكورة سالفاً لاسيما– في قوله:

نُبِّئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدَني والعفوُ عندَ رسولِ اللهِ مأمولُ

فنجد الرغبة في تقديم الاعتذار للرسول أملاً في العفو، أو السماح منه.

وهناك أنس بن زنيم[1] الذي راح يمدحُ النبيَّ (ﷺ) معتذراً له بعد أن ناصبه –هو ودعوته– العداء زمناً طويلاً فقال:

(1) انظر: الإصابة لابن حجر ج1 ص ٦٩.

وما حَمَلتْ من ناقةٍ فوقَ راحلِهــا   أبرَّ وأوفــى ذمــةً مــن محمــدِ

ونذهب إلى سفيان بن الحارث الذي نظم أشعاراً كثيرة يسكبُ فيها العبرات على ما ارتكب من الآثام أو الذنوب في حقِّ الرسولِ ودعوته متمنياً أن يقبلَ منــه الرســولُ العذرَ فيصفحُ عنه وهنا يقول[1].

لعمرُكَ أنّي يومَ أحمــلُ رايــةً   لتغلبَ خيلِ اللات خيــلُ محمــدِ

لكالمدلجِ الحيرانِ أظلــمَ ليلُــهُ   فهذا أوانُ حينَ أهدِي واهتــدِى

خامساً: الحكمة:

الحديثُ عن الحكمةِ ذاك القولُ الموجزُ الذي يدعو للحثِّ على الخيرِ، والنهي عن الشرِ ما هي إلا لونٌ من الألوانِ الفكريةِ التي رغبَ الشاعر الجاهلي في أن يضيفها إلى عمله الفني الكامل، إنها فلسفةٌ أخلاقيةٌ عمليةٌ ماديةٌ وروحانيةٌ معاً.

والعرب –على بساطتهم– أكثرُ الناس إرسالاً للحكمة، ومضرباً للأمثال، ولا شكَّ فإنّهم فرسانُ هذا الميدانِ؛ لتملكهم زمام الفصاحةِ والبلاغة، ومطاوعة الكلامِ لهم.

وفي الإسلام استفاد الشعراءُ من القرآن والحديث وألفاظهما ومعانيهمــا، كــذلك بالتجارب التي أفادوها من حياتهم، ومجتمعهم الإسلامي الجديدِ.

من هؤلاء الشعراءِ نقرأُ قول الخطيئة:

منْ يفعلْ الخيرَ لا يعْدمْ جوازيه   لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والناسِ

حيثُ يلحُّ على ضرورةِ عملِ الخيرِ، والإكثارِ، منه دونَ النظرِ إلــى مــردوده الدنيوي؛ لأن المعروفَ لن يذهبْ سُدًى، أو هملاً عند اللهِ ثم عند النَّاسِ.

سادساً: الرثاء:

هو فنٌّ يعبرُ عن خلجات قلب حزين، تتبخر منه حسراتٌ وأنّات وآهات موجعة إثر موت حبيبٍ، وغالباً ما يعمدُ الشاعر للتعبيرِ عما يجيشُ في صــدره مــن إظهــارِ اللوعة؛ لفراقه والتفجع عليه حزناً على المتوفي الذي فُجع الناس فيه حيثُ كان الشاعرُ في الجاهلية يندب ميتَهُ مشيداً بمناقبة، وشمائله النبيلة دون الغوصِ أو التأمل في جانب

---

(1) انظر: طبقات الشعراء ص ٢٠٦

الآخرة بحيث لا يدعو إلى النظر فى الحياة والموت، ثم ما بعد الموت من حياة أو بعث؛ وذلك لهشاشة دعامات الوازع الدينى.

أما في صدر الإسلام فلقد نظر الشاعر إلى فلسفة الموت، والحياة الآخروية، وما سيكون عليه العبدُ المسلمُ من ثقة وطمأنينة، هذا بالإضافة إلى تعدد مناقبــه وفضـــائله النبيلة، وصبر أهل المصاب، ورضاهم بالقدر، معنى هذا أن النظرة قــد تغيــرت؛ لأن الإسلام أحدث انقلاباً خطيراً فى مشاعر الناس، وعواطفهم بحيــث أصــبحوا مــؤمنين بالقضاء والقدر؛ لذا رأينا صدر الإسلام من أزهي عصور الإسلام قاطبة؛ لأن الصحابة والناس جميعهم قد تعلموا من قدوتهم ومعلمهم الأول الرسول الكريم (ﷺ) من هنا أصبح الرثاءُ يُترجمُ بمفاهيمَ إسلامية خالصة... هذا على الجانب الموضوعي، أما من حيــث الشكل الشعرى. فإن الحال لم يختلف كثيراً عما كان عليه فى الجاهلية، نذكرُ من رثـــاء صدر الإسلام قول حسان بن ثابت وهو يرثي الرسول:

فبورُكتَ يا قَبرَ الرّسولِ وبوركَت بلادٌ ثَوى طيَّها الرشيدُ المسددُ

وبوركَ لحدٌ منـــك ضُـــمِّنَ طيبـــاً عليه بناءُ من صـــفيح منضـــدُ

تهيلُ عليه التـــربَ أيـــدٌ وأعـــينٌ عليه وقد غارت بـــذلك أســـعدُ

لقد غيَّبوا حلماً وعلمـــاً ورحمـــةً عشيّةَ علوه الثَّـــرى لا يوســـدُ

حيثُ نراه يبدأُ بالتحية والسلام المباركين على قبر الرسول وكلِّ بلدٍ نشرَ فيهـــا دعوتَهُ السمحاء التي أضاءت الدنيا بأسرها، ثم يعود للحديث عن لحظة مواراة جســـده الطاهر الترابُ فإن العيون انهمرت بالدموعِ الغزيرةِ حزناً وحسرة على وفاة أعظم قائد، وأفضلِ معلمٍ وأرقِّ رحيم.. على كلٍّ فإن المعاني التي قدمَ بها حسانُ رثاءه هي إسلاميةٌ صادقةٌ؛ كما جاءت ألفاظه على شاكلتها، وكل هذه المعاني الجديدة استمدها الشعراءُ من فكر إسلاميٍّ صادق.

كما نقرأ من أجمل وأشجى ما رثي به في قصيدة حسان التي يستهلها بقوله:

ما بالُ عيني لا تنامُ كأنما كُحِلَتْ مآقيها بكحلِ الأرمدِ

حيثُ يعلنُ عن شدة حزنه وأرقه لوفاة رسول الله (ﷺ) الرحمة المسداة، والنـــور الذي يمشي على الأرض، فكأنما قد تكحلت بغبرة فيها كدرة على لون الرماد، فالواضح

أن رثاء حسان الذي يتحسر فيه على فراقه يجئُ صادراً عن مهجة دامية، وهلع مكتوم، وعاطفة حارة إذ كان الرسول ضياءً ونوراً للمسلمين، بل كان سمعَهم الذي يسمعون، وعيونَهم التي يبصرون بها، والنسيم العليل الذي يستنشقونه..........

ننتقل إلى ضرب آخر من الرثاء في المناحات ألا وهو الندب(1) بحيث يكون بكاءً ونواحاً على الميت بألفاظٍ مؤلمةٍ تجعلُ الدموعَ تنهمرُ من العيون، والآهات توقظُ أوجاع الصدور حيث برعت النساء براعةً فائقةً في ذاك اللون أو المشتق الرثائي، لأن تركيبتهم العاطفية الجياشة مهيأةٌ لهذا الغرض.

ومن الطريف أن يتوقع أبو ذؤيب الهذلي كل هذا في وصفه ما ستفعله بناته بعد موته حيث ترجم هذا كله فقال:

وقامَ بناتي بالنعالِ حواسراً ... وألصقْنَ ضربَ السّبت تحتَ القلائد

حيث نرى قمة التسليمِ بقضاءِ الله، واليقينَ بأن الموتَ نهايةٌ لكلّ كائنٍ حي.

هذا ولم يقف هذا اللونُ على النساء، بل رأينا الرجالَ الذين عرفوا بأدائهم المؤثر في استثارة النفوس وإبكاءِ الناس، هذا ولقد ارتبط هذا اللون ببعض الشعائرِ الأيقونية كضرب الصنوج، والنقر بالدفوف، فلما جاء الإسلام نهي عن كل هذه الأفعال المشينة؛ ولذلك نهي لبيد في الإسلام ابنتيه أن تأتيا بأعمال الجاهلية في النواح عليه بعد موته:

فقوما فقولا بالذي قدْ علمتُما ... ولا تخشما وجهاً ولا تحلقا شَعَرْ

لكن صفية بنت عبد المطلب راحت ترثي أخاها حمزة بن عبد المطلب قائلة:

فواللهِ لا أنساكَ ما هبَّتْ الصّبَا ... بكاءً وحزناً مَحضري ومَسيري

على أسدِ اللهِ الذي كانَ مِدْرُها ... يذودُ عن الإسلام كلَّ كفورِ

حيث إنها تقسمُ عهداً بأن تظل باقيةً على ذكراه وخصوصاً عندما تهبُّ ريحُ الشمال ريحُ العشاق والمحبين، كذلك في كلِّ مجلسٍ تجلسُ به، أو طريقٍ تسيرُ فيه، ثم تتمنى أن لو كانت تفديه بنفسها، وتأكلها الضباعُ، ولا يُقْتَلُ حمزةُ أسدُ الله الذي جادَ بنفسه، وزادَ عن حياضِ الإسلامِ بكل ما يملكُ من طاقة.

---

(1) راجع: الرثاء فى الشعر العربى أو جراحات القلوب لمحمود حسن أبو ناجي ص119، منشورات مكتبة الحياة – بيروت

والبيتان -كما نرى- يفيضان بمشاعر الحزن والألم، كما يعبران عن إخوة إسلامية صادقة حيثُ رسخها ووطد دعائمها بقوة الإسلامُ، وتعاليمه السمحة.

هذا ومن الملاحظ أن بعضَ الشعراء يبالغون من عظم المصاب، وما يحل بأهل الميتِ من الكوارثِ حيثُ إن الطبيعةَ لاسيما العلويةِ من سحابٍ وشمسٍ وقمرٍ تشارك أهلَ الميتِ فتغضب مثلما يغضبون، وتحزنُ على الفقيد حزناً جماً كما يحزنون، وهذا نوع من التعاطف الجماعي المتمثل في المشاركة الصادقة لكلّ المخلوقات في الحزن على الميت.!

ننتقل إلى اللون الثاني من ألوان الرثاء وهو التأبين بحيثُ يتخذُ شكلَ الثناء على الميت فيذكر فضائله، ويعددُ مناقبَه، وما كان يتحلّى به من أجمل الصفات، وأحسن السجايا النفسية، وخير من مثلت هذا اللون -في الجاهلية- الخنساءُ وهي ترثي أخاها صخر.

وفي الإسلام سنجدُ قريباً من هذا لدى كثيرٍ من الشعراء الذين يرثون الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين فيعددون مآثرهم، ويفتخرون بمناقبهم، ويسردون الكثيرَ من سجاياهم الطيبة وفضائلهم الحسنة.. نذكر من ذلك رثاء حسان لأبى بكر -رضي الله عنه:

إذا تذكرتُ شَجْواً من أخي ثقَةٍ ... فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فَعَلا
خيرُ البريةِ أتقاهـا وأعـدلَها ... بعدَ النَّبيِّ وأوفاها بمـا حَمَلا
الثاني اثنين والمحمودُ مشهدُهُ ... وأولُ الناسِ طراً صدَّقَ الرُسُلا

حيثُ نراهُ يعددُ مآثرَ الصدِّيقِ "رضي الله عنه" وفضلَهُ بأنه أحسنُ الناس عدلاً وأعظمهم وفاءً وأكثرهم تقوى وورعاً لا سيما عندما رافقَ الرسولَ في هجرته حباً فيه وتصديقاً له، إذ كان رفيقه في دروب الجهاد ومسالك الصبر الوعرة والنصر المظفر.

أيضاً فإن هناك نوعاً من الرثاء وهو العزاء حيثُ يوجّهُ إلى التفكير في رحلة العمر، ومصير الناس فيتذكرون الموت الذي لا مفرَّ منه، فينعتون أنفسهم متعزين بأنه كأسٌ، والكل شاربوه، فلا يعفى منه أميرٌ، أو حقيرٌ صغيراً كانَ، أو كبيراً، غنياً كانَ أو فقيراً حيث ذاقته كل الأجيالِ الماضيةِ من هذا اللون نقرأ رثاء حسان في عمر بن الخطاب:

عليك سلامُ اللهِ من أميرٍ وباركَتْ ... يدُ اللهِ في ذاك الأديمِ الممـزّقِ
فمن يجرِ ويركبُ جناحي نعامةٍ ... ليدركَ ما قدَّمتَ بالأمسِ يسبقِ

هذا بالإضافة إلى المراثي الخاصة التي وصلت إلينا في فقد رسول الله (ﷺ).

وعلى كلٍّ فإن الشعراء المسلمين تأثروا بروح الإسلام، وتوجيهاته في مقابلة المصائب فظهر في شعرهم الإيمانُ بالقدر، كما شاعت سماحةُ الإسلام والطمأنينة.

ننتقل إلي الموضوعات الجديدة فنقول: **أولاً**: ما جاء في تأييد الدعوةِ والفتوحاتِ الإسلاميةِ، وقد سبقَ الحديثُ عنه، **ثانياً**: النقائض، **ثالثاً**: الشعر السياسي.

فبالنظر **للنقائض**: فإنها **لغةً** – جمع نقيضة، وهي اسم من المناقضة.

واصطلاحاً: أن ينشئ شاعرٌ قصيدةً في غرضٍ من الأغراض، بحيثُ يوجهها إلى خصومه فيردُّ عليها شاعرُ الخصومِ بقصيدةٍ ينقضُ فيها معاني الأولِ شريطةَ أن يلتزمَ بالوزنِ الذي اختاره الأولُ، وكذا القافية التي بني عليها قصيدته فتجيء الأولى نقيضةً بمعنى منقوضة، بينما تكون الثانية بمعنى ناقضة.

ونتساءلُ عن بدايةِ هذا الفنِّ الشعري فنجدُ أنه موجود منذ الجاهلية بين شعراء الأوس والخزرج، وغيرهم من الشعراء الجاهلين، حيث كان باعثةَ العصبيةَ القبليةَ بحيث اقتضى الخلافُ بين القبائل –في الجاهلية– أن يتعصبَ الشعراء لقبائلهم، وكثيراً ما نجد شاعراً ينتصرُ لقومه أو أحلافهم، فيرد عليه شاعرٌ من القبيلة المعادية، وينقض معانيه معتمدين على الفخر أو الهجاء أو عليهما معاً(١).

والجدير بالذكر أنَّ هذا اللونَ الشعريَّ لم تكتمل له فنيةُ النقائض من أصولٍ وعناصرَ وشروطٍ فنيةٍ وقتئذ، بل كان أقوالاً على شكل خطابٍ يرسلُه شاعرٌ لآخر بدافع المباهاةِ والمفاخرة فيردّ عليه بنفسِ الطريقةِ وقبل مجيءِ الإسلام نجدُ هذا اللون قد وصلَ إلى مرحلة من الكمالِ الفنِّي تدعو إلى الإقبالِ عليه– بشكل لافت– لا سيما لأنه يجمعُ بين الهجاءِ والمدح والفخر في قالبٍ خاصٍ.

---

(١) انظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين لصلاح الدين الهادي ص٢٦٧

نأخذ على سبيل المثال قول امرئ القيس متوعداً بني أسد لقتلهم أباه حجر[1].

واللهِ لا يذهبُ شَيخي بــاطلاً	حتــى أبيــرَ مالكــاً وكــاهلا
القــاتلينَ الملــكَ الحُلاحــلا	خيــرَ مَعــدّ حسبــاً ونــائلاَ
يالهف هند إذْ خَطئْنَ كــاهلاً	نحنُ جلبْنــا القُــرَّح القــوافلا
يحملْنَنــا والأسَــلَ النَّــواهلا	مُستفرمات بالحصي جــوافلا
تَســتَثْفِرُ الأواخــرُ الأوائــلا	فصرتُ فيهم غانمــاً وقــاتلا

فرد عليه عبيد بن الأبرص شاعر بني أسد بقوله[2].

يــاذا المُخوّفنــا بقتـــ	ــل أبيــه إذلالاً وحينــاً
أزعمتَ أنــكَ قــد قتلــ	ــتَ سَرَاتَنَا كذباً وميْنــاً
لَوْمَاً على حُجْــر بــن أمّ	م قَطَام تَبْكــى لا علينــا

فالمتأمل في ردِّ عبيدٍ يراه ضعيفاً سقيماً، لم تستطع العناصرُ الفنيةُ أن تبــرزَ أو تترجم ما يدورُ في ذهنه ترجمةً فعليةً صادقةً؛ لذلك عجزت الأبيــات أن تعــربَ عــن جوهر غرضها أو فنها الشعري.

وبالنظر إلي مادة النقائض فإنها غالباً ما تكون في الفخر والهجاء، وما يتخللهما من مضامين كالأيام والأنساب والأحساب والاعتراف بالظلم والعدوان.

ولمّا جاءَ الإسلام اعتمدَ عليه شعراؤه للدافع الحاصل وقتها، والمتمثل في الحرب الدائرة بين شعراء مكة، وشعراء المدينة، وقد ازدهر هذا الفنُ ازدهاراً كبيــراً وذلــك بازدهار أفكاره ومعانيه، فرأينا منه صورتين جاءت **الأولى**: إسلامية جديدة كالإيمــان والكفر والجنة والنار بينما كانت **الثانيةُ**: من معاني الجاهليــة بحيــث تعــالج المــآثر والأحساب والمثالب والأيام والتهديد والوعيد[3].

---

(١) انظر: ديوان امرئ القيس ص١٣٤– ١٣٥ دار المعارف بمصر ١٩٦٥م. الحلاحل: السيد الشريف. القرح: الخير المسنة. القوافل: الضوامر، مستفرمات: تسرع فى السير فيصل الحصى إلى فروجها وكذلك تستثفر

(٢) انظر: ديوان عبيد بتحقيق حسين نصار ص ١٣٦ط الحلبى القاهرة سنة ١٩٥٧م.

(٣) انظر: أثر الإسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين للسيد عبد القدر عويضــة، ص٧٨ نقلاً عن الإسلام والشعر لسامي العاني، ص٣٦.

نذكر من هذا النقائض قول[١] ضرار بن الخطاب الفهري يوم بدر:

عجبتُ لفخرِ الأوسِ والحين دائـــرٌ — عليهم غداً والـــدَّهرُ فيـــه بصـــائرُ
وفخرُ بني النجارِ أن كانَ معشـــرٌ — أُصيبوا ببـــدرٍ كلُّهـــم ثَـــمَّ صـــابرُ
فإن تكُ قتلى غُودرَتْ من رجالنـــا — فإنَّـــا رجـــالٌ بعـــدهم ســـنغادرُ
وتردي بنا الجُردُ العناجيجُ وسْطَكُم — بني الأوسِ حتى يشفيَ النفسَ ثائرُ
ووسطَ بني النجارِ سوفَ نَكـرُّهـــا — لهـــا بالقنـــا والـــدَّارعين زوافـــرُ
فنترك صرْعى تعصبُ الطيرُ حولَهم — ولـــيس لهـــم إلا الأمـــانَّي ناصـــرُ
وتبكيهُم من أهـــلِ يَثْـــربَ نســـوةٌ — لَهنَّ بها ليْلٌ عـــن النَّـــوم ســـاهرُ

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة منها[٢]:

عجبـــتُ لأمـــرِ اللهِ واللهُ قـــادرٌ — على مـــا أرادَ لـــيسَ للهِ قـــاهرُ
قضى يومَ بدرٍ أن نُلاقي معشـــراً — بغَوا وسبيلُ البغي بالناسِ جائرُ
وقد حشدوا واستنفروا من يليهمُ — من الناسِ حتى جمعُهُم متكـــاثرُ
وسارتْ إلينا لا تحـــاولُ غيرنَـــا — بأجمعها كعبٌ جميعـــاً وعـــامرُ
وفينا رسولُ الله والأوسُ حولـــه — له مَعْقل منهم عزيـــزٌ وناصـــرُ
وجمعُ بنى النجار تحـــتَ لوائـــه — يُمشُّون فى الماذيِّ والنقْعُ سائر
فلمـــا لَقينـــاهُم وكـــلٌّ مجاهـــدٌ — لأصحابه مستبسلُ النفسِ صابرُ

فالناظر إلى النقيضة الأولى التى جاء بها ضرار بن الخطاب يرى أنه اتكأ على العنصر القبلي محاولاً –من خلاله– إظهارَ معالمِ القوة فى قبيلته، إذ يعتبرها العنصـــرَ الذي ينقصُ خصومَه "بني الأوس والنجار"؛ لذا فإنه راح يهددهم وينذرهم بسوء العاقبة ....

وعلى كلٍّ فلقد قدم خطابه في خطين متقابلين: **الأول** يعرضُ مقوماتِ ما تمتلكـــه قبيلته من أسبابِ القوةِ والبأسِ، والظفرِ بالنصرِ، وهذه مدعاةٌ للفخرِ والمباهاة.

الآخر يعرضُ عواملَ ضعفِ قبيلةِ خصومه، بحيث راحَ يهوِّن مـــن تفـــاخرهم بالأوس، وبني النجار، بينما يوجه **كعب** فخره توجيهاً إيمانياً خالصاً متمثلاً في إعجابـــه

(١) انظر: السيرة لابن هشام ج٢ ص١٣ العناجيج: الطوال السراع الثائر: الطالب بثأره.
(٢) انظر: ديوان كعب ص٢٠٠ الماذي: الدروع البيض اللينة . أقبلوا: يريد انه دعا قريشاً إلى الإسلام

المطلق بقدرة الله تعالى وقضائه الذي لا يُرَدُّ، ووصفه لأعداء المسلمين بالظلم والتعدى؛ لكنه -على الجانب الآخر- وصف المسلمين بالصبر على الجهاد، وأن الرسول منتصرٌ بإذن الله لأن الله جل وعلا قد أيده بنصر منه ورضوان.

ونذهبُ إلى نقيضة أخرى وقد جاءت في "غزوة أحد" التي انتصرت فيها قريشٌ وقد قُتلَ حمزةُ عمُّ النبيِّ حيثُ قال[1] أبو سفيان بن حرب قائد المشركين متشفياً بمن قُتِل من المسلمين

وسلي الذي قد كانَ في النفسِ أنني — قتلتُ من النجارِ كلَّ نجيبِ
ومن هاشمٍ قرْماً كريماً ومُصْعباً — وكان لدَى الهيْجاءِ غيرَ هَيُوبِ
ولو أنني لم أشْفِ نفسيَ منهمُ — لكان شَجاً في القلب ذاتَ ندوبِ
فآبوا وقد أوْدَى الجَلابيبُ منهمُ — بهمَ خَدبٌ منْ معطَبٍ وكئيبِ

فأجابه حسان بن ثابت، قائلا[2]

ذكرتَ القُرومَ الصِّيدَ من آلِ هاشمٍ — ولستَ لزورٍ قلتَه بمصيبِ
أتعجبُ أن أقصدتَ حَمزةَ منهمُ — نجيباً وقد سَمَّيْتَهُ بنجيبِ
ألم يقتلوا عَمْراً وعُتبةَ وابنَهُ — وشيْبة والحجاجَ وابنَ حبيبِ
غداةَ دعا العاصي عليًّا فرَاعهُ — بضربةِ عَضْبٍ بلَّهُ بخضيبِ

وبشكل عام فإن النقائضَ في الإسلام تتسمُ بسماتٍ واضحةٍ فمن حيثُ:

- الغاية: أن النقائض - في عهد الرسول - كانت أداة فعالةً من أدوات المعارك الكلامية بحيثُ استطاعت أن تزود عن حمى العقيدة، وتحرسها، فترد كيد كل ظالم أو معتدٍ في نحره كما أنها دافعت عن المبادئ والتعاليم الإسلامية التى رسخها الدين الإسلامي الحنيف.
- المعاني: فلقد تشرَّب الشعراء كلَّ ما انسكب على صفحة النقائض من الألفاظ والمعاني الإسلامية حتى تغلغلت فى مفاهيمَ فشكَّلت - مع مادتها - قيمةً أساسيةً

---

(1) انظر: السيرة لابن هشام ق٢ ص٢٧٦ الجلابيب المسلمون وكانوا المشركون يلقبونه بذلك الخطب: الطعن النافذ، المعطب: الذي يسيل دمه

(2) انظر: ديوانه ٦٦ والسيرة ق٢/٧٦. اقصدت: أصبت. الخضيب: الدم الطرى

تركيبيةً وخصوصاً الألفاظَ التي تدور حولَ الكفر والإسلام والهداية والغواية، والجنة والنار، والحلال والحرام. هذا بالإضافة إلى المعاني الجاهليةِ الخاليةِ من الخشـونة والفحش أو المعاظلة.

- الأسلوب: تفاوتت النقائضُ، ولم تسرْ على مستوى أسلوبي واحدٍ، فهناك مـا يتسـمُ بالأسلوب القوي الجزل، ومنها ما يتسمُ بالضعفِ، وهذا أمرٌ طبيعي؛ لأن الشاعريةَ القرشيةَ كانت في مهدها، ولم تصل بعدُ لمرحلةِ النضجِ الفني.

هذا ولقد تفرع عنها المراجزات نسبةً إلي بحرِ الرجز وهي مقطعات تقالُ قبل – الدخول في المعركة وسيلةً لتحميس الجنود بحيثُ تتسمُ بالجدة والانفعال، وقوة العاطفة.

أخيراً: الشعر السياسي:

وهو شعرٌ سخره قائلوه في تسييسِ أمور الدولة، وأنظمتها الداخليـة وعلاقاتهـا الخارجية تسييساً حضورياً فاعلاً بحيثُ قامُ بدورِ المستحدث الرسمي، والمسؤول عـن شؤونها بالداخل، ومكانتها – بين الدول – بالخارج.

هذا ولقد ازدهر بعد وفاة الرسول، لتوفر دواعيه وخصوصاً عـدم الاسـتقرار، وظهور بعض الفتن منها النزاعُ الحاصلُ بين المهاجرين والأنصار فـي شـأنِ تـولي الخلافة، وقد أقنع المهاجرون الأنصارَ بإبقاء الخلافة على قريش.

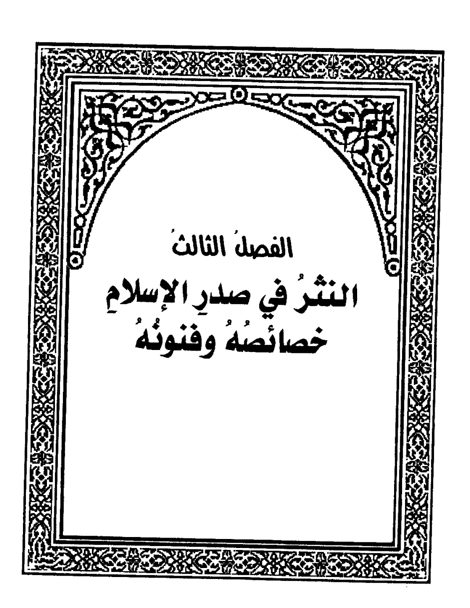
نذكر من هذا الشعر ما صوَّر الفتنة التي أودت بحياة عثمانَ بنِ عفانَ على لسان تميم ابن مقبل القائل:

قتيـلٌ سـعيدٌ شُـقِيَتْ بـه ... نفوسُ أعاديه شـهيدٌ مُطَيَّـبُ

نَعاءُ عُرى الإسلام والعدل بعده ... نعاء لقد كانت على الناسِ نُوَّبُ

حيث يرى أن وفاته إذ كانت شفت غليل أعدائه أعـداء الله والـدين، إلا أنهـا ستخلف وراءها متاعبَ وآلاماً للأمة الإسلامية حيثُ سينفرطُ عقدُ الأمةِ بعد وفاةَ أكثـرِ الناس عدلاً.

والناظرُ لهذا الشعر يلمسُ فيه العرضَ المباشرَ الذي يتسم بالوضوحِ والصراحةِ مع المحافظةِ على الطابع الإسلامي الأصيلِ في شعره، ولأنه نقلَ ما دارَ نقلاً أميناً فإن شعره جاء سجلاً، أو تاريخاً صادقاً لهذه الفترة.



الفصلُ الثالثُ

النثرُ في صدرِ الإسلامِ خصائصُه وفنونُه

ما من شك أن النثر – في هذا العصر – قد وصل إلينا على ضربين:

الأول: **النثر العادي** الذي يقالُ في لغة التخاطبِ حيثُ تكمن قيمته، أو أهميته الأدبية فيما يدورُ على الألسنةِ من أمثالٍ وحكم.

الآخر: **النثر الفني** وهو الذي يستخدمُ -فيه أصحابه- لغةً تتسم بالفنِ والمهارةِ والبلاغةِ علماً بأن هذا النوعَ هو الذي يعكفُ النقادُ على بحثه ودرسه، وبيان ما فيه من تغيّر وتطورٍ، وهو ينسابُ في جدولين زاخرين هما: **(الكتابة الفنية والخطابة).**

بالنظر إلى **الكتابة الفنية** فإنها قد لعبت دوراً بارزاً في حياة العرب؛ لأن العربي دائماً ما يكون مولعاً بالحكى، أو القيل والقال؛ لذا فإن حديثه لا يبعدُ عن تاريخِ وقصصِ فرسانهم، أو أخبار ملوكهم التي لا تخلو من الخرافاتِ أو الأساطيرِ، والسيرةُ النبويةُ تزخرُ بالعديد من القصصِ القريبةِ من هذا الشأن مثل التي رواها النضر بن الحارث المكي الذي راح يقصُ لقريشٍ أخباراً عن أبطال الفرس، يضاف إليها أيامُ العرب، وحروبهم ووقائعهم تلك التي قدمها لنا أبو عبيدة في كتابه "شرح النقائض"، والأصفهاني في "الأغاني" إلى غير ذلك من مؤلفي ذاك العصر الذهبي، لكن هذه القصص لم تعكس الصورة المثلى التي كانَ عليها النثرُ الجاهليُّ ذلك، لأنها اتسمت بالمبالغة التي تصلُ إلى حدِّ الخيالِ المطلقِ أو الجامح؛ لكن الذي زاد الأمر ضغثاً على إبالة هو أن الكتابة لم ترافقْ هذا الفن القصصي إبّان ظهوره؛ من هنا فلقد غابت المدوناتُ التاريخيُة أو الأدبية في الجاهلية[1].

أما الذي يمكننا إثباته حقاً هو وجود الأمثال حيثُ تناقلتها الأجيال مما أتاح لها أن تحتفظَ بصورتها الجاهليةِ حيثُ ترك لنا عربُ الجاهلية موروثاً ضخماً منها.

هذا ويعدُّ أكثم بن صيفي أولَ من اشتهر بكثرةِ الحكم والأمثال العربية في الجاهلية. والناظر إلي هذه الحكم والأمثال يرى أنهما تحتويان على الكثير من صنوف

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن الكتابة استخدمت في الجاهلية لأغراض سياسية وتجارية لكنها لم تصل إلى الأغراض الأدبية .. مزيداً من التوضيح راجع: بدايات الخط العربي بين النظرية والرؤية الحضارية للمؤلف.

وألوان الجمال الفني؛ لأن العرب كانوا – حينئذ – شغوفين بالبلاغة، وروعة البيان؛ لذا فلقد كان من الطبيعي أن تظهرَ سماتهم الفنيةُ والموضوعيةُ وذلك في صناعة هذه الأمثال.

أما الخطابة فلقد كان لها الشأنُ العظيمُ في الجاهلية حيثُ كانوا يستخدمونها في منافراتهم، ومفاخراتهم، وفي الحثِّ على قتالِ الأعداءِ، والنصح والإرشاد، وفي المناسبات الاجتماعيةِ المختلفةِ وغيرها من المحافل حتى احتلت مكانةً بارزةً في الجاهلية تعدَّت على إثرها – منزلةَ الشعر، ربما لكثرة الشعر والشعراء في ذلك العصر[1]، يضاف إلى هذا اتساعُ وظيفة الخطيبِ حيث كان يفاخرُ وينافرُ عن قومه فيكونُ مثلُه كمثلِ الشعراء؛ لكنه ينفرد بمهمات خاصةٍ كالوفادة على الملوك، وكالنصح، والإرشاد على الأملاك. ويكفي أنه كان يدعو إلى السلم، وإنهاء الحرب، لكن الشاعر كانَ – غالباً – ما يحثُّ على الحرب حتى النصر.

وبمجيء الإسلامِ وقف العربُ أمامَ دعوته بين مؤيدٍ ومعارضٍ، ولم يمضِ قرابة ربع قرنٍ حتى يجمعَ محمدٌ (ﷺ) العرب على هذا الدين الحنيفِ، فيقضي على الخرافة الوثنيةِ، والهمجية الفكريةِ، والعداوة اللاعقليةِ، والعصبية غير الطبيعيةِ سعياً نحو إسعادِ الإنسانيةِ، وذلك عن طريق الحريةِ المكفولةِ بتعاليم الإسلام الدينية، وطبيعيّ أن يضعَ هذا الدينُ للحياة نظاماً اجتماعياً يكفل للجنس البشري ما يناسبهُ من الكمالِ؛ ولأن الأدب هو مرآة المجتمع إذ يعكس لنا كل ما يدور فيه من أفراحٍ وأتراحٍ، أو آمالٍ وآلامٍ .. من هنا فلقد كان للإسلام خصومه من الشعراء والخطباءِ وكان الردُّ الطبيعي أن نجدَ قيام نفرٍ من المسلمين بالرد على خصومه، وظهور ثورةٍ أو نهضةٍ أدبيةٍ تواكبُ ذلك الحدث العظيم، وتناسب ما أحدثه – في الوعي الإنساني أو الضمير العربي – من نقاءٍ وطهارة وشفافية علماً بأن هذه النهضة كانت تردُّ على أعداءِ الإسلام ومعارضيه، تقرعُ الحجة بالحجة، وتصرعُ الرأيَ بالرأي.

---

(١) انظر: الفن ومذاهبه لشوقي ضيف، ط٦، ص٢٨.

وإذا قارنا ما وصل إلينا من نثرٍ بشعر هذا العصر وجدناه قليلاً بسبب اعتماد العربِ على الرواية الشفويةِ لا على الكتابة حيث إن معرفتهم بالكتابة لم تصل إلى مرحلة تدوين تراثهم الأدبي **هذا أولاً.**

ثانياً: أن الشعر في الجاهلية شغل المكان الأكثر طريةً في نفوس العرب حيث كانوا به يتفاخرون، ويتنافرون، وبسببه كانت تقومُ المشاحنات والخصومات؛ لذا فلقد كان الوسيلة الفضلى للتعبير عن أفكارهم وحفظ مآثرهم ومفاخرهم وتعداد مناقبهم ومثالبهم، ولقد بالغوا في أهميته بالنسبة لحياتهم حتى قالوا: "الشعرُ ديوانُ العربِ".

ثالثاً: أن الشعر أعلق بالذاكرة لتقييده بالوزن والقافية؛ ولعل هذا كان السببَ المباشرَ في كثرة ما وصل إلينا من شعرِ العصرِ الجاهلي.

أما في صدر الإسلام، فلقد تقلصت مساحةُ الشعر، بحيثُ لم تعد له مكانته التي كانت له في الجاهلية وبذلك انتقلت المكانةُ العليا للنثر؛ لينهضَ بالدعوة الجديدةِ شارحاً أخلاقها، ومبيناً أحكامها أو كاشفاً مضامينها وأهدافها وأسرارها، وراسماً أبعادها.

من هنا كان النثرُ لسانَ الدعوة الإسلاميةِ، ووسيلة نشرها، كما كان أداة الاتصال بين الدول والشعب.

والحقُّ أنه كان يصعب على الشعر أن يفي بمتطلبات الدعوة والدولة معاً، لأن الشعر مقيدٌ بأوزانٍ وقوافٍ بينما النثرُ غير ذلك؛ ولأن الحثَّ على المعروفِ، والنهي عن المنكر، ورسم سياسة الدولةِ يتطلبُ سرعةً في التوجيه؛ لذا فإن النثرَ يصبحُ أكثرَ مناسبةً لذلك؛ لأنه أكثرُ مرونةً وطواعيةً من الشعر الذي يرسف في أوزانه وقوافيه.

أسباب ازدهار النثر في صدر الإسلام:

أولاً: الأسلوب القرآني[1] الخاص الذي يمتاز به هو نظمٌ بديعٌ فصّلت آياته بفواصلَ تنتهي بها، وتطمئن النفس إلي الوقوف عندها، كذلك تنوع موضوعاته، بتنوع

---

(١) في هذا الصدد فإن هناك رأي ملتون في دراسات في حضارة الإسلام يمكنك مراجعته ص٢٩٥.

المخاطبين بحيثُ يغلب عليه الإيجاز والإشارةُ في بدءِ الدعوة قبل الهجرة حيث كان يدعو إلي عبادة الله، ونبذ عبادةِ الأوثان، ولما انتقل إلي المدينة غلب عليه البطءُ والإطناب لبيان نظم الشريعة[1].

ثانياً: أن القرآن نقل لغة البداوة إلى لغة مدنيةٍ حتى أصبحت لغة عالميةً لأمم كثيرة اتخذتها لسان لغته، وذلك لما اكتسبته من علوم شرعيةٍ، ولسانية وعقلية. هذا ولا يوجد في تاريخ البشرية كتابٌ له مثل هذه الآثار العظيمةِ في لغته، وتغيير أحوال من آمنوا به.

ثالثاً: أن مدلولاتِ الألفاظ القرآنية تعدُّ ابتداء بما علم العربُ من أسس الإسلام ومبادئه، وبما يبينُ لهم من ماهيةِ الحياةِ بعد الموتِ، ومن البعثِ والنشورِ، ورسالةِ الرسل وعبادةِ الله الواحدِ الأحد، وبما نظم لهم من حياتهم في الأسرة والجماعة تنظيماً مادياً وأدبياً وعقلياً وروحياً يحقق لهم الكمال البشري، والسعادة في الدارين.

رابعاً: أن الأمثال التي كانت لها السيادة النثريةُ دون الفنون الأخرى اختفت بتغير الحياة العربية من قواعدها، إذ أخذ العرب يُشغلون عنها بتلاوة القرآن، ورواية الحديث، واتخذوا منها عبرتهم وموعظتهم، حتى الشعر كفَّ كثيرون من شعرائهم عن نظمه[2].

خامساً: انتشار المواد التي يكتب عليها النثرُ... ففي خلال القرن الأول كان ورق البردي هو المستخدم في العادة، ولكن ورقَ البردي مثل الرق[3] غالي الثمن؛ لذلك كان يُقْتَصَدُ في استخدامه حتى في الدواوين الإدارية.

سادساً: انتشار الإسلام بين شعوب سوريا والعراق، وبلاد الفرس، وامتزاجهم الكُلّي بالفرس في معظم التطورات الحديثة التي جدّت على الثقافة الإسلامية .. هذا

---

(١) انظر: الفن ومذاهبه، ص٤٦.

(٢) انظر: الأغاني جـ١٤، ص٩٤، طبعة الساسي.

(٣) الرق: نوع من الجلد الأبيض.

ويرى شاملوت: أن الفرس عمل كثيراً على النهوض بمستوى الحضارةِ الإسلاميةِ في العصور الوسطى، وتحديداً في مستوى الجمال الذوقي[1].

سابعاً: الحضارة الآرامية التي ورثت الحضارةَ اليونانيةَ، تلك الحضارة كانت ذائعةَ الصيت، والانتشار خصوصاً مع الفتح الإسلامي[2].

من فنون أو أغراض نثر صدر الإسلام نذكر:

أولاً: الخطابة:

تعدُّ صناعة الكلام من أعظم الصناعات لدى عرب الجاهلية ربما، لأن الأمية كانت غالبةً عليهم، فأحلوا ألسنتهم وحوافظهم مقام الأقلام والدفاتر في التعبير عما يدور بخواطرهم وذلك؛ لتسجيل كلِّ ما يدور في حياتهم؛ لذا فلقد برز فنُّ القول لديهم حتى تفوقوا في هذا الميدانِ عن غيرهم حيثُ كان يظهر في شكلين أدبيين هما: الشعر والخطابة، حتى قيلَ: كان كلامُ الجاهليِّ خطابةً وشعراً[3].

وبما أنَّ الشعرَ قد هُيِّئ له من أسباب الذيوع– حتى إن الشاعر بمجرد أن يقول قصيدةً، أو أبياتاً يتلقفها الرواةُ، ويتناشدونها وخصوصاً إذا كانت في المفاخرة والمباهاة أو الملهاة والمهاجاة حيثُ إنهما كانا عمادَ العصبية القبليةِ آنذاك – لذا ما كان للخطابة أن تنافس الشعر في هذا الميدان القولي، أو الكلامي "فلم تكن تدوي في القبائل كما يسيرُ الشعر"[4].

من هنا فلقد كانت حفاوةُ الجاهليين بالشعر عظيمةً بحيث كانوا لا يهنئون إلا بغلامٌ يولدُ أو شاعرٍ ينبغُ فيهم، أو فرس تنتج"[5].

وهذا لا يعني أن الخطابةَ كانت قليلة الشأن في الجاهلية؛ بل لقد تحدثنا آنفاً عن شدة عنايتهم بهذا الفن، بل إن من يتولاه –من بينهم– كان من أهل السيادة والرياسةِ من شيوخ القبائل وزعمائها وقوادها؛ لذلك فلقد احتلَّ الخطيب مكانةً ربما تتعدى مكانة

---

(١) انظر: حضارة الإسلام ص٢٩٦.

(٢) انظر: نفس المصدر: ص٢٩٦.

(٣) أنظر: تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام للسباعي ص١٧٤.

(٤) انظر: تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب ص٢٩ طبعة النهضة المصرية سنة ١٩٤٥م.

(٥) انظر: العمدة ج١ ص٣٧

الشاعر، أو تتفوق عليها بكثير حتى "إن الجاحظ يرى إن من مظاهر عنـــايتهم بهـــا أن جعلوا يدربون فتيانهم عليها في حداثتهم[1].

إن ما يشيرُ إلى ذيوعها ونهضتها تحديد بعضها بأسماء تبرزها مثل "العجـــوز" وهي خطبة لآل رقية، والعذراء وهي "خطبة قيس بن خارجة؛ لأنه كان أبـــا عـــذرتها، والشوهاء وهي خطبة سحبان بن وائل[2] حيثُ تُناظِرُ المعلقات في تسميتها.

إن أكبرَ شاهدٍ على تأثير الخطابة في نفوس عرب الجاهلية استحسانُ عكاظ لها قبل البعثة حيثُ كان لها أثرُها البعيدُ الغور في نفس الرسول (ﷺ)، ولما وفد عليه وفــدٌ من قبيلة قس بن ساعدة سألهم عنه، فأخبروه أنه هلك؛ فدعا له الرسولُ (ﷺ) بالرحمة.

فالإسلامَ -إذن- كان ثورةً على الحياة العربيةِ الجاهلية؛ لذا فلقد اتخذها الرسولُ (ﷺ) أداةً لنشر دعوته، وسلاحاً ماضياً في الثورات والنهضات، ووســيلةً فــي إقنـــاع المشركين بصدق رسالته (ﷺ) مُدَّة إقامته في مكةَ، أما في المدينة فلقد اختلفــت الحـــالُ بحيثُ أُستخدِمَتْ وسيلةً في رسم حدود الإسلامية، وتوضيح نظم الحياة فيها حيث تبوأت منزلةً رفيعةً حتى أصبحت فريضةً مكتوبةً في صلاة الجمعة والعيدين.

على هذا فلقد ألف العرب في الإسلام ضرباً من الخطابة الدينية بحيــثُ احتـــل منزلةَ الصدارة علماً بأنه لم يكن لهم سابقُ معرفةٍ في الجاهلية؛ لأن خطـــابتهم كانـــت اجتماعية، وكثيراً ما تدور حول المنافرات والمفاخرات. وقد دعا الإســـلام إلـــى نبـــذ التفاخرِ والتكاثرِ بالأحسابِ والأنسابِ، من هنا فلقد اختفى هذا اللون بينما بقيــت -إلـــى جانب الدينية- خطابةُ الوفود وهي الخطب التي كان يلقيها رؤساءُ القبائـــل والوافـــدون على النبي (ﷺ)، وعلى الخلفاء من بعده للمبالغة في الفخر والمدح أو الشكوى.

أيضاً فإن هناك خطبَ المعارك التي روتها الكتبُ إبان المعارك، وبخاصة يـــومُ اليرموك تضافُ -إلى كل ما سبق- الخطبُ السياسية[1] مثل خطب علـــيٍّ "رضـــى الله عنه" في أعقاب التحكيم؛ حيثُ اتخذت مظاهرَ متعددةً بما يخدمُ سياسةَ الدولةِ.

---

(1) انظر: البيان والتبين جـ١ ص١٢٦.

(2) انظر: الخطبة في صدر الإسلام لطاهر درويش ج١ ص٥٤ دار المعارف.

على هذا **فإن العوامل التى أدت إلى ازدهار الخطابة يمكننا حصرها فيما يلى:**

١- إنها أصبحت لسان الدعوة الإسلامية، ووسيلة نشر تعاليمها ومبادئها، ومضـامينها وأهدافها كما استعملت لمهاجمة المشركين، ومجادلتهم، وبيان فساد عقائدهم، وسوء عاقبتهم.

٢- أن الإسلام شجعَ الوعظ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجعل الخطابـة البليغةَ من شعائره في الجمعة والعيدين، وفي يوم الحج الأكبر.

٣- استعملت الخطابةُ فى تحميس الجنود في معارك الفتوحـات كمعركـة القادسـية واليرموك وغيرهما، وكان الأبطال يخطبون قبل المعارك لإثـارة روح الجهـاد، والحمية في النفوس كما استعملها رؤساءَ الوفود حيث كانوا يخطبون أمـامَ النبـيِّ صلى الله عليه وسلم.

٤- ثارت الفتن السياسية والدينيةُ منذ مقتل عثمانَ "رضى الله عنه"، وتشعبت المذاهب والمعتقدات والفرقُ، فكان لكل منها خطباءُ ينشرون دعوتها، ويرفعون صوتها.

٥- اتساع مجالها، وتعدد موضوعاتها مع شعور العرب بقدرتهم على الارتجال، وحبهم للتفاخر ببلاغة اللسان، وروعة البيان، وجمال الكلام.

٦- اختلافُ المسلمين بعد الرسول (ﷺ) وحروب الردة، وظهـور الأحـزاب الدينيـة والسياسية بعد مقتل عثمانَ فكان لكل منهما خطباءُ ينشـرون دعوتهـا ويرفعـون صوتها مما أدى إلى ظهور الخطابة السياسية[٢].

أطوار الخطابة في عصر النبوة والخلفاء الراشدين:

عندما نزلت الرسالة على الرسول (ﷺ) كان بمكة المكرمة ذاك المكان الذى بُشِّـرَ فيه بالدين الجديد، حيث كانت وسيلته -في الدعوة إليه هي- الخطابة فيهم، بما يرسم لهـم

---

(١) بعض النقاد يدخلون خطابة الوفود ضمن الخطابة السياسية لكننى أرى أن المسألة يحكمهـا أو يرسـم هدفها المهمة التي يقدم بها الوفود بحيث إنها قد تكون سياسية أو اجتماعيةً إلى غير ذلك على حسـب المناسبة التي تقتضيها.

(٢) راجع: دراسات أدب ونصوص العصر الإسلامي لمحمد عبد القادر ص٦٠.

منهج الإسلام، وطريقته في إصلاح النفوس والحياة. وكانت تقاليده في خطابته أن يخطب في الصلاتين خطبتين يجلسُ بينهما وكانتا تتضمنان ما شرع الله لعبادة في شئون دينهم ودنياهم، وما يجب أن يسود مجتمعهم من مثالية خلقية رفيعة، ومن روابط اجتماعية وثيقة، هذا بالإضافة إلى خطبه في الأحداث والمناسبات، أو الظروف الداعية إلى ذلك.

وعن شكلها فلقد كانت قصيرةً على الرغم أن الرسول كان يمضي الساعات يعظُ الناس، ويدعوهم إلى التفكير في الكون وخالقه... ونتساءل عن مجموعها فنجد أن أكثرها قد ضاعَ بسبب غيبة التدوين، وعلى كلٍّ فإنه قد خطب بعشر كلمات: حمد فيها الله واثنى عليه: ثم قال: "أيُّها الناسُ إن لكم معالمُ فانتهوا إلى معالكم. وإن لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم –إن المؤمنَ بين مخافتين: بين عاجلٍ قد مضى لا يدرى ما اللهُ صانعٌ به، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه. فيأخذ العبدُ من نفسه لنفسه. ومن دنياه لآخرته. ومن الشيبةِ قبلَ الكبرةِ. ومن حياة قبل الموتِ، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ما بعد الموت من مستعتبٍ، ولا بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة أو النار[1].

والناظر المتأمل في الخطبة –على قصرها– يرى أنها تهدفُ إلى ما تريد من أمر الدعوة بحيثُ تبرزُ لنا: كيفَ كان الرسول يوجه أصحابه، ويحثُّهم على ضرورةِ العمل الصالحِ قبل أن تدركهم الآجال فيذهب عملهم سدىً؛ لأنهم سيعرضون على اللهِ في يومٍ يُجزى كلُّ فيه بما صنع، فأما من اتبع هدى الإسلام فمصيره الجنةُ، وأمَّا من أعرضَ وتولى فإن مصيره النارُ.

إذن فالخطبة –كما نرى– ليست وعظاً فحسب، بل بصرت الناس بالآخرة، ودفعتهم إلى العمل الصالح حيثُ وضعت التشريع والتنظيم للمجتمع حتى تكون الأمةُ التي أُخرجَتْ للناس في خير مثالٍ، تأمرُ بالمعروف وتتناهي عن المنكر، ويتعاون أفرادها على البر والخير بما يكفل صلاح مجتمعهم، وتكافلهم.

---

(١) انظر: الفن ومذاهبه ط٨ ص٥٣.

"ولعل خيرُ خطبة تشريعية تصور كيف كان ينظم هذا المجتمع الروحي، ويرسى قواعده خطبتُهُ في حجة الوداع، وهي تمضى على هذا النحو[1].

"الحمد لله نحمدهُ ونستعينه ونستغفره ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هادي له، وأشهدُ أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأن محمداً عبده ورسولُه، أوصيكم عبادَ الله، بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعته، واستفتحُ بالذي هو خيرُ......

أما بعدُ أيها الناسِ: اسمعوا مني أبينْ لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقـاكم بعـد عامي هذا، في موقفي هذا.

أيها الناس: إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمةِ يـومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدِكم هذا ألا هل بلغت؟ اللهم أشهدُ..... إلى آخر الخطبة.

وتنازع المهاجرون والأنصار يوم السقيفة، فيمن يلي الخلافة بعد رسـول الله- عليه السلام- فكانت أول خطبةٍ سياسيةٍ في الإسلام. وما كاد أبـو بكـر يتـولي أمـر المسلمين، حتى برزت حركة المرتدين، ونشطت الخطابةُ بين زعماء المرتدين، الـذين أنكروا موقفهم من الإسلام والخلافة بالمدينة.

ونهض عمر بن الخطاب بمقاليد الخلافة، في رجاحة عقلٍ، وسعة أفقٍ، فضـلاً عن بلاغته الواضحةِ ففي عهده علت أصواتُ قوادِ جيوش الفتوح بالخطابة، يحثون على الصبر، ويرغبون في الشهادة كخطبةِ المغيرة بن شعبة في القادسية[2]، وخالد بن الوليد فى اليرموك، فأسروا – ببيانهم- قلوبَ جنودهم.

وبمجئ عثمانَ بن عفان للخلافة، تبوأت الخطابة مكانة سـاميةً، حيـث وقـف الأشتر النخغي في الكوفة، ومحمد بن أبى بكر في مصر يؤلبون الناس علـيهم حتـى توالت الأحداثُ وكانت الثورةُ على عثمانَ ومقتله الذي عصف بوحدة المسلمين.

---

(١) المصدر نفسه ط٨ ص٥٣.

(٢) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٣٧.

وفي ظل هذه القلاقل والفتنِ يتولى عليٌ بن أبي طالب الخلافةَ فيحرّضُ كلٌّ من طلحةَ والزبيرِ وعائشةَ الناس بالبصرة، ويؤلب معاوية الجموع والطوائف بالشام، وتكون معركتا الجمل وصفين هي الحصاد المر، أو المحصول الهالك .. ناهيك عن مسألة التحكيم بعدهما إذ تمخضت هذه الأحداثُ عن كثرةٍ مفرطةٍ من الخطب، بين أنصارِ عليٍّ وخصومه. وكان عليٌ نفسُه خطيباً مفوهاً وكان بجيشه أكثرُ من خطيب أمثال: عمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عباده، وعدي بن حاتم الطائي، حيثُ أزانوا المنابر، وهزوا أعوادها ببلاغتهم الرائعة، وحجتهم القاهرة.

ومنَ ثَّم أسفر عصرُ النبوة والخلفاء الراشدين عن خطبٍ كثيرةٍ تمثل مختلف المواقف بجانب خطبِ الجمع والأعياد والأسواق، وهي خطبٌ تمثلُ أحداثَ العصر ومواقف الشخصيات إزاءها، وما كانوا يتمتعونَ به من فصاحةٍ وبيانٍ(١).

من أهم موضوعات الخطبة:

١- مبادئُ الإسلام حيثُ اهتموا بشرحها، ودعوا إلى توحيد الله، وترك عبادة الأوثان، والإيمان باللهِ ورسلهِ، وكتبهِ، واليومِ الآخرِ، والقضاءِ والقدرة خيره وشره، والأمر بالمعروفِ، والنهي عن المنكر.

٢- بيانُ أحكامه وآدابه وفضائله وعرض مسائله، وحث الناس على النظر إلى محاسنه وأخلاقه التي تسعدهم في الدنيا والآخرة معاً.

٣- سياسة الدولة حيثُ رسمت أبعادها الاجتماعية والتشريعية والدينية، وطريقة معاملة المشركين، وأبناء الشعوب التي دخلت في الإسلام؛ حتى يتحقق التكامل والتكافل، ويسودَ مبدأُ الشورى في الإسلام، كما رفع الإسلام من شأن المرأة ووضعها في المكان اللائق بها، فكفل لها حرية التصرف في مالها، كما كفل لها حقَّ اختيارِ زوجها.

٤- الحثُّ على الجهاد، والاستشهاد وذلك؛ لإعلاء كلمة الله، والتهوينِ من شأن الحياة الدنيا بالنسبة لما أعده الله في الآخرة لمن يقاتلون في سبيله.

---

(١) راجع: المرجع السابق ج٢ ص٥٦.

٥- آداب الدين: وتتمثل في تنفيذ العهود والوصايا للقواد والأمراء والـولاة والقضـاه حتى صارت جزءاً من الولاية في الجمع والأعياد، وفي مواسم الحج معرفة.

٦- الدين والوطن: حيث دارت حول الدفاع عن الوطن، ودرء الفتن، وتوطيد العقيـدة في القلوب حتى يقبل الجميعُ على لقاءِ أعداء الدين والوطن.

هذا ولقد تبوأت الخطابة منزلةً ساميةً في الإسلام لدرجة أنه جعلها منسكاً مـن مناسكه في الجمع والأعياد، وفي كل ما يهم المجتمع المسلم من أحداث لا سيما مـا دار في الصدور من دفاع عن رأي أو تحميس لمبدأ، أو شرحٍ لسياسةٍ غيرها مما اقتضـته نظمُ الخلافةِ الإسلاميةِ.

خصائصها في عصر النبوة والخلفاء الراشدين:

ازدهرت الخطابة في هذا العصر، واتسعت مجالاتُهـا باتسـاعِ رقعـةِ الدولـةِ الإسلاميةِ، كما أخذت تتشعبُ منذُ فتنة عثمانَ شعباً كثيرة منهـا مـا يتصـل بالجهـاد والحرب، ومنها ما يتصل بالمناظرة، وخصوصاً في الآراء السياسية.

هذا ويمكننا حصر الخصائص في أربع نقاط هي كالتالي:

الأولى: الأسلوب:

اتسمت بالأسلوبِ الفطري الذي ينمُّ عن طبع صادقٍ، ونبعٍ غزير ساعدتها على ذلك القرائح الصافيةُ والمواهب العظيمةُ التي تساعدهم على اختيار الألفـاظِ، وسـهولةِ الأساليب والانسجام في بناء الكلمات وترابطها بحيثُ تمَّ تجنـبُ الوحشـي والغريـب والمتكلف، كما قلَّ السجعُ إلا ما جاء على غيرِ تكلفٍ، أي عفو الخاطر، وهو سجع غاية في الجمال والأصالة، مثلما رأينا في خطبة الوداع ومردُّ هذا كله يمكن حصرُه في تأثر الخطباء بمنهج القرآنِ في المناقشة والبراهين، يضافُ إلى ذلك الإفـادة مـن التطـور الفكري والحضاري الذي أفرزته الحياة الجديدةُ مما جعلهم يعرضون آراءهم على نحو مباشرٍ، وبشكل عام، منطقيٍّ سليم، ثم إنَ إقلال الرسول من السـجع بسـبب اسـتخدام الكهان في الجاهلية له قد رغب عنه زهد الخلفاءِ فيه.

عوداً فلقد انتهج الخطباءُ سبيل الإقناع والاستمالة، والتأثير في نفوس مخاطبيهم بالأدلة القاطعة، والبراهينِ الناصعة، وكثرة الاستشهاد بالقرآن والسنة، وبمأثور الشعر والحكمة، والمثل حيثُ ندرَ أن نرى خطبةً لم توشحْ بآي الذكر الحكيم، وحديث الرسول الكريم.

ثانياً: البناء:

أصبحت الخطابة متماسكةً عضوياً بحيث دارت حولَ موضوع واحـد بعـد أن كانت في الجاهلية فقراتٍ متقطعةً، لا يربطها رابطٌ فكريٌّ؛ لذا فلقد ارتقت بـالنفسِ ارتقـاءً روحياً.

فمثلاً نراها تلتزمُ بناءً فنياً واحداً حتى صارت لها أصولٌ ثابتةٌ بحيثُ تبدأُ بحمد الله، وتحميده والثناء عليه بما هو أهلُهُ، ثم الصلاة على رسول الله، وأتباعه الراشـدين، كما تختتم في الغالب بالدعاء للخطيب والسامعين؛ وآية ذلك أن أبا بكر كان يختمُ خطبته بقوله "اللهم اجعل خير زماني آخره، وخيرَ علمي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك"

الثالثة: الألفاظ والمعاني:

١) الإيجاز والإطناب والمساواة بحيثُ جاءَ كلٌّ في موضعه على حسب دواعي القولِ ومقتضى الحاجات، حيث كانَ الخطيبُ يقف على مرتفعٍ من الأرض، ولعل ذلك أصلُ سنةِ المنبر في المساجد، وربما كان ذلك؛ لكي يراه السامعون فيكون ذلـك أقوى تأثيراً فيهم، كما كان يمسك سيفاً في يده، ويحرصُ علـى حسـنِ السـمت وجهارة الصوت، وتمام الوقار.

٢) أصبحت المعاني وأهدافها ومقاصدها ساميةً بحيثُ تدورُ كلُّها في فلك الدعوةِ إلى الإيمان والفضائل والجهاد.

الرابعة: الصور والأخيلة:

لقد بعد الخطباء عن التكلف في الصناعة البيانيـة مـن تشـبيهاتٍ وتمثـيلات ومجازات واستعارات وكنايات بحيثُ لم يأتوا بها إلا إذا كانت تقعُ مواقعها مـن غيـرِ تكلفٍ بحيثُ جعلوا جملهم- من حيثُ الطولِ والقصرِ- ملائمةً للمعاني وللمناسبات.

من هنا نخلص إلى القول: إنه قد صار للخطابة غايةٌ دينية واضحةٌ، هذه الغايةُ يعبِّرُ عنها الدكتور شوقى ضيف بقوله: إنها تسمو بالعربي في مراقي الفلاحِ الروحي[١].

ثانياً: الكتابة فى صدر الإسلام:

قبل الحديث عن الفن الكتابي نودُّ أن نتريثَ بعضَ الشئ؛ لنكشف النقــابَ عــن تساؤلٍ كثيراً ما يقف حائلاً بيننا، وبينَ ظلالِ المعرفة......!!

التساؤل: هل عرفَ العربُ في جاهليتهم هذا اللونَ من الفن النثري، أم هو فــنٌّ إسلامى خالصٌ! أو بعبارة أخرى: هل فن الكتابة جاهلي أم إنه إسلاميُّ النشأةِ؟

في البدء نقول: لقد جاءت الكتابة قاسماً مشتركاً وقد جمع بين خصائصَ وملامحِ كلٍّ من الخطين النبطي والسرياني (السطرنجيلي)[٢].

ولِمَ لا يكون قد حدث اقتراضٌ بين الخطين قبلَ الإسلامِ كان من شــأنه أن أدى إلى التشابه والتواحد بينهما.. هذا التواجدُ أو الخلط كان الخط العربي من ثماره المرجوه.

هذا وتجدر الإشارة إلى القول: بأنه لم تصل إلينا أدنى إشاراتٍ من كتاباتٍ تحملُ خصائصَ أو ملامحَ دالةً وكاشفةً عن وجه هذه الآيات ولما نحاولُ أن نقتربَ حثيثاً من الكتابة قبل الإسلام نجدُ أنها كانت منتشرةً في مكةَ، وهذا أمر طبيعي؛ (لأن الكتابة كانت معروفةً في مجتمع المدن، وبخاصة المدن التجاريةُ، ففى مثل هذه المدن تكون الكتابــة أمراً مهماً لقيام حياةٍ اقتصادية منظمةٍ بها.

على هذا فلقد كانت الكتابة عنصراً أساسياً من عناصر الحياة بمكةَ، وحقيقةً ثابتةً من حقائق تاريخها القديم تشهدُ بذلك صحيفة قريش التي كتبت بمقاطعــة بنــي هاشــم وحليفتها، ثم علقت بالكعبة[٣].

---

(١) انظر: الفن ومذاهبه ص٥٦

(٢) سمي الخط السطرنجيلى المفتوح أو الثقيل استنبطه الرهاوي بوليس بن عرفا أو عتقا في أوائل القرن الثالث للميلاد، ودام استعماله حتى المئة الرابعة عشرة.

(٣) انظر: الفهرست لابن النديم ص٥.

هذا ولقد أفاد ابن النديم أن الخط العربى الذي كان يكتبون به هو الخط المكـــي، وكذلك في يثرب التي كانت محاطةً بمساكن اليهود الذين كانوا أهل ملكٍ وتجارة.

لقد تبين أن يهودياً قد علم الكتابة لبعض الصبيان في المدينة، وفيهم بضعةُ عشرَ رجلاً يكتبون منهم: أُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وبشير بن سعيد.

ولما جاء الرسول (ﷺ) اتخذ لنفسه بضعةَ كتَّابٍ منهم: عليُّ بــن أبـــي طالـــب، وعثمان وعمر، وأبو بكر وخالد بن الوليد، وسعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع ويزيد بن أبى سفيان وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ثم تلاه معاوية، ويزيد، وكانا ملازمـــين للكتابة بين يدي الرسول (ﷺ) في الوحي[1].

لكن هناك أدلةٌ تؤكدُ أن الكتابةَ كانت قريبةَ الحدوث قبل الإســـلام حيـــثُ وردت نصوصٌ شعريةٌ جاهليةٌ تؤكد معرفةَ العرب بالكتابة، والدليل –على ذلـــك– أن هنـــاك إشاراتٍ نلتقطها من الأشعارِ التي وصلت إلينا نذكرُ منها قولَ المرقشِ الأكبر[2]:

هَلْ بالـــدِّيارِ أن تجيـــبَ مـــن ... لو كانَ رســـمٌ ناطقـــاً كَلَـــم

الدَّارُ قفـــرٌ، والرســـومُ كمـــا ... رقَّشَ في ظهرِ الأديمِ قَلَـــمْ

فالناظر المتأمل – في البيتين – يرى أن الشاعرَ يصفُ لنا دارَ صاحبته، وقـــد صارت طلولاً– أي خراباً– في نفسه، وفي الأرض من حوله، وأمست خاليةً من مشاهدِ الحبِّ واللقاءِ الذي نما في داخلها حتى آل أمرها إلى ما صارت إليه.

عوداً على بدءٍ فالشاعر هنا يُظْهِرُ لنا مدى ما فعلت الرياحُ بهذا الطلل حيثُ تسببت في اندثارِ معالمه، وصارت الدارُ خاليةً، وآثارُ الرياحِ فيها كأنها خطوطٌ قلم علَى الأديم.

إن الصورة التشبيهيةَ التي رسمها الشاعرُ تمت بتدقيقٍ واضحٍ – تحت رعايـــةِ عقلٍ وفكرٍ كبيرين– حيثُ إن تشبيه آثار الرياح –في الديار– بخطوط القلم المضـــطربةِ يحملُ لنا –بين– طياته مضموناً تاريخياً يجعلنا نعتقدُ أن الكتابةَ لم تكن مجهولـــةً لـــدى العرب في الجاهلية، بل كانت معروفةً لدى البدو الحضر، وقد يدفعنا مثل هذا التشـــبيه

(١) انظر: دراسات في تاريخ الخط العربي لصلاح الدين العنجد ص٢٤ بيروت سنة ١٩٧٢م.

(٢) راجع: بدايات الخط العربي بين النظرية والرؤية الحضارية للمؤلف، ص٥٢، مطبعة الضوى.

إلى الاعتقاد بأن اتخاذ الشعراء الجاهليين من مظاهر الكتابة مادة للتشبيه والاستعارة في حديثهم عن الأطلال يدلُ على أنهم كانوا يستخدمون الكتابةَ ... لكن شوقي ضيف يرى أنها رواسمُ تقليديةٌ، لا صلةَ لها بالحقيقة بل قد تدل على جهلٍ بهذا الفن الذي كان يعـدُّ –عندهم– من الأمور الغريبةِ ثم يستطرد معللاً بأن الكتابة تستلزمُ مسـتوًى حضـارياً معيناً تكون فيه ظاهرةً حضاريةً لا مجردَ ظاهرةٍ حيويةٍ[1].

لقد ابتدأ الخط العربي في مهد الإسلام ينتشر للحاجة الداعيةِ إليه حيـثُ نشـره الرسول (ﷺ) بطريقة عامةٍ لا سيما أنه كان محبباً لانتشار الكتابة، وتعميمها بين الأمـةِ العربيةِ يشهد بذلك ما فعله الرسول (ﷺ) مع أسرى موقعه بدرٍ حيثُ وافقَ على إطـلاق كلِّ أسيرٍ مقابل تعليمه القراءةَ والكتابةَ؛ فكان (ﷺ) يأمرُ عبادة بن الصامت بتعليم الناس الكتابةَ، وكذلك عبد الله بن سعيد بن العاص.

من هنا نستطيع القول: بأن الخطَّ قد انتشر تدريجياً، ومما سـاعد علـى نشـره عظيمُ شأنته، إذ كان يسمون من يعرفه، ويعرف الرمي والسباحة بالكامل؛ لذلك فـإنهم رغبوا فيه، وعملوا على وجوب تعلمه.

ومن المعلوم أنه لم يكتب شئٌ من هذه الكتب في ذلك العهد إلا القرآن بعد وفـاة الرسول، فلم تكد مصاحفُ عثمانَ بن عفان تصل حتّى تلقفها النساخُ فأعـادوا نقلهـا، وتنافسوا في كتابتها بعد أن وصلت إلى كل الأمصار نسخةٌ مـن المصـاحف، وعلـى الرغم من انتشار الكتابة بين العرب في هذه الفترة من تاريخهم الحضاري، فضلاً عـن كونها وسيلةً تعتمدُ عليها الدولةُ الناشئة في كثيرٍ مـن شـؤونها السياسـيةِ والإداريـة والدينية؛ فإن العرب لم يفكروا في استخدامها لتدوين شعرهم وتسجيله، هذا ولا يفوتنـا القول بأن أولَ مدرسةٍ عُرِفَت لتخريج الكَتَبَة من المسلمين كانت بمكةَ المكرمة.

وبعد الهجرة ابتدأ الخطُّ ينتشرُ في المدينة، ولعل الحادثةَ السابقَة ساعدت علـى ذلك حيث نهج أصحاب الرسول، وخلفاؤه هذا النهج، فكان أكثرُ النشئ الذي نشـأ فـي عهدهم يعرف الكتابة، فخرج منهم كتابٌ الدواوين والرسائل وكتَاب القرآن.

---

(١) انظر: العصر الجاهلي ص٩٥.

ما مضى من حديثٍ كان عن بدايات الكتابة، **أما عن ملامحها في عهد الرسول (ﷺ) فنراها اتخذت أشكالاً ثلاثةً.**

الأول: كتابة الوحي وهى مسألة غيبيةٌ؛ لأنها توفيقيةٌ على زيد بن ثابت... صحيح ورد عن زيد قوله: "كنا عند رسول الله (ﷺ) نكتبُ القرآنَ من الرقاع، لكنه كان غيرَ مجموعٍ في موضوعٍ واحدٍ، ولاستخلاص مصحفٍ منها، ولم يكن –من بينهما على الجملة– مصحفٌ كامل[1].

الثاني: كتابة أو تدوين الرسائل التي كان الرسول (ﷺ) يكتبها للملوك والرؤساء، وكذلك كتابة العقود والمعاهدات.

الثالث: كتابة المصحف، وفيها كلَّف عثمانَ كلاًّ من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص بنسخ القرآنِ في مصاحفَ من الأصل الذي دونه زيدُ بن ثابت، ومعه عمرَ بن الخطاب في عصر أبي بكر حيثُ قام عثمان بإرسال النسخ إلى الأمصار.

ولكتابة الرسائل التى يبعثها إلى الملوك وغيرهم **ملامح منها** أنها تختم بخاتمة (ﷺ) كما كان هؤلاء الكتاب يكتبون بالخط المقور، وهم ثلاثة وأربعون أشهرهم أبو بكر وعمر، وعثمان، وعلى ، وأبو سفيان، ومعاوية، ويزيد وسعيد بن العاص، وعامر بـه فهيرة وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن سعد بن أبى سرج، وأبى بن كعب وثابت بن فيس، وحنظلة بن الربيع وشرحبيل بن حسنة، وأبو عمرو بن العلاء الحضرمي وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة.

على كلٍّ فإننا لا نجد – كما سبق – من المؤرخين من ينكر معرفة العرب والكتابة باعتبارها وسيلةً فاعلةً من وسائل تسجيل شؤون حياتهم، ومعاملاتهم في مجتمعاتهم، وما كان فى وسعهم إنكار معرفتهم بالكتابة على هذا المستوى على الأقل في بعض بيئاتهم، وخاصة في الحضر حيث كان القرآنُ، شاهداً على ذلك فى كثيرٍ من آياته التي تشير إلى أن الكتابة كانت معروفةً في بعض البيئات الجاهلية؛ لأنها من أوثق

---

(١) انظر: تاريخ الكتاب الإسلامي لمحمود عباس ص١٠٢ مكتبة غريب سنة ١٩٧٧م.

وسائلِ العمران، وأكدّ أسباب الحضارة بحيثُ تزدادُ الحاجةِ إليهما كلما تعددت منـــاحى التفكير ومنابع الثقافة.

من هنا فلقد اتخذ الإسلام الكتابة دعامةً من دعائمه باعتباره ديناً يعتمـــد علـــى المعرفة ويعلى من شأن الفكرِ والعقلِ، ويرفع العلم والعلماء درجات؛ لـــذا دعـــا إلـــى وجوب العلمِ فقال جلَّ شأنه –في أول آية نزلت على رسوله صلى الله عليه وسلم– **(اقرأ باسمِ ربِّكَ.....)** سورة العلق آية (١)، ثم أقسمَ بها سبحانة فقال **(ن والقلمِ وما يَسْطُرون ما أنتَ بِنِعْمَةِ ربِّكَ بمجنونٍ)** سورة القلم الآيتان (١، ٢)؛ لأن الدولة الجديدة صارت في حاجة ملحة إلى تنشيط الكتابة والعناية بها؛ لحاجة النبي (ﷺ) فى تنظيم أمر الدعوة إلى كتاب يكتبون له الرسائل إمَّا إلى أمراء الأجناد، وأصحاب السرايا أو عمالـــه بالأقـــاليم التي فتحت، وإما لتبليغ الدعوة إلى ملوك الأمم المجاورة ككسرى في فارس، وهرقل في بلاد الروم والمقوقس في مصر، والنجاشي بالحبشة، أو إلى زعماء القبائل العربيةِ التي لم تدخل الإسلامَ بعدُ: كهودة بن على صاحب اليمامة، والمنذر بـــن ســـاوي صـــاحب البحرين، وأكثم بن صيفي سيد تميم.

وقد كان رسول الله (ﷺ) يُمْلي كُتُبَهُ، ورسائله على كُتّابه الذين بلغوا نيفاً وثلاثين كتاباً يكتبون له الوحي، والرسائلَ والعهود لمن دخل الإسلامَ من الملـــوك والقبائـــل، أو الذين صالحوا في حرب كصلح الحديبية.

هذا ولقد كان لكتابةِ الرسولِ التي يمليها على كَتَبَتِه أحكامٌ شديدةٌ منها: أنه لا يصحُّ للكاتب أن يزيدَ أو ينقص حرفاً عما قاله الرسولُ، إلى غير ذلك مما يضمن سلامة النقل.

ومن الأمثلة للكتابة على عهد الرسول نصُّ معاهدةِ الحديبيةِ التي كانـــت بـــين الرسولِ، وقريشٍ وهذه صيغتها:

هذا ما صالحَ عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصـــطلحا علـــى وضـــع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمنُ فيهن الناسُ، ويكفُّ بعضهم عن بعضٍ على أنه من أتى محمداً من قريشٍ بغير إذنِ وليه ردَّهُ عليهم، ومن جاءَ قريشاً ممن مع محمـــدٍ لـــم

يردوه عليه، وأن بيننا عيبةً مكفوفَةً وأنه لا إسلالَ، ولا إغلالَ، وأنه من أحبَّ أن يدخلَ في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحبَّ أن يدخلَ في عقد قريش وعهدهم دخلَ فيه"

فالناظر في هذه –المعاهدة– يرى أنها على الرغم من صغرِ حجمهـا إلا أنهـا تضمُ خطوطاً عريضةً لرسم القيمِ السياسيةِ والأخلاقيةِ بين العربِ هذا من حيثُ الشـكلِ أما عن الفائدة الإسلاميةِ فقد أباحت أن يدخلَ في الإسلام من يريدُ من قريشٍ وهو كسبٌ للإسلام؛ كذلك فإنها أباحت أن يدخلَ عقد قريش من يشاءُ......

تلك هي البداياتُ الزمنيةُ للكتابة في عهد الرسول، ولمـا اتسـعت الفتوحـات، وترامت أطرافُ الدولة، وكثرت المواردُ والمصارف من رواتب الجندِ وغيرهم، دعت الحاجةِ إلى وضع نظامٍ لضبط أمور الدولةِ مادياً ونظامياً؛ لشرح سياسة الدين والدنيا، أو لتنظيم العلاقة بينهم وبين العرب الفاتحين؛ لذا وجدنا خلفاء الرسول –بَمَلَكَتِهم– يكتبون بأيديهم، أو يُكتِّبون غيرهم.

ثم ازدهرت الكتابة في الدواوين إلى العرب والموالي والمتعربين، وظلت كتابة الخراج –في الأقاليم– بلغة أهل المصرِ. ففي العراق وفارس بالفارسية، وفـي الشـام بالرومية، وفي مصر بالقبطية حتى حذفها العرب فحولت– بعد ذلك الكتابة في الدواوين – إلى اللغةِ العربيةِ.

ولما تولى أبو بكر أمرَ المسلمين حيثُ ارتد أكثر العرب عن الإسلام بعث إلـى قادتهم بكتبه يدعوهم إلى التمسك بدين الله، فأرسل للأمراء كتباً ضمَّنها نفس المعنـى، وظل يراسلُ بكتبه، ويبعثُ إليهم بجنده حتى رجعوا عن ردتهم، وخضعوا لأحكام الإسلام.

ومن أهم ما كتبه أبو بكر: رسالته إلى الأمراءِ في كل ناحيةٍ حيثُ أمرَ بقراءتها في كل محفلٍ أمامَ جميعِ الناس:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله (ﷺ) إلى من بلغه كتابي هذا من عامة الهدى إلى الضلالة والعمى، فإني أحمدُ إليكم الذي لا إلهَ إلا هو، وأشـهدَ

أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده، لا شريكَ له، وأن محمداً عبدهُ ورسوله، وأقرَّ بما جاء به، وأكفِّرُ من أبى، وأجاهُده.

أما بعدُ، فإن الله تعالى أرسلَ محمداً بالحق إلى الخلق بشيراً ونذيراً وداعياً إلـــى الله بأذنه وسراجاً منيراً" لينذرَ مَنْ كانَ حيًّا ويحقَّ القولُ على الكافرين إلى أن قال:

وقد بلغني رجوعُ من رجعَ منكم عن دينه، بعد أن أقرَّ الإســـلامَ، وعمـــلَ بـــه اغتراراً بالله وجهالةً بأمره، وإجابةً للشيطان قال الله جل ثنـــاؤه: **(وَإِذْ قُلْنَـــا لِلْمَلائِكَـــةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَـــهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)** وقال جل ذكره **(إن الشـــيطانَ لكـــم عدوٌّ فاتخِذوه عدوًّا إنما يدعو حزبَه ليكونوا من أصحابِ السعير)**.

والواضح أن أبا بكر قد سار في منهجه، أو أسلوبه على هديِ رســـولِ الله (ﷺ) فلم يجنح إلى تنميقِ العبارة، أو الميلِ إلى الزخرفَ الذي يلونُ الفكرةَ لكنه اهتمَّ بتصوير أفكاره في عبارات سهلةٍ وتراكيبَ واضحةِ المعاني في سلاسة وبساطة.

ثم ننتقلُ إلى الكتابة في عهد عمر بن الخطاب فسنجدُ أنه كان لها الدورُ الأكبـــرُ في ترسيخ دعائم القضاء، وتطبيعه لخدمةِ الدولةِ دون زخرفةٍ لفظيةٍ أو تعقيداتٍ معنويةٍ أو تنميقٍ في العبارة؛ لأن بلاغته كانت تنساب من طبع صادقٍ وينبوع صافٍ ولِـــمَ لا؟ وقد تعلم في مدرسة النبوة؛ مدرسة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وننتقل إلى خلافة عثمانَ الصحابي الجليلَ، وصهر الرسول، وأحد حماة الدعوة الإسلامية، والمُنْفقين في سبيل الله، فنجد أنه قد كتَبَ له جمعٌ من الكُتَّاب، ســـاق الحـــظ اثنين منهم أن يكونا خليفتينَ أمويين فيما بعد، وهما مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان.

ثم نتبع سيرَ الكتابة في عهد الخليفة الرابع على بن أبي طالب رضي الله عنـــه فنرى أنه استعمل مجموعةً من الكتاب منهم عبد الله بن جعفر وعبد الله بن جبير وعبد الله بن أبي رافع.

هذا ولقد كان عليٌّ -كرم الله وجهه- يهوى الخط الجميلَ والكتابةَ المنسقةَ الجميلةَ، وعلى كلٍّ فإن رسائل عليٍّ-في مجملها-تكشفُ عن خبرته بفنون القول، وقدرته على مخاطبة الرجال مستخدماً فيها ألفاظاً لها قوة التأثير، والإقناع لاستواء الفواصل وتوازن الجمل ومحاكاة القرآن الكريم ساعده على ذلك ثقافته ومداركه والنهوض بأقواله إلى أرقى ما عرف العصر في حقل الكتابة الفنية(١).

ومجملاً فإن الكتابة – في عهد النبوة والخلفاء الراشدين قد – دارت حول الدعوة الإسلامية، وكل وما يتصل بها بحيث لم يتسع مجالها حتى جاءت جملاً فصيحةً تؤدي المعاني التي تخدم غرضها دون زخرف أو تأنق.

وأخيراً نذكر مميزات الكتابة في عهد النبوة والخلفاء الراشدين.

أولاً: التأثر الواضحُ بالقرآن الكريم لفظاً وأسلوباً ومعنى الشاهد ننظر فى ما جاء في رسالة أبي عبيدة ومعاذ إلى عمر كقولهما: "**تعنو فيه الوجوه**" فنجده مقتبساً من قوله تعالى **(وعَنَت الوجوه للحيِّ القيوم)** وقولهما: "**والخلقُ لهما داخرون**" مقتبساً من قوله تعالى **(كلٌّ أتوهُ داخرين)** كذلك في رصانة العبارة، وجزالة الألفاظ مع الفصاحة العاربة، والبلاغة السامقة.

ثانياً: من حيثُ الموضوعات نجد أن أغلبها كان يدورُ حولَ موضوعات دينية، أو مصلحية بحيثُ تقتصرُ على الضرورة لدولة جديدة. وكانت الرسائل تبدأ "باسمك اللهم ثم يقول: من فلان إلى فلان" ثم يلى ذلك السلام والثناء والحمد لله، ثم يذكر الغرض بعد قوله "أما بعد" ثم يختمها بالسلام ..

معنى ذلك فإن ما يتميز به أسلوبُ الرسائل هو الدخول إلى الغرض من أقرب مُدْخَلٍ أي دون إطالة أو تكلف بحيث يقتصرُ في المعاني على الحقائق في غير مبالغة؛

---

(١) انظر: صدر الإسلام، جورج غريب ص١٧.

كذلك فإنه يقصدُ إلى الضروري من الأغراض بلا تطويلٍ حتى وإن جاءت بعضُ الرسائل جملها طويلةٌ وعباراتها ممتدةٌ؛ لكنها- مع كلٍّ- موجزةٌ طالما أنها تفي بالغرض.

ثالثاً: الاستشهاد بالشعر... في ثنايا الرسالة أو في ختامها؛ ولكن قليلةٌ وهذه ظاهرةٌ أسلوبيةٌ تحتاجُ إلى الدراسةِ.

رابعاً: غلبةُ الإيجازِ مع السهولةِ والفخامةِ... على حسب مقتضى حال المخاطبين من عربٍ أو غيرهم، كما نرى ذلك في رسائله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وأمثالها أو إلى قبائل العرب وزعمائهم، وما كان يستعمل الغريب إلا مع أهل الغريب، وكما كتب خالد بن الوليد إلى عياض رسالة -وهو محاصرٌ بدومة الجندل- يقول فيها: من خالد بن عياض إياك أريد!!.

خامساً: تجنب التكلف والتعظيم... حيث غلبت عليها سهولة العبارات، ووضوح الأفكار، وتجنب الغريب، وعدم التكلف، وكلُّ هذا بوحي من الفطرة، والطبع دونِ تكلفٍ أو تصنع.

سادساً: حرية الاختيار... حيثُ كان الوالى أو القائد إذا كتب إلى الخليفة قدم اسمه على اسم الخليفة، فيقول مثلاً "من سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين عمراً وقد يقول "إلى أميرِ المؤمنين من سعد بن أبى وقاص...".

أهم المصادر والمراجع

أولاً: **القرآن الكريم**

ثانياً:

١- **أحمد أمين (أستاذ)**: فجر الإسلام، طـ١٣ مطبعة النهضة المصرية ١٩٨٢م.

٢- **أحمد أمين (دكتور)**: التدوين والرسائل حتى نهاية العصر الأموي، طبعة ١٩٨٧م.

٣- **أحمد جمال الدين العمري (دكتور)**:

١- شروح الشعر الجاهلي – طـ١ دار المعارف بمصر ١٩٨١م.

٢- مباحث في إعجاز القرآن مطابع جامعة الزقازيق ١٩٨٣م.

٤- **أحمد الشايب (دكتور)**: تاريخ الإسلام السياسي، مطبعة النهضة المصرية ١٩٤٥م.

٥- **أحمد غلوش (دكتور)**: الإعلام في القرآن مطبعة سعيد رأفت ١٩٨٦م.

٦- **الأصفهاني (أبو الفرج بن الحسين)**:

الأغانى – دار الكتب المصرية ١٩٦٣م.

٧- **امـــــرؤ القيـــــس**: ديوانه دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥.

٨- **أنيس المقدسي (دكتور)**: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط بيروت – بدون تاريخ

٩- **البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)**:

صحيح البخارى – باب جمع القرآن، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٤٥هـ

١٠- **بروكلمان**: تاريخ الأدب العربي طبعة دار المعارف.

١١- **الباقوري (أحمد حسن)**: أثر القرآن في اللغة العربية، ط٣ – دار المعارف، ١٩٨٣م.

١٢- **البغدادى: (عبد القادر بن عمر)**: خزانة الأدب، طبعة بولاق بمصر ١٢٩٩هـ.

١٣- **جابر قميحة (دكتور)**: أدب الخلفاء الراشدين، طبعة دار الكتب الإسلامية.

١٤- **الجاحظ: (أبو عثمان عمر بن بجر)**:

١- البيان والتبين القاهرة ١٩٦٩م.

٢- الحيوان، طبعة مصطفى البابى بمصر ١٩٥٠م.

١٥- **جورج زيدان**: تاريخ آداب اللغة العربية، طبعة دار الهلال ١٩٥٧م.

١٦- **جورج غريب (دكتور):** صدر الإسلام طبعة بيروت ١٩٨٩م
١٧- **ابن جوزيه (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر):** أعلام الموقعين عـن رب العالمين، تحقق محمد محيى الدين عبد الحميد طبعة الكردي.
١٨- **جوستاف لوبون:** حضارة العرب، طبعة الحلبي ١٩٦٢م.
١٩- **ابن حجر العسقلانى (أحمد بن علي):** الإصابة في تمميز الصحابة، المطبعة الشرقية- القاهرة ١٣٢٥هـ.
٢٠- **ابن حزم الأندلسي:** جمهرة أنساب العرب ط٥ دار المعارف.
٢١- **حسام محمد علم (دكتور):**
١- أشعار بنى بكر (رسالة مخطوطة تحت رقم "٢٩٣") بمكتبة آداب الزقازيق.
٢- أشعار الحارث بن كعب "جمع وتحقيق ودراسة" الضوي للطباعة.
٣- أشعار بنى حمير فى الجاهلية والإسلام دراسة لغوية- آيات للكمبيوتر ٢٠٠١م.
٤- بدايات الخط العربى بين النظرية والرؤية الحضارية- مطبعة آيات ٢٠٠٠م.
٥- دراسات فى الأدب الأموي "مشاركة مع أ.د. محمد عارف محمود حسين"
٢٢- **حسان بن ثابت:** ديوانه، طبعة دار المعارف.
٢٣- **الحصرى إبراهيم بن علي:** زهر الآداب ط٢ زكى مبارك - القاهرة.
٢٤- **خيــر الدين الزركلي:** الأعلام دار العلم للملايين بيروت بدون تاريخ.
٢٥- **ابــن خلــــدون:** مقدمة ابن خلدون، دار الشعب- القاهرة.
٢٦- **ابن رشيق القيروانى:** العمدة في صناعة الشعر ونقده، ط٢ القاهرة ١٩٥٥م.
٢٧- **رؤوف شلبى (دكتور):** المجتمع العربي قبل الإسلام، دار الكتب الحديثة ١٩٧٧م.
٢٨- **زكى عابدين (دكتور):** الحياة الأدبية في مكة من العصر الجاهلى حتى صدر الإسلام، ط١ دار المعارف ١٩٨٣م.
٢٩- **زكى مبارك:** النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ط دار الكتب المصرية ١٩٣٤م.
٣٠- **سامي العاني (دكتور):** الإسلام والشعر، مطبعة الرسالة- الكويت ١٩٨٣م.
٣١- **السباعي بيومي (دكتور):** تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام - بيروت بدون تاريخ.

٣٢- **ابن سلام:** طبقات فحول الشعراء طبعة القاهرة ١٩٥٦م.

٣٣- **السيد عبد القادر عويضة (دكتور):** أثر الإسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ط١ مطبعة الأمانة ١٩٨٧م.

٣٤- **السيد أبو ذكرى (دكتور):** الحياة الأدبية في عصر النبوة والإسلام، مطبعة معالجـــة الوثائق ١٩٩٦م

٣٥- **سيد قطب: (عالم جليل):** فى ظلال القرآن دار الثقافة بيروت بدون تاريخ.

٣٦- **السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن):**

١- الإتقان فى علوم القرآن، مطبعة مصر ١٩٣٥م.

٢- تاريخ الخلفاء دار الفكر - بيروت ١٩٧٢م.

٣- شرح شواهد المغنى مطبعة الخانجي. بمصر.

٤- المزهر في علوم اللغة دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١م.

٣٧- **شوقي ضيف (دكتور):**

١- العصر الإسلامى ط٥ دار المعارف بمصر ١٩٦٣م.

٢- العصر الجاهلي ط٧ دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

٣- الفن ومذاهبة فى النثر العربي ط٨ دار المعارف بمصر ١٩٧٥م

٣٨- **صلاح عيد (دكتور):** مدائح الرسول في فجر الإسلام- دار غريب ١٩٧٥م.

٣٩- **صلاح الدين المنجد (دكتور):** دراسات في تاريخ الخط العربي، بيروت ١٩٧٢م.

٤٠- **صلاح الدين الهادي (دكتور):** الأدب في عصر النبوة والخلفاء الراشدين، ط٣ مطبعة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٧م.

٤١- **طاهر درويش (دكتور):** الخطبة في صدر الإسلام، دار المعارف ١٩٨٦م.

٤٢- **الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير):** تاريخ الرسل والملوك، بيروت ١٩٦٨م.

٤٣- **طرفة بن العبد:** ديوانه بتحقيق وشرح كرم البستاني، دار صادر- بيروت ١٩٥٣م.

٤٤- **ابن عبد البر (يوسف بن عبد البر):** الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المطبعة الشرفية بمصر - بدون تاريخ.

٤٥- **عبد الجواد سليمان:** شاعر الرسول حسان بن ثابت، مطبعة أحمد مخيمر.
٤٦- **ابن عبد ربه:** العقد الفريد، مطبعة الاستقامة ١٩١٠م.
٤٧- **عبد القاهر الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز):** دلائل الإعجاز، ط٣- دار المنار.
٤٨- **عبد القادر القط (دكتور):** في الشعر الإسلامي والأموي، دار المعارف ١٩٩٥م.
٤٩- **عبد المحسن سلام (دكتور):** حيوان العرب، مطبعة الأمانة- بدون تاريخ.
٥٠- **عبده بدوي (دكتور):** الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربي الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٣.
٥١- **على البجاوي وآخر:** الفائق في غريب الحديث ط عيسى الحلبى سنة ١٩٤٨.
٥٢- **عون قاسم شريف (دكتور):** شعر البصرة في العصر الأموي- دار الثقافة – بيروت سنة ١٩٧٢م.
٥٣- **ابن فارس:** الصحابي في اللغة، طبعة مؤسسة بدران – لبنان ١٩٦٤م.
٥٤- **فلهاورن:** تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة د حسين نصار مطبعة التأليف والنشر ١٩٦٨م.
٥٥- **ابن قتيبة:**
١- الشعر والشعراء بتحقيق احمد شاكر طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٧م.
٢- المعارف- مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٣هـ. طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٩م
٥٦- **القرشي (أبو زيد بن أبى الخطاب):** جمهرة أشعار العرب، طبعة بيروت بدون تاريخ.
٥٧- **القلقشندي (أبو العباس أحمد بن على):** صبح الأعشى، طبعة دار الكتاب، لبنان.
٥٨- **ابن كثير (أبو الفدا الحافظ):** البداية والنهاية- مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦م.
٥٩- **كعب بن زهير:** ديوانه دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠م.
٦٠- **أبو محجن الثقفي:** ديوانه، مطبعة إبريل ١٨٨٧م.
٦١- **محمد حسن درويش (دكتور):** تاريخ الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام – دار المعارف بدون تاريخ.

٦٢- **محمد عبد العزيز الموافي (دكتور):** قراءة في الأدب الإسلامي والأمـوي، ط١ دار الثقافة العربية سنة ١٩٩٢م.

٦٣- **محمد عبد القادر (دكتور):** دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي، ط١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦م.

٦٤- **محمود حسن (أبو ناجي):** الرثاء أو جراحات القلوب في الشعر العربي، منشـورات مكتبة الحياة- بيروت ١٩٧٧م.

٦٥- **محمود عباس:** تاريخ الكتاب الإسلامي، مكتبة غريب ١٩٧٧م.

٦٦- **مدحت الجيار (دكتور):** الشعر العربي من منظـور حضـاري ط الأولـى الهيئـة المصرية العامة للكتاب - سنة ١٩٩٠.

٦٧- **مصطفى الشكعة (دكتور):** الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، الأنجلو المصـرية- سنة ١٩٨٤م.

٦٨- **ابن منظور:** (لسان العرب)، طبعة دار المعارف.

٦٩- **نبوي شعلان (دكتور):** الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلافة، دار قبـاء للطباعـة والنشر ١٩٩٨م.

٧٠- **نعمان القاضي (دكتور):** شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسـلام، الـدار القوميـة للطباعة والنشر ١٩٦٥م.

٧١- **هاملتون:** دراسات في حضارة الإسلام، بيروت ١٩٥٢م.

٧٢- **ابن هشام (أبو محمد بن عبد الملك):** السيرة النبوية، ط مصطفى البابي ١٩٣٦هـ.

٧٣- **يحيى الجبوري:**

١- الجاهلية، بغداد ١٩٦٨م.

٢- شعر المخضرمين ط٣ مؤسسة الرسالة ١٩٨٨م.

ثالثاً: من المجلات العربية والدوريات:

١- القافلة السعودية عدد شوال سنة ١٤١١هـ

٢- مجلة وقائع "ندوة النظم الإسلامية" أبو ظبى، مكتب التربية العربي بـالخليج، عـدد نوفمبر سنة ١٩٨٤م.